طه حسين

على هامش السيرة

٢

دار المعارف

طه حسين

على هامش السيرة

٢

الطبعة الثامنة عشر

دار المعارف

الفيلسوف الحائر

١

قال حاكم المدينة لصاحبيه حين سكت الغناء : ما أجمل هذا الصوت ! ما أذكر أنى سمعت قط شيئاً يقاربه عذوبة وسحراً .

قال كلكراتيس : إنه ليأتى من بعيد .

قال أندروكليس فى شىء يشبه الذهول : ويدعو إلى بعيد .

والتفت الحاكم إلى المغنية وهو يقول : من علمك هذا الصوت يا ابنتى؟ فقد ملأت به أسماعنا وقلوبنا وعقولنا منذ الليلة !

قالت الفتاة فى تحفظ شديد ، مصدره حياء شديد : لقد أخذته عن أمى يا مولاى ، وأخذته أمى عن جدتى ، وهو صوت شائع متوارث فى مدينتنا منذ الزمان القديم ، يتغنى به الفتيات الحسان إذا خرجن مع الصبح يستقبلن الفجر المضىء الرطب بوجوههن المشرقة الوضاءة ، ويملأن جرارهن من ماء النيل . يتغنين به فرحات مرحات ، كأنما يترجمن به عن فرح الطبيعة المستيقظة ، ومرح الصبح النشيط . ومع ذلك فما سمعت أمى تتغنى هذا الصوت مرة إلا رأيت على وجهها كآبة وشحوباً ، وأحسست فى غنائها حزناً تنفطر له القلوب . وقد سألتها عن ذلك فأعرضت عنى مرات ، ولكنها كانت تعاود الغناء فتعاودها الكآبة التى تغشى وجهها ، ويعاودها الحزن الذى يشيع فى صوتها ويفيض على الجو من حولها حسرة وألماً ، فأعود أنا إلى السؤال وألح فيه . فلما طال عليها ذلك منى أنبأتنى نبأ هذا الصوت ، وعرفت

منها أن جدتى لم تكن تتغناه إلا ثار فى نفسها حزن عميق وتحدر من عينيها دمع غزير .

وما أكثر ما تخرج الأشياء عن أطوارها وتجرى الأمور فى أجيال المحدَثين على غير ما كانت تجرى عليه فى أجيال القدماء ! كان هذا الصوت صورة الحسرة واللوعة ، وترجمان الجزع واليأس عند جدّاتنا فى الزمان الأول ، فإذا هو الآن عند أترابنا من أهل هذا الجيل صورة الفرح والمرح ، وترجمان اللذة والغبطة والسرور .

ولقد تغنيت هذا الصوت فى كثير من المجالس ، وتردد به صوتى فى كثير من قصور الحكام والسادة ، فما رأيت أحداً سمعه ، ثم ذاقه ، ثم فهمه على وجهه ، ثم شاركنى فيما أجد من عاطفة وما يملأ نفسى أثناء غنائه من شعور ، قبل أن أراكم الليلة ، وقبل أن أسمع سؤالكم عنه وقدركم له وحكمكم عليه .

ثم أمسكت الفتاة عن الحديث ، أو انقطع صوتها انقطاعاً ، حبسته فى حلقها عبرةٌ أمسكتها الفتاة إمساكاً ، ولكنها تفجرت من عينيها دموعاً متحدرة على خديها الجميلين .

هنالك أسرع أندروكليس فى شىء من الدعابة الخفيفة إلى الفتاة فقبل بين عينيها ، ومسح هذا الدمع المتحدر وهو يقول : مهلا يا ابنتى ! ما ينبغى لهاتين العينين أن تبكيا ، ولهذا الوجه الجميل أن يغسله الدمع ، ونحن بعدُ لم نجتمع للبكاء والحزن ، وإنما اجتمعنا للغناء واللهو . فانتقلى بنا من هذا الصوت الحزين المحزن إلى لون آخر من ألوان الغناء . خذى فى بعض هذه الأغانى التى تملأ جو الساحل بهجة وسروراً ،

والتى يتنقل بها أولئك الفتيات على مجالس السمّار وأصحاب العبث مع ما يتنقلن به من طاقات الورد والياسمين .

قال كلكراتيس فى صوت هادئ كأنما يملكه صاحبه فى شىء من العنف والشدة على نفسه : دعنا من دعابتك ومجونك ، وأرحنا من فرحك ومرحك ، فما أهون الدعابة والمجون ، وما أيسر الفرح والمرح ! وإننا لفى ذلك منذ نصبح إلى أن نمسى ، وإننا لفى ذلك منذ نمسى إلى أن يتقدم بنا الليل . يا عجباً للذين لا يسأمون اللذة ، ولا يضيقون باللهو ، ولا يحتاجون بين حين وحين إلى شىء من الحزن يردّ نفوسهم إلى بعض أطوار الجدّ ويصوّر لهم الحياة على أنها شىء غير هذا الباطل الذى لا ينقضى ، والعبث الذى لا يزول . إن لصوتك هذا يا ابنتى لنبأ ، فحدّثينا به وقُصّيه علينا ! فقد شاركناك فى ذوقه وفهمه ، فما أجدرنا أن نشاركك فى العلم بما له من تاريخ !

قالت الفتاة مترددة متحفظة وقد نظرت إلى حاكم المدينة نظر المستأذنة المستأمنة ، فأشار إليها برأسه ويده أن امضى فليس عليك بأس .

قالت الفتاة : إن لهذا الصوت تاريخاً لو عرفه أصحاب السلطان لحظروا غناءه على فتيات الريف .

قال الحاكم : سأعرفه ولك علىّ ألاّ أحدث فى أمره شيئاً .

قالت : فإنه صيحة من تلكم الصيحات التى انبعثت من نفوس الشعب حين فُرض عليها دين المسيح وصُدّتْ فى قوة وعنف عن دين الآباء والأجداد . ألم تسمعوا إلى ألفاظه ؟ ألم تفهموا معانيه ؟

إنها تسأل عن نجم كان يشرق فى السماء إذا تقدّم الليل ، وكان يبعث مع أشعته إلى نفوس الناس لذة وحبًّا وأملا ، وكان الناس ينتظرون مطلعه ليتلقوا أشعته التى كانت تحمل إليهم الحياة ، وتجدد فى نفوسهم الأمل ، وتمس قلوبهم بأجنحة الحب المحرقة . فلما فُرض عليهم الدين الجديد فرضاً ، وأخذوا بالإعراض عن حياة آبائهم وأجدادهم أخذاً عنيفاً ، أعرضوا كارهين عن هذا النجم ، فأخذوا لا ينتظرون مطلعه ، ولا يستقبلون أشعته ، ولا يرسلون نفوسهم إليه إذا جنهم الليل إلا أقلهم ؛ فقد كانوا يترقبونه خفية ويستقبلون أشعته سرًّا ، ويرسلون إليه نفوسهم من وراء الحجب . وكأن هذا النجم قد أنكر إعراض عباده عنه ، وضاق بجحودهم لما كان يُسدى إليهم من يد ، ويصنع فيهم من معروف ، أو كأنه أشفق من هذا الإله الجديد الذى ملأ عليه أرجاء الأرض وآفاق السماء ، فترقبه عباده الليلة بعد الليلة ، والليالى بعد الليالى ولكنهم لم يجدوه ، وأرسلوا إليه نفوسهم ولكنها عادت إليهم باليأس والإخفاق ، وبالحسرة واللوعة ، وبالجزع والقنوط .

فهذا الصوت سؤال ساذج ، توجهه النفوس الساذجة إلى السماء الصامتة وإلى النجوم الخرساء ، تسألها عن نجمها الذى أضلّته ما خطبه ؟ وأين يمكن أن يكون ؟ وهل لها إليه من سبيل ؟ فلا ترجع عليها السماء جواباً ، ولا تردّ عليها النجوم صدى ، كأنما أدركها الصمم ، وكأنما عُقدت ألسنتها عن الكلام . ومع ذلك فما كان أكثر ما تسمع السماء والنجوم لأهل الأرض ! وما كان أكثر ما يسمع أهل الأرض لحديث السماء والنجوم !

قال كلكراتيس : فهو ذاك يا ابنتى ! وإنك لتتحدثين إلينا بحديث أنفسنا ، وتعرضين علينا صورة قلوبنا ، فما أكثر الذين يلتمسون هذا النجم أو نجماً يشبهه فى السماء فلا يجدونه ! وما أكثر الذين يسألون عن هذا النجم أترابه التى تبدو إذا جن الليل فلا يظفرون منها بشىء !

قال أندروكليس : إن النجوم صماء قد آذاها صوت هذه النواقيس التى تقرع من كل بيعة فى كل قرية ، وفى كل وجه من وجوه المدن ، فتملأ الجو بهذا الرنين والطنين ، وتبسط بين أصوات الناس وأسماع النجوم حجاباً صفيقاً لا يخترقه السؤال ولا ينفذ منه الجواب.

قال حاكم المدينة وهو يتكلف الوقار ويتصنع الهيبة : مهلاً ! إنكم تُلحدون فى دين قيصر ! وإنكم تعلمون أن قيصر قد أعدّ للملحدين فى دينه عذاباً شديداً ، وإنى أنا الموكل بهذا العذاب . لقد آمنتك يا ابنتى على نفسك وعلى صوتك هذا الجميل ، فلا بأس عليك ! ولكن خذى إن شئت فى غير هذا الغناء ، أو أريحى نفسك لنأخذ نحن فى غير هذا الحديث .

وخلا الحاكم بعد ساعة إلى صاحبيه ، ولكنه لم يخض معهما فى لون آخر من ألوان الحديث ، وإنما حذرهما وحذر نفسه أيضاً من هذا التهاون والتفريط ، وذكرهما وذكر نفسه أيضاً بأن قيصر لا يعرف هوادة فى الإلحاد، ولا ليناً مع الملحدين ، وبأن الوثنية إثم يعاقب عليه القانون أشد العقاب : تُصادَر فيه الثروة ، وتُستصفى فيه الأموال ، وتُسفك فيه الدماء .

قال الحاكم : وقد أقامني قيصر كما تعلمان حفيظاً على دينه ، كما أقامني حفيظاً على سياسته ومدبراً لأمره فى هذا الإقليم ، فكيف به لو ارتفع إليه بعض ما نحن فيه ! وكيف به لو علم أنه قد آمنني على الدين فأنا أخونه فى الدين ، وأعين اثنين من صديقي على مثل ما أمعن فيه من خيانة !

قال أندروكليس : هوّن عليك فإنا لم نزد منذ الليلة على ما تعودنا أن نفعل وأن نقول منذ أعوام ، قبل أن تلي الحكم وبعد أن وليته ، ولم يرتفع إلى قيصر من أمرنا شيء ، فماذا يُخيفك ؟ وماذا يدعوك إلى هذا الغلو فى التحفظ والإغراق فى الاحتياط ؟ أمشفق أنت من هذه المغنية المصرية التي لا يبلغ صوتها ما وراء غرفتك وحجراتك ، ولا تتصل الأسباب بينها وبين أحد غيرك من الناس ؟

قال حاكم المدينة : بل أنا مشفق من جواسيس قيصر الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم ، والذين يندسون فى كل بيئة وينسلون إلى كل مكان ، ويتلطفون حتى يعرفوا أسرار البيوت ويظهروا على دخائل النفوس ، ثم يرفعون ذلك إلى قسطنطينية فتصدر فيه الأوامر بما تعلمون . وما صرفت الحاشية والندماء حين انتصف الليل ، وما صرفت هذه المغنية آنفاً ، وما تعجلت الخلوة إليكما قبل إبانها لنفرغ لما تعوّدنا أن نفرغ له من عبادة آلهتنا الذين نحبهم ونؤثرهم على النحو الذى يحبون أن يُعبدوا عليه ، وإنما أردت بما تعجلت من هذه الخلوة أن أحذركما وأحذر نفسي ، وأن أذكركما وأذكر نفسي ، وأن أستشيركما فى حدث طارئ وخطب ملمّ . فقد ارتفعت الأنباء إلى

قسطنطينية بأن شيئاً من التهاون فى الدين قد أخذ يشيع فى هذا الوجه الذى يلينا من وجوه الدولة ، وبأن جماعة من المعلمين والفلاسفة قد أخذوا يظهرون إنكارهم لما كان من اضطهاد المعلمين والفلاسفة الوثنيين فى بلاد اليونان ، وقد أخذوا يجهرون بشىء من الدعوة للدين القديم ، يظهر الآن يسيراً لا يكاد يُحسّ ، ولكنه يُوشك أن يقوَى ويشيع وينبث فى أطراف الأرض ، فيعظم الشرّ ، ويكثُر الفساد ، وينقبض دين المسيح عن أرض قد استقرّ فيها سلطان المسيح .

وقد انتهى إلىّ ، اليوم ، أمر قسطنطينية أن أتنبه لذلك ، وأنهض لمراقبته ومقاومته ، وآخذ الذين يظهر فى سيرتهم إلحاد أو شىء يشبه الإلحاد بأقصى ما أملك من الشدة والعنف .

قال أندروكليس : فهذا سعى القسيسين وكيد الرهبان .

قال الحاكم : أو سعىُ المنافسين وكيد الخصوم . ومهما يكن من شىء فالحذر أيسر ما يجب علينا ، والاحتياط أولى ما يجمل بنا .

قال كلكراتيس : إنى قد ضقت بحياتكم هذه البغيضة التى لا سماحة فيها ولا يسر ، ولا راحة فيها ولا لين . تضييق على الناس فى حياتهم حين يغدون وحين يروحون ، وفى سيرتهم حين يجتمعون وحين يتفرّقون ، وفى أحاديثهم حين يلقى بعضهم بعضاً ، وفى نجوى حين يخلو أحدهم إلى نفسه أو يدير فى رأسه بعض ما يدير من الرأى . من الذى فرض لكم على الناس هذا السلطان ؟ ! ومن ذا الذى لكم أن تنفذوا إلى نفوس الناس وضمائرهم ، ولا تسألوهم عما يعملون تسألوهم عما يرون ؟ ! وما ينبغى لكم مع ذلك أن تسيطروا من

آعمال الناس على شيء ما لم يُبدُوا لكم صفحتهم أو يُظهروا لكم مقاومة وعصياناً .

فكيف بسؤالهم عن رأى العقل وحديث الضمير؟! أليس قد قال المسيح الذى يفرض قيصر على الناس طاعته ودينه: «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» ؟ فما بال قيصر يتجاوز حدوده ، ويغير على ما ليس له ، ويدخل بيننا وبين نفوسنا ، ويندسّ بيننا وبين آلهتنا ! أليس يكفيه أنْ هدم المعابد ، ودمّر الهياكل ، وألغى الديانات ومزّق أصحابها كل ممزق ، وثأر للذين استشهدوا فى سبيل المسيح ، فجعل للأوثان شهداء امتحنوا فى أنفسهم وأهلهم وأموالهم حتى محوا من الأرض محواً ؟ ! أليس يكفيه أن يبلغ هذا كله حتى يدخل بين المرء وضميره ، ويندسّ بين المرء ونفسه؟! أليس يكفيه أن يبسط سلطانه على الأجسام حتى يحاول أن يبسط سلطانه على القلوب والعقول؟! وكيف السبيل له إلى استذلال القلوب والعقول ؟ ! إنى لألقى أعوانه وعماله بما يُرضيهم ويُرضيه ، فأكفّ عن نفسى أذاهم وأذاه ، ولكنى أكتم فيما بينى وبين نفسى ما أشاء من الأمر ، وأدير فى رأسى ما أحب من الرأى ، وأتقدم بالدين والطاعة والحب فى قلبى لمن أوثر من الآلهة . والأمر يستطيع أن يستقيم بين قيصر وبينى على هذا النحو من النفاق الذى تستقيم عليه أمور الناس كلهم فيما بينهم من علاقة أو صلة . فما بال قيصر يكلف نفسه ما لا يُطيق ، ويحمل الناس من الأمر ما لا يحبون ويريد أن تخلص له قلوبهم وسرائرهم ، كما تذعن له أجسامهم وظواهرهم !

إنه لا يبلغ من ذلك شيئاً ، ولكنه يُضيع قوته عبثاً ويفنى جهده

فى غير طائل ، ويُحرج الناس ويرهقهم من أمرهم عسراً ، وينتهى آخر الأمر إلى أن يصرفهم عن حبه ، ويزهدهم فى طاعته ، ويملأ قلوبهم بغضاً له وإنكاراً عليه ؛ وقد يدفعهم إلى أن يعصوه ويثوروا بسلطانه حين يجدون إلى العصيان والثورة سبيلا .

قال حاكم المدينة : على رسلك ! هدئ من هذه الحدة ، وهون من هذه الشدة ، واخفض من هذا الصوت ! فإنى قد صرفت الحاشية والخدم والحجاب ، ولكنى لا آمن أن يكون قد تخلف منهم وراء الأستار أو دون الأبواب من يتسمع علينا . وما أرى بعد ذلك إلا أنك تريد قيصر على ما لا يلائم أخلاق القياصرة . فمتى رأيت صاحب السلطان الواسع العريض يرضى من الناس بأيسر الطاعة ، ويقبل منهم ظاهراً من الخضوع ، ولا يكلفهم أن يُخلصوا له الحب و يُصفوه مودة قلوبهم وخاصّة نفوسهم ، فإن ظفر منهم بما يريد فذاك وإلاّ حملهم عليه كرهاً ، وخيل إلى نفسه بل أقنع نفسه بأنه يستطيع أن يصل إلى القلوب من نفس الطريق وبنفس الوسائل التى يصل بها إلى الأجسام ؟ ! والسلطان بطبعه طاغية ، لا يقرّه فى حدوده ، ولا يرده عن الظلم والجور إلاّ سلطان مثله يعدله ويوازنه ويحول بينه وبين الجموح.

فهل تعرف سلطاناً يعدل سلطان قيصر ؟ وهل تعرف قوّة توازن قوة قيصر ؟ وهل تعرف فى الأرض فرداً أو جماعة أو مظهراً من مظاهر الطبيعة يستطيع أن يرد قيصر إلى الحد إن همّ قيصر أن يتجاوز الحد ؟ !

قال كلكراتيس : فإن أصحاب هذا الدين الذى يفرضه علينا قيصر يزعمون أن هذه القوة ليست فى الأرض ولكنها فى السماء ، وأنها

أضخم ملكاً وأعظم بطشاً وأوسع سلطاناً من كل ما يملك قيصر ، وأنها خليقة أن تكبحه إذا جمح ، وترده إذا طغى .

قال أندروكليس : هذا كلام يقال ، وما أستطيع أن أومن لهذه القوة حتى أراها ، وما أستطيع أن أذعن لها حتى أرى أثراً من آثارها أو مظهراً من مظاهرها . فما أكثر ما يطغى قيصر ويبغى ! وما أكثر ما يجور عماله ويظلمون ، فلا تردهم هذه القوة ولا تصدّهم ، وكأنها تدفعهم إلى البغى دفعاً ، وتمد لهم أسباب الظلم والجور !

قال حاكم المدينة وعلى ثغره ابتسامة لا تخلو من سخرية : فإنكما تجهلان من هذا الأمر أكثر مما تعلمان .

تجهلان أن بين الأرض والسماء حلفاً منذ فُرض الدين الجديد على الناس ، وأن قيصر يمثل هذا الحلف وينطق عنه ، فإذا أجاز قيصر أجازت السماء ، وإذا منع قيصر منعت السماء ، وإذا حلّ قيصر أو عقد فإنما يحلّ ويعقد بأمر السماء . وما ينبغى أن تنكرا من ذلك شيئاً . وقد كان أمر قيصر فى ظل الدين القديم على مثل ما هو عليه فى ظل الدين الجديد : كان ينطق بلسان « چوبتير » ، ويبطش بيده ، ويمزق بسلاحه ، ويحرق بناره أولئك المستضعفين من النصارى ، فهو الآن ينطق بلسان المسيح ، ويبطش بيده ، ويصبّ بأسه على الأثينيين .

قال كلكراتيس : إن دلّ هذا على شىء فإنما يدل على أن قيصر إنما ينطق بلسان نفسه ، ويبطش بيد نفسه ، ويصبّ على الناس ظلم نفسه وجورها ! وما كان « چوبتير » ليكلف القياصرة ما تكلفوا

من شطط . ولست أعرف المسيح ، ولكني ما أظنه أقل رحمة للناس ورفقاً بهم من «چوبتير» ، وما أرى إلا أن قيصر يبغي علينا ويبغي على آلهتنا كما يبغي على إلهه هو .

قال أندروكليس : فالأمر كما تقول . ولكن ما الذي تستطيع أن تفعل ؟ وما الذي تريد أن تفعل ؟ إنك لا تستطيع أن ترد على قيصر أمره ، ولا أن تلقى بغيه وعدوانه بما يشبههما من البغي والعدوان . فليس لك إلا أن تذعن فتحيا ، أو تأبى فتموت .

قال حاكم المدينة : والخير في الإذعان ! لأن الحياة خير من الموت ، فنحن نعرف الحياة ، ونبلو لذاتها ، ونذوق آلامها ، ولا نعرف من أمر الموت وما وراءه شيئاً . ويجب أن تكون للآلهة أسرار لا تستطيع عقولنا أن تبلغها أو ترقى إليها . فما لإله قيصر لا يصد قيصر عن ظلمه ! وما لآلهتنا لا تحمينا من هذا الظلم ؟ ! كأنما انصرف إله قيصر وانصرفت آلهتنا عن الأرض وما يقع فيها من بغي وعدوان ، وعن الناس وما يجني بعضهم على بعض من ظلم وجور .

قال أندروكليس : وما يدريك ؟! لعل ما يحدث في السماء ونجومها ليس خيراً مما يحدث في الأرض ، ولعل وراء هذا الكون من عظيم الأمر ما يشغل الآلهة عما يحدث فيه من الأحداث .

قال كلكراتيس : وإذاً ؟!

قال حاكم المدينة : وإذاً فلنلقَ الحياة كما نستطيع ، ولنحتمل منها ما نطيق ، ولنأخذ من لذاتها ما يتاح لنا ، ولنؤد إلى قيصر ثمن هذه اللذات طاعة وإذعاناً نُخلص فيهما ما وسعنا الإخلاص ،

وننافق فيهما إن اضطررنا إلى النفاق .

قال كلكراتيس : فنحن فى ذلك منذ عرفنا أنفسنا لا نعصى لقيصر أمراً ، ولا نخرج عما رسم لنا من الحدود .

قال الحاكم : بل أنتما تعصيان له بعض الأمر ، وتخرجان عن بعض ما رسم لكما من الحد . فأنتما لا تشهدان الصلاة ، ولا تختلفان إلى الكنائس ، ولا تُظهران تعظيم المسيح ، ولا تقدمان إلى القسيسين والبطارقة ما يصلح رأيهم فيكما . وقد كنت مثلكما حيناً من الدهر ، وما أظننى خالفتكما فيما أخالفكما فيه من ذلك إلا لأن المنصب يفرض على أن أشهد الصلاة وأختلف إلى البيع ، وأظهر للدين ورجاله ما أظهر من التعظيم . وقد نفعنى ذلك كما تريان ولم يضرّنى شيئاً .

ثم أطرق صامتاً فأطال الإطراق ، ثم رفع رأسه وقال مبتسماً : وأحسبه نفعكما أيضاً . فما يمنعكما أن تذهبا مذهبى ، وتسيرا سيرتى ، وتعلنا لقيصر ما يريد إعلانه ، وتضمرا لأنفسكما وآلهتكما ما تحبان ! إنكما لا تنكران ذلك من أمرى ، فما لكما لا تعرفان منه مثل ما أعرف ، ولا تأتيان منه مثل ما آتى؟!

قال أندروكايس : لأنا لا نريد أن نرقّى إلى مثل ما رقيت إليه من منصب ، ولا أن نظفر بمثل ما ظفرت به من قوة وسلطان ، ولأن مالنا يغنينا ، وجاهك يحمينا ، وهذه الحياة ترضينا .

قال حاكم المدينة : فإن عجز جاهى منذ الآن عن حمايتك؟

قال كلكراتيس : فإنه النذير بالقطيعة إذاً .

قال حاكم المدينة : لا تتعجل القضاء على صديقك، ولا تُسرع

إلى سوء الظن به ! فإنى لا أريد قطيعتكما ولا أقدر عليها ، وإنما هو خطب ألمّ ، فأنا أستعينكما عليه ، وأستشيركما فيه ، فأعينانى وأشيرا علىّ . وإنكما لتعلمان أنى ما أملك لكما ولا لنفسى من غضب قيصر شيئاً . فلنجمعْ أمرنا ، فإما طاعة لقيصر من ثلاثتنا ووراءها ما وراءها من الحظوة والنعيم ، وإما معصية لقيصر من ثلاثتنا ووراءها ما وراءها من البؤس والضر ومن عذاب قد ينتهى إلى الموت .

قال أندروكليس ضاحكاً وهو ينظر إلى زجاجات وأقداح قد وضعت من القوم غير بعيد : ما أرى إلا أنك قد بدأت تذيقنا هذا العذاب . فهذه الزجاجات القائمة تدعونا ، وهذه الأقداح المصفوفة تغرينا ، وأنت تشغلنا عنها بما تخوفنا من أمر قيصر وبأسه بعد أن حرّقت أجوافنا بما قدّمت إلينا من طعام ، وجففت حلوقنا بما صببت علينا من نذير . فلنسق هذه الأقداح الظامئة ، ولنطفئْ هذه الأجواف المحترقة ، ولنرطبْ هذه الحلوق الجافة ، ولنقدم الطاعة إلى دينوزوس فى ظلمة الليل ، والإذعان إلى قيصر فى وضح النهار .

ثم نهض فخيل شيئاً من رقص دينوزوس ، وأسرع إلى المائدة فملأ قدحاً قدّم منه قطرات إلى دينوزوس ، ثم صبه فى فمه صبًّا ، ثم ملأ الأقداح الثلاثة فقدم إلى صاحبيه ، وعاد إلى مجلسه وفى يده قدحه يحسو منه حسو الطير ويقول : لست أرى بهذه القسمة بأساً : الليل لدينوزوس ، والنهار لقيصر . وإن شئتما فليكن النهار قسمة بين قيصر والمسيح : لقيصر شطر النهار ، وللمسيح شطره الآخر . ولكنكما كنتما تقولان إن بين قيصر والمسيح حلفاً فلا حاجة إذاً إلى

أن نقسم النهار بينهما ؛ فلنقدّم النهار كله إلى قيصر فسيرضى المسيح ، كما كان عامة الناس يقدّمون عمرهم كله لقيصر فيرضى « چوبتير » . أما أنا فهذا الرأى يرضينى كل الرضا ، يحقق آمالى ومآربى ، ويرضى حاجاتى ومنافعى ، ويرضى بنوع خاص رأيى وفلسفتى . فما يمنعنى أن أكون من عامة الناس حين تغمرنا الشمس بضوئها هذا الفظيع الذى لا يخفى عليه شىء ولا يستتر من دونه أحد ، وأن أكون من خاصتهم حين يغمرنا الليل العطوف الأمين بظلمته الحصينة المتينة التى لا تُظهرنا إلا على نفوسنا ، والتى تتيح لشخصياتنا أن تسترد ما فقدت من حرياتها فى ضوء النهار ، والتى لا يلمع فيها إلا هذه الأشعة الضئيلة التى ترسلها إلينا النجوم كأنها التحية الخفية يرسلها الحبيب إلى عاشقه بمأمن من الرقباء . قال ذلك ثم أفرغ قدحه فى جوفه ، ونظر إلى صاحبيه فى شىء من الإشفاق والازدراء وهو يقول : ما أقل نشاطكما للشراب ! وما أشد فتوركما عن دينوزوس ! ما كنت أحسب أن خوف قيصر يغنيكما عن نبيذ ساموس . أفرغا قدحيكما فإن جوفى يحرقه الصدى . وما أدرى فيم هذا القصر الضخم ، والمنصب الفخم ، والثراء العريض؟ هلم يا سيدى فادع لنا بعض إمائك يغنين ويرقصن ويطفن علينا بالأقداح والأكواب ، فما عُبد دينوزوس بخير من الغناء والرقص والشراب .

قال كلكراتيس فى هدوء يملؤه الجدّ وقد غشى وجهه العبوس : ليس الأمر من اليسر بحيث تظن . وما أرى إلا أن خوف قيصر هو الذى يدفعك إلى الشراب ثم إلى السكر .

قال أندروكليس : أخطأت ياصديقى ! سأخاف قيصر طول النهار ، فلآمنه أثناء الليل . وإنما أدعوكما إلى دينوزوس لأننا قد عدونا عليه ، وجرنا عن طريقه ! فنحن مدينون له بالليل كله ، وقد صرفنا عنه بعض هذا الليل إلى قيصر ، فلنحذر أن ينكر ذلك من أمرنا ، فيسخط علينا إله الليل دينوزوس ، وإله النهار قيصر .

وكان الصديقان قد أفرغا قدحيهما ، فنهض أندروكليس نشيطاً مرحاً فملأ الأقداح الثلاثة ، وقال لحاكم المدينة : أتريد أن تدعو إماءك أم تأذن لى فى أن آتى هذه الحركة التى تأتيها فيستجيب لك الخدم ؟ إنما هى يد تضرب يداً فيصل الصوت إلى من ندعو .

قال كلكراتيس : مهلا ! فإنى فى حاجة إلى لحظات أخلو إليكما فيها ، فما أحب أن نفترق وأنا أطوى عنكما بعض الأمر .

قال حاكم المدينة : وما ذاك ؟

قال كلكراتيس : ذاك أنى لا أرى رأيكما ، ولا أعرف لقيصر سلطاناً على قلبي ، ولا أحب أن أعبد إلهـًا لا أعرفه ، ولا أريد أن أضيف إلى آلهتى إلهـًا جديداً ! لأنهم يكفوننى ويغنوننى من كل إله . والآن فادع إماءك إن شئت ، ولنعبد دينوزوس على ما بيننا من اختلاف الرأى : أخلص له ولأصحابه من أهل الأولمب ، وتشركون معهم إلهاً جديداً أو إلهين جديدين .

قال حاكم المدينة : فإن هذا لا يحلّ المشكلة ، ولا ينتهى بنا إلى غاية نرضاها .

قال كلكراتيس : سنستأنف الحديث فى ذلك إذا كان الغد ،

فدعنى أفكر ، وادع إماءك وندماءك ! فقد جُرْنا وأسرفنا فى الجور على دينوزوس .

ودق حاكم المدينة يداً بيد ، فما هى إلا لحظات حتى فُتحت الأبواب ، وانفرجت الأستار ، وأقبل الجوارى حساناً صباحاً يحملن فنون الزهر ، وألوان الفاكهة ، ويتهيأن للرقص والغناء .

٢

ولم يجلس كلكراتيس لأصدقائه من الغد كما تعود أن يفعل وجه النهار من كل يوم ، ولم يفرغ لذلك العبد الذى جعله على ثروته وخزائن ماله ، ولا لهذا العبد الذى وكل إليه تدبير القصر وأمر الخدم والرقيق ، كما تعود أن يفعل آخر النهار من كل يوم ! بل لم يستطع عماله وأصحاب تجارته الواسعة أن يرفعوا إليه شيئاً من أمرهم كما تعودوا أن يفعلوا كلما تولى النهار ؛ لأنه احتجب ذلك اليوم منذ رجع من قصر الحاكم قبل أن يسفر الصبح بقليل . أوى إلى مضجعه فاستوفى حظه من راحة هادئة ونوم مطمئن ، ثم نهض مع الظهر فأدّى لجسمه الذى تعود أن يؤديه له من العناية والرياضة ، ثم خلا إلى نفسه يفكر فيما كان بينه وبين صديقيه من حديث ، ويدير رأيه فيما عسى أن يتخذ من سيرة ويسلك من طريق . وكان صادقاً كل الصدق مصمماً كل التصميم حين أعلن إلى صديقيه فى لهجة الحازم العازم أنه يأبى أن يقسم حياته بين قيصر وبين ضميره ، وأن يُظهر لقيصر ما يرضيه من الإيمان بالدين القائم ، ويُخفى فى نفسه ما يرضيها من الإخلاص للدين الوثنى القديم . وكان يعلم حق العلم أن صديقه الحاكم لا يتقدم إليه فى مصانعة قيصر وموادعة السلطان إلاّ مُؤْثراً له بالخير ، مشفقاً عليه من الشر . ولعل صديقه الحاكم كان يحتاط لنفسه بعض الشىء حين كان ينصح بالمصانعة والموادعة . ولكن أى غرابة فى هذا وصديقه إنسان فيه ضعف الناس وقوتهم ، وفيه أثرة

الناس وإيثارهم ؟ !

والشيء الذى ليس فيه شك ولا ريب هو أن صديقه كان مخلصاً صادق النية حين أعلن إليه وإلى صاحبه أنه يستعينهما على خطب ألمّ ، ويستشيرهما فى حادث طرأ ، ويريد أن يكون معهما على طاعة قيصر إن أزمعا الطاعة ، وعلى عصيان قيصر إن أرادا العصيان .

ولو أن أندروكليس كان صُلبَ الرأى جرىء القلب مستمسكاً بتراث آبائه حريصاً على حقه فى حرية الضمير ، لاستطاع الصديقان أن يحملا صديقهما الحاكم على أن يشاركهما فى الرأى ، ثم لاستطاع الثلاثة الأصدقاء أن يُحكموا أمرهم بينهم ، وأن يلتمسوا لأنفسهم مخرجاً من هذا الضيق ، يلتمسون هذا المخرج بالحيلة أو بالضعف .

ولكن أندروكليس رجل لين النفس ، فاتر الرأى ، لا يحفل بدين قديم أو جديد ، ولا يقدر تراث الآباء ولا كسب الأبناء ! بل هو لا يفكر فى أمس ولا فى غد ، وإنما يفكر فى يومه الذى يعيش فيه ، يُعرض عما مضى ، ولا ينتظر ما سيأتى ، ولا يؤمن إلاّ بما يرى ، وبما يرى فى الساعة التى هو فيها . فإلهه الذى يعبده ويُخلص له هو نفسه ، يبتغى لها اللذة والنعيم ، ويدفع عنها الألم والشقاء ما وجد إلى ذلك سبيلا . وهو من أجل ذلك مضطرب الرأى أو لا رأى له ، ينكر اليوم ما عرف بالأمس ، وقد يعرف الآن ما كان ينكر منذ حين .

وقد آثر أندروكليس العافية ، وأشار بالطاعة والإذعان ، فوافق رأيه ومشورته هوى الحاكم ، وإيثاره للراحة والهدوء ، وحرصه على الاستمتاع بلذة الأمن والقوة والسلطان والجاه ، والاندفاع مع الأمل

القومى البعيد الذى لا يعرف حدًّا يقف عنده ولا غاية ينتهى إليها .

فلم يبق بعد اتفاق هذين الصديقين لكلكراتيس إلا أن يختار بين اثنتين : فإما أن يشايع صديقيه على ما أحبا ، وليس إلى ذلك من سبيل ؛ لأنه لا يريده ، ولو أراده لما استطاعه ولا قدر عليه . وإما أن يخالف صديقيه ، ولكن على ألا يؤذيهما ولا يسوءهما ولا يعرضهما لشر يأتيهما من قبل السلطان، ولا يُلقى فى رُوعهما أنه مقاطع لهما أو ساخط عليهما ! فهما لا يستحقان مقاطعة ولا سخطاً ، وقد نصحا له جهدهما ، وآثراه بما يؤثران به نفسيهما . وهذه الخطة هى التى آثرها كلكراتيس ، ولكنه يلتمس إليها السبيل ، ويبتغى إليها الوسيلة ؛ فيفكر ويطيل التفكير دون أن يهتدى إلى المذهب الذى يربح منه صديقيه من غير أن يشق عليهما أو يسوق إليهما بعض ما يكرهان .

وقد فكر فى الموت . وأى شىء كان أيسر من التفكير فى الموت بالقياس إلى أولئك المثقفين المفلسفين من اليونان فى ذلك العصر ، ولا سيما حين كانوا يحتفظون بالوثنية أو بظل منها ! فقد علمهم شيوخهم وأساتذتهم من أتباع « أبيقور » وأصحاب الرواق أن حياة الفرد ليست شيئاً ، وأن موت الفرد ليس شيئاً ، وقد ضُربت لهم الأمثال مرات ومرات ، فما أكثر أولئك الذين كانوا يكرهون الحياة فيخرجون منها مزدرين لها أشد الازدراء ، مكبرين لأنفسهم أشد الإكبار ! يرون شيئاً من العزة فى أنهم دخلوا الحياة غير مريدين ولا مختارين ، فأتيحت لهم لذاتها ، وفُرضت عليهم آلامها وهم يستطيعون أن يُعرضوا عن هذه اللذات الحلوة ، وأن يتمسكوا بهذه الآلام المرة ، كما يستطيعون

أن يجتثوا حياتهم من أصلها اجتثاثاً فيلغوا اللذات والآلام جميعاً ، ويُثبتوا لكل إنسان ولكل إله ولأنفسهم قبل كل إنسان وكل إله أنهم أكبر من اللذة ، وأكبر من الألم ، وأكبر من الحياة نفسها .

نعم ! فكر صاحبنا فى الموت واستحضره ، وكاد يطيل الوقوف عنده ، وكاد يأخذ فى تدبير أمره وأمر الذين سيتركهم من ورائه وما سيورثهم من ثروة ضخمة وغنى عريض . ولكنه أحسّ أن نفسه لا ترغب فى الموت ، ولا تطيب عن الحياة ، لا إشفاقاً من الموت ، ولا تهالكاً على الحياة ، بل رغبة فى المعرفة ، واستزادة من لذة العلم . فالموت ليس شيئاً ، والحياة ليست بذات خطر ، ولكن بين هذا الموت وهذه الحياة شعوره هو بأنه موجود ، وعلمه هو الذى يتزايد بين حين وحين ، فيظهره على ما كان ، وعلى ما هو كائن ، وعلى ما سيكون . ولو أنه استيقن أن وراء الموت علماً ، أو أن وراء الموت شيئاً خليقاً أن يُعلم ، لما تردد فى الإسراع إليه ! ولكنه لا يعرف ما وراء الموت ، بل هو يقطع بأن ليس وراء الموت علم ولا عالم ولا معلوم والموت آت لا محالة ، فما له يتعجله ! والموت يسعى إلى الإنسان ، والإنسان مدفوع إلى الموت دفعاً ، فما باله لا ينتظر هذه الساعة التى لا بدّ من أن تلمّ به ! وما باله لا يستمتع بهذه اللذة الغالية النادرة التى لا تُقدَّر ولا تقوّم : لذة العلم والمعرفة ! وهو يفكر فى هذا كله متعمقاً له ، مستغرقاً فيه ، يسأل نفسه : أى الأمور أهون لقاءً وأيسر احتمالاً : إرضاء صديقيه بطاعة قيصر ، وتكلف ما يقتضيه ذلك من النفاق ، أم إسخاط صديقيه وإسخاط قيصر والتعرض لما

يستتبعه ذلك من آلام النفس وأحزان القلب وألوان الأذى ، أم إراحة نفسه وإراحة صديقيه وإراحة قيصر من هذا كله باستقبال الموت والإسراع إليه ؟ ثم يخطر له أن أكثر الناس مستيقنون بأن الموت لا يختم وجود الإنسان، وإنما ينقله من طور إلى طور ، ويخرجه من حياة ليدخله فى حياة أخرى . وهو يستعرض فى هذا أحاديث الناس من اليونان وغير اليونان على اختلاف أزمانهم ، وعلى اختلاف هذه الأحاديث فلا تطمئن نفسه إلى شيء منها ، ولا يرى فيها إلا ألواناً من الأحلام ، وفنوناً من التماس العزاء . ثم يذكر « سقراط » ومصرعه وأحاديثه ، وما كان بينه وبين أصحابه من حوار فى خلود النفس ، وإذا هو قد نسى قيصر ونسى المسيح ونسى صديقيه ، ولم يذكر إلا شيئاً واحداً هو لذة هذا الحوار ،وعذوبة هذا الحديث الذى قرأه مرات لا يحصيها ، فلم يؤمن به ولم يطمئن إليه ، ولكنه مع ذلك لا يزداد إلا كلفاً بقراءته ، وحرصاً على الاستمتاع بما تثير هذه القراءة فى نفسه من لذة خالصة لا يُفنيها الاستمتاع بها وإنما يزيدها ويضاعفها ، كأنها الكنز لا يفنيه استغلاله ، وإنما يُغنيه وينميه ، وإذا هو يعمد إلى « فيدون » وينقطع إلى قراءته عن كل خاطر ، وعن كل شيء ، وعن كل إنسان .

٣

ولكن عبداً يدخل مترفقاً ، وينبه سيده متلطفاً ، وينبئه أن أندروكليس يستأذن عليه . ولست أدرى أرَضى صاحبنا عن مَقدم صاحبه الذى كان يحبه ويُؤْثره ، أم سخط على هذه الزيارة لأنها ستصرفه عن صحبة أفلاطون الذى لم يكن يعدل بصحبته شيئاً . ولكنه أذن لصديقه من طرف اللسان بالدخول ، ثم مشى فى قراءته لم ينتظر صديقه ، ولم يخفّ للقائه ، ولا تهيأ لا ستقباله . ويدخل الصديق فيراه عاكفاً على كتابه ، ماضياً فى قراءته ، فيمهله حيناً ، ثم يمهله حيناً ، ثم يسعى إليه فيمسه مسًّا رفيقاً ويقول له فى صوت عذب : ما أرى إلا أنّا نتهيأ للموت ! فقد سنّ لنا القدماء قراءة « فيدون » قبل أن نغمد الخناجر فى صدورنا .

ويسمع كلكراتيس حديث صاحبه ، فينهض إليه مذعوراً كأنما أقبل من نوم عميق تضطرب فيه أجمل الأحلام وألذها . نهض إليه مذعوراً وهو يقول : ها أنت ذا ؟ ! لقد أذكر أنى أنبئت بمقدمك ، وكنت أريد أن أفرغ من بعض الحديث قبل أن أخفّ إليك ، ولكنك تعلم سحر أفلاطون .

قال أندروكليس : أعلمه حقّ العلم ، وأجتنب النظر فيه كلما احتجت إلى نفسى ورأيى وبصيرتى ، ولا أقبل عليه إلا حين أريد أن أستريح من هذا كله . ثم أنا على كل حال لا أقرأ « فيدون » ،

وما أعرف أنى نظرت فيه منذ تركت مجالس الدرس . ذلك لأنى لم أفكر فى الموت بعد ، وما أحب أن أفكر فيه ، وما أريد أن ألقاه إلا فجاءة وعلى غير موعد أو انتظار . وإنك لتعلم أنى لا أعدل بالفجاءة شيئاً ، وأنى لا أكره شيئاً كما أكره التدبر والتوقع وتقدير العواقب . وإذا أردتنى على أن أنبئك بذنب الناس والآلهة والكون عندى ، فهو أنهم جميعاً قد تواطئوا على أن يُلقوا فى صدورنا ، ويطبعوا فى قلوبنا ونفوسنا ، أن الموت ضربة لازب ليس لنا عنه منصرف . فهذا هو الشيء الوحيد الذى أعلمه علم يقين ، وأنتظره على شدة كرهى للانتظار . وما أشدّ ما كنت أحب أن نُخدع عن الموت ، ونُغرّ عن مقدمه ، ونجهله الجهل كله ، حتّى نُختطفَ اختطافاً على غير علم به ولا توقع له !

أليس من أجمل الأشياء وأحسنها فى نفوسنا أنّا لا نعرف ما يضمر الغد ، وما تخبئ لنا الساعة المقبلة التى لم نبلغها بعدُ ؟ ! صدّقنى أن حظ الإنسان من هذا الوجود ردىء حقًّا ! فقد كان يجب أن يعلم كل شىء كما يعلم الآلهة أو أن يجهل كل شىء كما يجهل الحيوان ، فأما أن يضطرب بين هاتين الطبقتين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فشىء لا يطاق .

قال كلكراتيس. ماتزال مشغوفاً بالمزاح ، كلفاً بالدعابة والعبث .

قال أندروكليس : برئت إليك الآن من المزاح ، وبرئت إليك من الدعابة والعبث ، إنما أعرض عليك دخيلة نفسى ، ولو استطعت أن أخرج قلبى من بين جنبىّ لتنظر فيه لما رأيت فى صفحة

من صفحاته مزاحاً ولا عبثاً، إنما هو الجد كل الجد ، والحزن كل الحزن ؛ لأنى لم أكن إلهاً ولا حيواناً . وهذا وحده هو الذى يحبب إلىّ دين دينوزوس ! لأنه بما يُشيع فينا من النشوة بهذا الشراب الذى علمنا اعتصاره من الكرْم يُرضينى كل الرضا ؛ لأنه يرفعنى إلى طبقة الآلهة حيناً ، ويخفضنى إلى طبقة الحيوان أحياناً ، ويخرجنى دائماً عن هذا الطور السخيف ، طور الإنسان الذى فُطر منافقاً بطبعه ، له عقل يقرّبه من الآلهة ولكنه قاصر ضعيف ، وله جسم يقرّبه من الحيوان، ولكن العقل يفسد عليه غرائزه فيحول بينه وبين راحة الحيوان .

ومن هنا لا أدرى ما الذى يُغضبك على صديقنا وعلىّ . وينأى بك عن أن ترى رأينا ، وتذهب مذهبنا ، وتقبل مشورتنا ، فتجعل النهار لقيصر والمسيح ، وتجعل الليل لنفسك ولدينوزوس . إنا لم نُشر عليك ببدْع من الرأى ، ولم نكلفك كما لم نكلف أنفسنا ما يخالف الطبيعة التى فُطرنا عليها . وما أشك فى أن « چوبتير » وأصحابه من آلهتنا الأعزاء لا ينكرون علينا ذلك ولا يلوموننا فيه . وهبهم فعلوا ، فإن جوابى لهم حاضر ، فهم المسئولون لأنهم خلقونا منافقين ، وجعلوا لنا جسم الحيوان القوى ، ونفس الإله الضعيف . ولو قد أرادوا لجعلونا أمثالهم آلهة لا ندين بالطاعة لأحد إلا لكبيرنا « چوبتير » . ولو قد أرادو لجعلونا فصائل من الحيوان ، لا يتقدم إليها قيصر ولا كسرى ولا فرعون بعبادة هذا الإله أو ذاك . ومن يدرى ؟! لعلهم لو جعلونا فصائل من الحيوان لأحسنوا إلينا أكثر مما تظن ! فمن الحيوان ما يتقدّم له الناس بأنواع العبادات ، وفنون الطاعة ، وضروب القربان ، ومن

يدرى ؟! لعلنا لو كنا حيواناً أن نَعبدَ فى طرف من أطراف الأرض ، وأن يقتتل الناس حول ديننا وعبادتنا ، كما يقتتلون حول دين المسيح وعبادة « أبلون » . وأنا بالطبع لا أتحدث إلا عن اليونان ولا آسَى إلا لليونان ؛ فاليونان وحدهم هم الناس ، وما يعبأ الآلهة بغيرهم من الشعوب .

قال كلكراتيس : ألم يُتعبك هذا الحديث الذى لا ينقطع ، وهذا الهراء الذى لا ينقضى ؟ ! أتراك تقدّمت إلى « دينوزوس » بشىء من العبادة فأفرغت فى جوفك بعض الأقداح التى تطلق لسانك بهذا الهذيان ؟ ! ولكنك قد جعلت النهار لقيصر ، أفتراك جُرت عليه وسرقت منه بعض النهار ؟ !

قال أندروكليس : ثم تزعم بعد ذلك أنى أمزح وألهو وأنت المغرق فى المزاح واللهو ! فأنا قبل كل شىء لا ألغى ولا أهذى ، وإنما أتحدث إليك بالجد كل الجد ، وأنا بعد ذلك لم أجُرْ على قيصر ولم أسرق منه بعض النهار ! لأن قيصر لم يحرم الخمر ،ولا ينهى عن التهام الأقداح . وأنا أستطيع أن أعرف لقيصر حقه ، وأن أرضى مع ذلك « دينوزوس » أعلن حب قيصر ، وأسرّ طاعة دينوزوس فى الليل والنهار جميعاً . ثم أنا بعد هذا وذاك لا أتحرّج من الجور على قيصر إذا أمنت شره ومكره . ولعلى أجد فى خداعه والعبث به بعض اللذة . فقد علمنا خداع الآلهة والعبث بهم ، فكيف برجل مثلنا لا يمتاز منا إلا بهذه الحماقة التى تخيل إليه أنه رجل ممتاز ، وأنه ليس كغيره من الناس .

صدقنى أيها الحبيب ، أرح نفسك من اليقين ! فإن اليقين لا يليق بالناس ، وإنما يليق بالآلهة . والحياة كلها لا تستحق اليقين ،

ولا تعدل ما يكلف أصحابه من الألم والحسرة .

إن اليقين ثباتٌ واستقرار ، وإن الحياة مُضى وزوال . فاستقبل الحياة المتنقلة بما يلائمها من هذا الشك الذى ينقل نفسك معها من طور إلى طور . وما لى أكشف لك عن خبيئة نفسى ، وما أظنك إلا عرفتها منذ اتصلت بيننا العشرة ، وطالت بيننا المخالطة ! فأنا أشير عليك وعلى صديقنا بأن نجعل جهر أمرنا لقيصر وإلهه الجديد ، وسره لديونوزوس وأصحابه القدماء . وما أظن أنك ترى هذه المشورة تصدر عن رجل يؤمن بالدين القديم أو بالدين الجديد . فطبيعة الدين لا تحتمل شركة ولا اقتساماً . ومن أباح الشركة فى الدين فقد ألحد فيه . وأنا أبيح هذه الشركة ، وأكثر المعاصرين لنا يبيحونها ويتخذونها لأنفسهم مذهباً .

فالدين عندى ، كما هو عند هؤلاء المعاصرين ، وسيلةٌ لا غاية ، وطريق لا غرض . طاعة قيصر وإلهه تكفلُ لنا الأمن على الحياة والثروة والأمل فى المجد والجاه والسلطان . وطاعة دينوزوس وأصحابه تكفلُ لنا لذة الحياة ونعيمها وإمتاع نفوسنا وأجسامنا بما تثيره اللذة والنعيم من ضروب الإحساس والشعور . وما أظنك تصدق أن أمثالنا من الفلاسفة المثقفين يستطيعون أن يطمئنوا إلى « چوبتير » وأصدقائه ، إلا أن يُلغوا عقولهم إلغاءً ، أو يُردّوا إلى سذاجة القدماء ردّاً ، ويعودوا كأولئك الذين كانوا يعيشون بغرائزهم قبل أن ينشأ العقل وقبل أن يُحدث الفلسفة للناس .

فالوثنية الآن سبيل اللذة وراحة النفس . والمسيحية الآن سبيل المجد والثروة والاستعلاء فى الأرض . فكن كغيرك من الناس ،

وكن شجاعاً كصاحبيك ؛ فهما قد عرفا طبيعة الأشياء والناس ، ويريدان أن يلائما بين حياتهما وهذه الطبيعة . وهما يصارحان أنفسهما بهذه الملاءمة ، ولا يريدان أن ينافقا مع أنفسهما ! لأنهما يريان فى النفاق مع قيصر وإلهه ورعيته الكفاية كل الكفاية .

قال كلكراتيس وقد جعل الغيظ يسرى فى نفسه ويظهر فى صوته قليلاً قليلاً : لست أدرى إلامَ تريد بكل هذه البراعة التى تصطنعها من حديثك كأنك أحد السفسطائيين . وما أظن أن « جورجياس » كان يستطيع أن يزين الرياء والنفاق والمداراة والمجاراة ، والتهالك على اللذة ، وإيثار العافية ، وموادعة الناس ، ومصانعة السلطان بخير مما زينتها . ولكن ما رأيك فى أنى أكره هذه الخصال كلها أشدّ الكره ، وأمقت الأخذ بها فضلاً عن الاندفاع إليها أشدّ المقت ، ولا أرى أن أكون منافقاً مع نفسى ، ولا أرى كذلك أن أكون منافقاً مع الناس ، لا أوادع غيرى ، وإنما أريد أن أكون حرًّا طلقاً ، لا أطمئن إلى السجن ، ولا أذعن للقيد . وأنا أعرف أن هذه خطة تملؤها الأخطار ، ولكنى لا أكره الأخطار ولا أهابها ، وإنما أحتقرها وأزدريها . أليس أقصاها وأقساها ، وأشدّها ثقلاً ، وأمرّها مذاقاً ، هو الموت . فإذا كنت لا أحفل بالموت فإنى خليق ألا أحفل بما هو أيسر منه شأناً وأهون منه أمراً .

وأنا مثلك ، لم أطمئن قط فيما بينى وبين نفسى إلى آلهتنا القدماء ، ولا إلى وثنيتنا الموروثة . وإنما اتخذتهم واتخذتها رمزاً لهذا اللون من الحياة الذى أرضاه وآلفه ، ولم يخطر لى بعدُ أن أتحول عنه ، ولا أريد أن أتحوّل عنه ! لأن فى هذا التحول رضا قيصر والأمن من مَعرّة الناس .

فأنا إذاً لا أثور حفاظاً للآلهة ولا دفاعاً عن الدين ، وإنما أثور حفاظاً لنفسي ودفاعاً عن حريتي . وقد يكون من الحق أننا ظُلمنا حين لم نُنشأ آلهة ولم نُخلقْ من طبقة الحيوان ، وإنما جُعلنا شيئاً بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . ولكن ما رأيك في أني لا أكره هذه الطبيعة المذبذبة ولا أضيق بها ، وإنما أحبها وآلفها ، وأريد أن أستغلها إلى أقصى حدود الاستغلال ، فأمنح عقلي كل حظه من الحرية ، وأمنح جسمي كل حظه من اللذة ، وأحتمل نتائج هذه اللذة وتلك الحرية مهما تكن قاسية ، ومهما تستتبع من آلام .

ما لقيصر وما لي ! إني لم أنازعه في عرشه ، ولم أمانعه في ملكه ، ولم أشاركه في قصره ، ولم أبتغ إليه وسيلة ، ولم ألتمس عنده حظوة ، ولم أسأله مَنصباً من مناصب الحكم ، ولا منزلا من منازل الشرف . بل لم أقم دون ظلمه وجوره حين صبهما عليّ ، فأخذ من مالي غير حقه ، وكلفني ألواناً من العمل ليس له أن يكلفني منها شيئاً .

أفلا يرضيه مني هذا كله ؟ ! أفلا يقنعه مني أن أعطيه كل ما أعطيته في غير مقاومة ظاهرة ولا كراهة بادية ، حتى يأبى إلا أن يدخل بيني وبين نفسي ، ويفرض عليّ شعوراً لا أجده ، وديناً لا أحبه ؟ !

ماذا أقول ؟ ! إنه يفرض عليّ شعوراً لا يجده هو ، وإنما يتكلفه تكلفاً ، وديناً لا يؤمن به هو ، وإنما يتصنعه تصنعاً . وما آبى عليه كما لا آبى عليك وعلى صديقنا أن تنافقوا في الدين وفي غير الدين إيثاراً للعافية ، أو استزادة من لذات الحياة ونعيمها . وإنما آبى عليه وعليكما أشد الإباء ، أن تحملوني على ما تحبون أن تحملوا

أنفسكم عليه من هذا النفاق الذى يستتبع إلغاء العقل ، وابتذال القلب ، وبيع الضمير .

قال أندروكليس : إنك إذاً لثائر ياصاحبى لا على قيصر وحده ، بل على الناس جميعاً .

قال كلكراتيس : فإن أعجبتنى هذه الثورة ، فمن يستطيع أن يمنعنى منها أو يردّنى عنها ، دون أن يكون ظالماً لى جائراً علىّ ! ثم إن أعجبنى أن أمتنع على الظلم والجور ، وأوثر الموت على حياة لا تطيب إلا بهما ، فمن يستطيع أن يمنعنى من الموت أو يردّنى عنه !

قال أندروكليس : لا أحد ! ومن أجل ذلك كنتَ تفكر فى الموت . ومن أجل ذلك كنت تقرأ فى هذا الكتاب ، تريد أن تزين لنفسك ما زينه سقراط من الخلود ، قبل أن تتجاوز هذا الباب الذى يقوم بين الحياة والموت .

قال كلكراتيس : أما أنى فكرت فى الموت فهذا حق ، ولست بدْعاً من الذين فكروا فيه قبلى . ولئن تعجلته فلن أكون بدْعاً من الذين تعجلوه . وأما أنى التمست العزاء فى جوار « فيدون » ، فهذا خطأ ! لأنى لم ألتمس عزاء ، ولم أطلب خلوداً ، ولم أفكر فيه ، وإنما تحدثت إلى نفسى بالموت ، ثم أعرضت عن هذا الحديث ! لأن خطب قيصر أهون من ذلك ، ولأنى ما يزال لى فى الحياة أرب . ثم ذكرت هذه الآية من آيات أفلاطون ، فأقبلت عليها أستمتع بما فيها من سحر البيان ، وما أكثر ما قرأتها ، وما أكثر ما سأقرؤها ! إنى لا أخاف الموت ولا أكره حديثه ، كما تخافه أنت وتكره حديثه .

قال أندروكليس : فقد أرضيتني ، ورددت إلى نفسي طمأنينتها ، أنبأتني بأنك لن تتعجل الموت ، لأن لك في الحياة أرباً . وخطبُ قيصر ، وخطب الناس جميعاً ، وخطب الآلهة أيضاً ، أيسر وأهون من أن نتعجل في سبيله الموت وما يزال لنا أرب في الحياة . ولكن المشكلة ما زالت قائمة ! فإن قيصر يأمر عماله ، ومنهم صديقنا ، أن يشتدّوا في حمل الناس على دين المسيح ، وأخذهم بالجدّ في ذلك أخذاً حازماً عنيفاً ، إن احتاجوا إلى الحزم والعنف .

فماذا ترى لنفسك ؟ وماذا ترى لصديقنا ؟ وماذا ترى لي ؟

قال كلكراتيس : وما أرى لصديقنا ولا لك إلا ما رأيته أنت وقَبله صديقنا . فإني لا أريد ولا أستطيع أن أحملكما على ما أريد ، وأستطيع أن أحمل عليه نفسي .

قال أندروكليس : وعلامَ تريد أن تحمل نفسك ؟

قال كلكراتيس : على معصية قيصر .

قال أندروكليس : أوَ تفعل ؟

قال كلكراتيس : نعم .

قال أندروكليس : فإنّ عاقبة هذا العصيان لن تمسك وحدك ، ولكنها ستمسنا جميعاً . ولست أخفي عليك أني لا أريد أن أتعرض للأذى ، لأن لي في الحياة ولذّتها أرباً . فإذا تحدثت إليك الآن ناصحاً بالتؤدة والأناة ، فإني مخلص في النصيحة غير متهم ، لأني سأخالفك وآمن كيد قيصر وأذاه . إنما أنصح لك بالأناة إشفاقاً عليك أنت . وأنا أعلم أني لن أستطيع إكراهك على الحياة إن آثرت الموت ،

ولا على الدعة إن آثرت العذاب ، وإن كان موتك يُشقينى ، وعذابك يؤذينى . ولكنى أشفق على صديقنا ، وما أراك إلا مشفقاً عليه مثلى . فإن عصيانك لقيصر سيضطره إلى إحدى اثنتين كلتاهما شرّ : فإما أن يجاريك فيشاركك فى الشقاء ، وإما أن يجارى قيصر فيدفع إلى البطش بك ، وما أراه يفعل . أفكرت فى هذا كله ؟ أقدرت هذا كله ؟

قال كلكراتيس : فإنى ما زلت فى التفكير والتقدير منذ اليوم .

قال أندروكليس : وإذاً ؟

قال كلكراتيس : وإذاً فلست أدرى . لقد دعانى الموت فأبيت أن أستجيب له ، وأنا حريص أشد الحرص على ألا أوذيكما . وما أرى إلا أن الأرض واسعة ، والفضاء عريض ، وأن فى الهجرة عنكما والزوال عن هذا الإقليم ما يرضينى وإن شقّ على ، وما يؤمنكما وإن كان فراقى عليكما عسيراً .

قال أندروكليس : تريد أن تزول عن هذا الإقليم ، وتهاجر من هذه الأرض ! ولكنك تعلم أن أمر قيصر ليس مقصوراً على هذا الإقليم ، ولا موقوفاً على هذه الأرض . فأنت إذاً تريد أن تتعرّض للأذى أو للموت على ألا يأتيك الأذى والموت من يد صديقك .

قال كلكراتيس : فإنى لا أريد الموت ، ولا أرغب فى الأذى ، ولا أهاجر من أرض قيصر إلى أرض قيصر ، إنما أزول عن ملك قيصر كله .

قال أندروكليس ، وقد أخذه الدهش والحزن : تزول عن ملك قيصر ، وتلجأ إلى أرض البرابرة ، وتدع حضارتنا وعاداتنا وتُراثنا وما فى حياتنا من نعيم وخفض ، إلى حياة مجهولة ، وقوم مجهولين ، وغربة

ماندرى ماذا تُضمر لك من الأخطار ! فأنت تريد إذاً أن تسلك سبيل أولئك الفلاسفة من اليونان الذين لجئوا إلى عدوّنا من الفرس ، وأتاحوا لكسرى ما كنا نحتكره من العلم والفلسفة والمعرفة ، وأتاحوا له قوة لم يكن يملكها ، وقدرة على حربنا والكَيْد لنا والظهور علينا لم يكن له منها حظ .

قال كلكراتيس : ما ألوم أولئك الفلاسفة الذين فرّوا بعقولهم إلى أرض عدوّنا من الفرس ، فربما كان العقل آثر من الوطن ، وآثر من الصديق ، وآثر من الناس والأشياء جميعاً .

ولكن هوِّنْ عليك ! فلن أسلك طريق أولئك الفلاسفة إلى بلاد الفرس ؛ لأنى لا أريد أن أخرج من رقّ قيصر لأدخل فى رقّ كسرى ، وما أريد أن أفرّ من دين المسيح لأُكرَهَ على دين المجوس ! إنما أريد أن أهاجر إلى أرض لا سلطان فيها ، وليس لأحد عليها ملك . إلى أرض لا يُكرَهُ الناس فيها على ما لا يحبون . إلى أرض لا أكون فيها رعية ولا سوقة ، وإنما أكون فيها ملكاً .

ثم رفع إلى صديقه نظرة حزينة وقال : لا يُعجلك الدهش عن الاستماع لى والفهم عنى ! فإنى لا أهرب من ملك قيصر لأفرض ملكى على الناس . ومن لى بالملك وأسبابه ! إنما أريد أن أكون ملكاً لنفسى ، لا أملك أحداً ، ولا يملكنى أحد .

قال أندروكليس وقد رُدّ إلى هدوئه فأغرق فى الضحك : فأنت تريد أن تهاجر إلى الصحراء ، وأن تكون راهباً فيها من رهبان دينوزوس ! رأىٌ طريف لا أرى به بأساً . إن للنصرانية رهبانها الذين يقيمون فى

الأديار والصوامع ، فى المدن وفى أطراف الصحراء . فأنت تريد أن تجعل للوثنية رهبانها وأديارها وصوامعها .

رأىٌ طريف لا أرى به بأساً . لقد أخذ النصارى عن الوثنية علمها وفلسفتها . فما للوثنية لا تأخذ عن النصرانية نُسكها ورهبانيتها !

ما أرى إلاّ أننا سنلهو بهذا الرأى لهواً متصلا ، حين نخلو إلى صديقنا وإلى دينوزوس إذا جنّ الليل .

قال كلكراتيس : لا تسخر ولا تمزح ! فما فكرت فى رهبانية ولا نُسك . وقد قلت لك إن لى فى الحياة أرباً ، وما أريد أن أتخذ لى فى طرف من أطراف الصحراء صومعة ولا ديراً . وماذا أصنع فى الصومعة والدير ، وأنا لم أرْض حاجتى بعدُ من لذات الحياة ونعيمها ! لا أريد أن أعتزل الناس ، وإنما أريد أن أعتزل السلطان .

لن نلهو الليلة بهذا الرأى كما تظن ، ولكننا سنتدبره ونطيل الحديث فيه . فما زلت أعتمد عليكما ، وعلى ما تُضمران لى من مودة ، وما تُخلصان لى من حب . وما زلت أعتقد أنكما ستهونان علىّ من هذا الأمر ما أراه عسيراً .

قال أندروكليس : لقد كان يُخيل إلىّ أنى فهمت عنك ، ولكنك تردّنى إلى الغموض والحيرة . فلعلى أفهم عنك حين نخلو إلى صديقنا . وما أظن إلا أنه قد آن لنا أن نسعى إليه .

٤

وأقبل الصديقان من ليلتهما على قصر الحاكم ، فحاد بهما الحُجاب عن طريق الحجرات الخاصة التي كانت تشهد ما يأخذان فيه مع صديقهما من سمر ولهو ومجون ، وسلكوا بهما طريق بهو من أبهاء الاستقبال . فلما سألا عن ذلك قال الحُجاب : إن سيدهم لم يفرغ للسمر بعدُ ، وما يظنون أنه سيفرغ له الليلة .

قال أندروكليس : فإنا ننتظره كما تعوّدنا أن نفعل حتى يفرغ لنا .

قال أحد الحُجاب : بل هو ينتظركما . وقد تقدم إلينا فى إدخالكما عليه إذ أقبلتما ، وفى تعجلكما إن تأخر قدومكما على القصر .

قال كلكراتيس : وما ذاك ؟

قال الحاجب : ما ندرى ! ولكن مولانا قد خلا منذ ساعة غير قصيرة إلى راهب شيخ من الرهبان ما أرى إلا أنكما تعرفانه ! فقد رأيت مولانا يتلقاه مكبراً له ، حفيًّا به فى كل شىء من التبسط والإسماح ، كأن له به عهداً قديماً .

قال أندروكليس : راهب شيخ يلقاه الحاكم حفيًّا به ، مكبراً له ، متبسطاً معه . من عسى أن يكون ؟ !

قال كلكراتيس : وهو يريد أن نلقاه ، ويتعجل مقدمنا إن أبطأنا ! أفتراه قد دعا هذا الراهب ليعظنا ويفقهنا فى الدين ؟ إنه

ليحرق السفن من ورائه ، ولا يكفيه أن يسمع لمشورتك ، بل يسرع إلى العمل بها إسراعاً . ما أشد حرصه على رضا . . . .

ولم يمكنه أندروكليس من إتمام مقالته ، وإنما غمزه مسرعاً وقال للحاجب : أفلا تريد أن تستأذن لنا ؟

قال الحاجب : نحن لسنا فى حاجة إلى ذلك ! فقد أمرنا أن نُدْخلكما عليه فوراً .

ثم مضى أمامهما وتبعاه ، ثم انفرجت لهما الأستار واجتمعت من دونهما . ولم يكادا ينظران إلى هذا الراهب الشيخ الذى كان يتحدّث إلى صديقهما فى أناة وهدوء ، حتى أخذهما الدهش ، ودفعا إلى الشيخ دفعاً وهما يصيحان بصوت واحد : كلينيكوس !

ونهض الشيخ لها فى رزانة ووقار ، فضمهما إليه ، وقبلهما تقبيل الوامق المشوق ، وبارك عليهما فى غير تكلف ولا تصنع ، وهو يقول : فقد أذن الله لى أن أراكم جميعاً قبل أن أترك هذه الأرض .

قال كلكراتيس : فإنك قد تركت هذه الأرض عن رضاً وتعمد . وما أدرى ماذا أزعجك عنها ! وما علمت قط ماذا صرفك عما كنت فيه من حياة ناعمة وعيش لين . وما كنت أحسب أن فراق الأصدقاء يهون عليك إلى هذا الحدّ ، وأن نفوس الناس تتجافى عن أوطانها على هذا النحو .

وَهمّ الشيخ أن يجيب ، ولكن أندروكليس قال متعجلا : عجباً للذين ينكرون على الناس ، ولا ينكرون على أنفسهم . فإنى أشاركك فيما تقول لكلينيكوس ، ولكنى أحب أن تقوله لنفسك . ثم التفت إلى

حاكم المدينة قائلا : ولكنك تجهل من أمره كل شيء . فاعلم أنه قد أزمع الهجرة عن هذه الأرض ، وهو الآن يفكر فى مهاجره الذى يقصد إليه ويستقرّ فيه .

وأظهر الحاكم دهشه وإنكاره . ولكن الراهب الشيخ نظر إلى كلكراتيس نظرة حب وحنان ، وقال : فقد مسك إذن جناح من رحمة الله وأنت تريد الفراغ له ، والخروج لطاعته عن حياتك الناعمة ، وعيشك اللين ، وأيامك المقبلة التى قد تكون حافلة ، إن انتظرتها ، بالسلطان والجاه . فلا تلتمس مُهاجراً ولا تفكر فيه ، ولكن ارتحل معى من الغد ، أو ارتحل فى أثرى إن احتجت إلى أيام تُصلح فيها أمر من تترك وراءك من الأهل والصديق : فما أراك تجد ديراً أرفق بك من ديرنا ، وما أرانى أهدى إلى ديرنا خيراً منك .

قال أندروكليس : فإنك لم تأت للقائنا إذاً ، وإنما أتيت للتفريق بيننا . وما كفاك أن انتزعت نفسك من وطنك وصديقك انتزاعاً حتى تريد أن تنتزع كلكراتيس !

قال الراهب مبتسماً : لو استطعت أن أنتزعكم جميعاً ، وأخرجكم عما أنتم فيه ، وأهديكم إلى هذا الدير ، أو أهدى إليكم الحياة فى هذا الدير ، لكنت أسعد الناس وأخلقهم بالغبطة والابتهاج . فإن الله لم يُتح لأحد منا نعمة تعدل القدرة على استنقاذ الناس من أنفسهم ، واستخلاصهم له من آثام الحياة وسيئاتها . وأى شيء آثر عند الرجل الكريم من أن يستنقذ صديقه من الشر ، ويهديه سبيل الخير ! وإنى ما أقبلت عليكم لأنتزع منكم أحداً ، ولا لأنتزعكم من أنفسكم وأوطانكم ،

وإنما دُعيتُ فأجبت ، ثم سنحت الفرصة فأنا أنتهزها .

قال كلكراتيس ضاحكاً : فإن نفسي لم تنضج بعد لحياة الدير ، وما أرى أنها قريبة النضج .

قال حاكم المدينة باسماً وهو يلتفت إلى الراهب : فإني قد دعوتك لأيسر من هذا. وإني أستطيع الآن، وقد حضر هذان الصديقان، أن أظهرك وأظهرهما على جلية الأمر ؛ فإنك لا تعلم منها شيئاً ، وهما لا يعلمان منها إلاّ قليلا .

قال الراهب : وما ذاك ؟

قال حاكم المدينة : فإن مكانك منا بحيث تعلم ، وقد كنت لآبائنا صديقاً ، وكنت بنا رفيقاً . وكثيراً ما عقدت بنا الآمال ، ونُطت بنا الأماني . وكثيراً ما تحدّثت إلينا وإلى آبائنا بأنك تدّخرنا لتجارتك الواسعة ، في أقطار الأرض العريضة . ثم كانت رحلتك تلك إلى بلاد العرب ، ثم كانت عودتك منها ، ثم كان اعتزالك للحياة والأحياء ، وانقطاعك لله في ذلك الدير البعيد القائم في طرف من أطراف الصحراء .

أعرضت عنا ولم تفكر فينا ، ولم تحفل بما ألمّ أو ما كان يمكن أن يُلمّ بنا من الأحداث والخطوب . وما ندري ماذا صنعت بتجارتك الضخمة ، وثروتك الواسعة . وما أتحدّث إليك في ذلك عاتباً ولا لائماً ! فإنك لم تسئ إلينا ، ولم تقصر في ذاتنا ، وإنما ألهاك عنا ما ألهاك من أهلك ومالك ونفسك . إنما أذكرك بهذا كله لتعلم أنك إن نسيتنا فإننا لم ننسك ، وإن شُغلت عنا فإنا لم نُشغلْ عنك .

ثم لتعلم أنى لم أدْعك ولم ألجأ إليك ، إلا لأنا تعرّضنا لما نحتاج معه إلى رأيك ومشورتك ، وإلى سلطانك العظيم على نفوسنا ، وتأثيرك العميق فى قلوبنا ، فاعلم الآن أن قد ارتفعت الأنباء إلى قسطنطينية بأن هذين الصديقين يرتابان فى دينهما ، ولا يتحرّجان من الإعراض عنه ، وقد يستبيحان فى بعض خلوتهما العبث به والإلحاد فيه . وجاء إلىّ الأمر من قسطنطينية أن أمتحنهما وأكشف جلية أمرهما ، فإن ظهرتُ منهما على ريبة ، أخذتهما بالتوبة أخذاً شديداً ، فإما قبلاها ، وإما أخذتهما بالعذاب الشديد . وما أخفى عليك ، وما أظننى أستطيع أن أخفى عليك أن ما ارتفع من أمر الصديقين إلى قسطنطينية حقّ كله ، بل هو بعض الحق ؛ فإنهما لا يرتابان وحدهما فى الدين ولا يعبثان وحدهما بالدين ، وإنما يشاركهما فى الريبة والعبث ثالث لهما ، هو الذى يتقدم إليه قيصر فى تخييرهما بين التوبة والعذاب . وما أحسب إلا أن الأنباء ارتفعت إلى قيصر بأمرى ، كما ارتفعت إليه بأمرهما . وما أحسبه إلا يمتحننى بهذا الأمر الذى أصدره إلىّ . وقد أشرت ، بعد أن دعوتك ، إلى صديقىّ بهذا الخطب فى شىء من التلطف والتلميح . فأما أحدهما ، وهو أندروكليس ، فقد أظهر مرونة وليناً وحسن استعداد لاتقاء الفتنة . وأما الآخر فتستطيع أن تنظر إليه ، فإن ما يظهر على وجهه من العبوس والثورة خليق أنْ ينبئك ببعض أمره إن لم يُنبئك به كله .

وهمّ كلكراتيس أن يتكلم ، ولكن الراهب قال فى صوت رقيق رفيق : إنى لأرحمكم يا بَنىّ وأرثى لكم ، لا من شكّ قيصر فيكم

وارتيابه بكم ، وتعريضه إياكم للفتنة والبلاء ! فذلكم أيسر الخطب وأهونه ، بل من شككم فى الدين وارتيابكم به ، وإعراضكم عنه وإلحادكم فيه . ولكنى على ذلكم لا ألومكم ولا أنكر عليكم ، وإنما أفهم موقفكم حق الفهم ؛ فإن هذه الحياة التى تحيونها ، وهذه البيئة التى تضطربون فيها ، وما يختلف بين أيديكم كل يوم من الحوادث ، وما يعرض من الأمر ، وما ترون من سيرة القادة والسادة والوعاظ والهداة ، كل ذلك خليق أن يشكككم فيما تشكون فيه ، ويُريبكم بما ترتابون به ، ويدفعكم إلى ما تندفعون إليه من هذه الحياة العابثة الماجنة التى لا ترجو لأحد ولا لشىء وقاراً .

وكيف ألومكم أو أنكر عليكم وقد أنفقت أكثر عمرى فيما تنفقون فيه شبيبتكم ! ولولا هذه الرحلة وما رأيت وما سمعت وما بلوت فيها وما تبينت ، لما كنت إلا واحداً منكم ، يشارككم فى العبث واللهو إن قدّر على مشاركتكم فيهما ، أو ينعمَ باستمتاعكم بالعبث واللهو إن ردّته السن عن أن يأخذ بحظه منهما .

ولو تعرفون يا بَنىّ هذه اللوعة التى تحرق قلبى تحريقاً ، وهذه الحسرة التى تفرّق نفسى تفريقاً ، وهذا الندم اللاذع الذى لا يفارقنى يقظان ولا نائماً ، لو تعرفون هذا أو بعض هذا ، لرحمتم أنفسكم مما أرحمكم منه ، ولعدلتم بأنفسكم عن هذه الطريق التى عدلت بنفسى عنها ، ولكنى لا أدرى كيف أنقل إلى قلوبكم ما أجد فى قلبى ، وكيف أشيع فى نفوسكم بعض ما يشيع فى نفسى ، وكيف أبين لكم بعض ما تبين لى من أن هذه الحياة باطل كلها ، ومن أننا ننشأ

آثمين ، ولا نخطو فى حياتنا خطوة ولا نتقدّم فى عمرنا لحظة ، إلا َعلقت بنا أدران الإثم ، ولصقت بنا أوضار الخطيئة ، ومن أننا لو خلونا إلى أنفسنا ، وانقطعنا عن الناس جميعاً ، وعن الأشياء جميعاً ، وفرغنا للندم على ما قدّمنا وقدّم آباؤنا الآثمون الخاطئون ، والاستغفار مما جنينا وجنى آباؤنا المذنبون المسيئون ، لما أزَلنا عن أنفسنا بعض ما علق بها من إثم ، ولما غسلنا عن قلوبنا بعض ما لصق بها من وَضر . وما أعرف مع هذا كله أن إظهاركم على بعض ذلك يتأتى بالحوار والخطاب ، أو يتاح بالحجة والدليل ، وإنما هى رحمة من الله تمسّ العقول ، فتكشف لها عن الحق ، وتهديها سواء السبيل .

قال كلكراتيس : فإن هذه الرحمة لم تمسّ عقولنا بعد ، وما أدرى أتمس عقولنا فى يوم من الأيام . وإذا كنا لم نرحل رحلتك إلى بلاد العرب ولم نر فيها ما رأيت ولم َنبل فيها ما بلوت ، فنحن معذورون إن لم نضقْ بحياتنا هذه ذرعاً ، ولم نخرج عنها ونسلك طريقك تلك التى سلكتها إلى الدير .

وصَدقنى أنى لا أكره أن تمسنى هذه الرحمة التى مستك ، بل لا أتمنى إلا أن تمسنى فتهدينى إلى مثل ما اهتديت إليه ، أو إلى غير ما اهتديت إليه ، ولكنها تخرجنى على كل حال من هذه الحياة التى أخذتُ أمقتها أشد المقت ، وأضيق بها أعظم الضيق .

قال أندروكليس : ولكنى لا أمقت هذه الحياة ولا أضيق بها ، ولا أريد أن تمسنى هذه الرحمة ، ولا أبتغى إلا أن أترك وما أنا فيه من خفض العيش ولينه ، وأنا زعيم بإرضاء قيصر وبإرضاء المسيح أيضاً .

قال الراهب : أما إرضاء قيصر فيسير ، والناس جميعاً أو أكثرهم يبلغون من رضا قيصر ما يريدون ، وإنما هى الطاعة والإذعان ، والاختلاف إلى الكنائس ، وشهود الصلوات ، وإظهار التكريم للقسيسين والرهبان . وأما إرضاء المسيح فشىء آخر بعيد كل البعد عن أن يكون من اليسر والسهولة بحيث تظن .

قال أندروكليس : فحسبي أن أرضى قيصر ! لأنى أعرفه وأومن به، وأرجو نعمته وأخشى نقمته . فأما المسيح فما أرى أن له علىّ حقاً قبل أن يظهر نفسه لى ويمسنى بهذه الرحمة التى مسك بها . وأنا أرجو ألا يفعلَ ؛ فإنه إن فعل كلفنى مثل ما كلفك من اطراح الحياة ولذاتها ، وما يملؤها من هذا النعيم ذى الألوان المختلفة الذى لم أقض منه حاجتى ، وما أحسب أنى سأقضيها فى يوم من الأيام .

قال الراهب ملتفتاً إلى الحاكم : وأنت ماذا تقول ؟

قال الحاكم مبتسما مستخذياً : يشقّ علىّ أنى لا أستطيع أن أقول إلا ما قاله أندروكليس .

قال الراهب : فإنى لا أملك لكما من الله شيئاً ، وما أنا من الذين يحبون الحوار فى الدين ، وما هيأت نفسى لذلك وما مرّنتها عليه ، وما أقدر لكما إلا على الصلاة والدعاء . فأما أنت ياكلكراتيس ، فإنى أرى ، من اضطراب نفسك وثورة ضميرك وترددك بين ما ترى وما لا ترى ، أن لك شأناً .

قال أندروكليس ملتفتاً إلى الراهب ضاحكاً له : أتعلم أى صورة يثيرها موقفك هنا الآن فى نفسى ؟

قال الراهب : نعم ! تتحدث إليك نفسك بأنى ذئب قد وقع فى القطيع ، فهو يتخير بين شائه الشاة التى تلائمه ويسهل عليه اختطافها ، وتخيل إليك نفسك أن كلكراتيس هو هذه الشاة ، وأنى سأحاول انتزاعه من أهله وصديقه ووطنه . ثم تتحدّث إليك نفسك هازئة بى وساخرة منى بأن كلكراتيس بعيد كل البعد عن أن يكون شاة ، وبأنى سأرتدّ عنه خاسئاً حسيراً . ولكن نفسك تكذبك يا بُنىّ ، فما أنتم بالقطيع ، وما أنا بالذئب ، وإنكم لألسنُ منى ، وإنكم لأقدر منى على الحوار والانتصار على الخصم . وما أنا بطامع فى كلكراتيس ، وما هو فى حاجة إلى أن يقاومنى ويدفعنى عن نفسه ، وقد أنبأنى آنفاً بأن رحمة الله لم تمسسه بعدُ ، وأنه لا يكره أن تمسه ، بل لا يتمنى إلا أن تمسه ، وأنا أعلم أن رحمة الله قريب من الذين يطمعون فيها ويطمحون إليها . فلست أرجو أن يرحل معى كلكراتيس ، ولعلى لا أرجو أن يلحق بى إلى الدير . ولكنى لست أيأس أن يمسه الله بروْح منه ، فيخرجه من تردده ، وينقذه من اضطرابه الذى يشقيه .

قال كلكراتيس : فإنى لست متردداً ولا مضطرباً ، ولكنى مطمئن كل الاطمئنان إلى أن هذه الحياة التى يأخذ قيصر بها الناس ويريد أن يأخذنا بها . ويواطئه صديقاى على أن يأخذا بها نفسيهما ، شرٌّ كلها لا تليق بالرجل الكريم ، ولا يستطيع ذو العقل أن يطمئن إليها . فأنا أريد عازماً أشدّ العزم أن أفرّ بعقلى منها إلى مكان بعيد لا تستطيع أن تبلغه ، ولا يستطيع سلطان قيصر أن يصل إليه .

قال الراهب : إنى يا بُنىّ لم أختلف إلى مجالس الفلاسفة كما

اختلفتَ إليها ، ولم أقرأ من كتبهم مثل ما قرأتَ أو بعض ما قرأت ، وإنما أنفقت حياتى فى التجارة ومعالجة المنافع العاجلة ، ومع ذلك فقد يخيل إلى أنك تريد أن تحمل نفسك شططاً ! فإنا لم نُمنح العقل لنفر به من الشرّ ، بل لنواجه به الشر ونقهره ونظهر عليه . وما أظن أنا مُنحنا العقل لنتخذه وسيلة إلى الأثرة ، وطريقاً إلى الراحة والنعيم . كذلك يفكر كثير من الناس ! ولكنهم ، فيما أعتقد ، يخدعون أنفسهم ويضللون عقولهم ، ويخفون ما يملأ قلوبهم من الضعف وحب النفس والعجز عن احتمال تبعات العقل . إن العقل يا بُنىّ فيما أرى نور ؛ ومن طبيعة النور أن يهزم الظلمة لا أن ينهزم لها . وإن العقل يا بُنىّ فيما أرى سلاح ماض حديد ! ومن طبيعة السلاح أن يهزم العدوّ ويُظهرَ صاحبه عليه ، ويحمله على المقاومة والجهاد فى أقل تقدير ، لا على الهرب والفرار لأول بادرة تبدر أو شرّ يخاف .

قال كلكراتيس : فإن استيقنت أن هذه الظلمة التى تحيط بى أشدّ كثافة وصفاقة ، وأكثر تراكماً وتلاحقاً من أن يبددها هذا النور الضئيل الذى يضطرب فى رأسى ، وإن استيقنت بأن العدوّ الذى يهاجمنى ويأخذنى من كل وجه أضخم قوّة وأعظم بأساً وأكثر عدداً من أن أهزمه بهذا السلاح الذى فى يدى . . .

قال الراهب : فإن الواجب عليك مع هذا أن تثبت لهذه الظلمات الكثيفة الصفيقة المتراكمة المتلاحقة ؛ فإنها مهما تبلغ من الكثافة والصفاقة فلن تمحق هذا النور الضئيل الذى يضطرب فى رأسك . وإن الواجب عليك أن تثبت لهذا العدو الذى يسعى إليك من كل وجه ،

ويريد أن يأخذك من كل نحو ، فإنه مهما تضخم قوته ويعظم بأسه ، فلن يستطيع أن يفل سلاحك هذا الماضى الحديد ، ولا أن ينتزعه من يدك انتزاعاً .

وقد ضربت لك الأمثال من قبل : ضربها لك أبو الفلاسفة إن كنت فيلسوفاً ، وضربها لك صاحب الدين إن كنت دياناً . فإن سقراط لم يفر بعقله من الأثينيين فيما أعلم ، ولكنه قبل منهم السجن ، وتلقى منهم الموت ، ثم لم يلبث أن ظهر عليهم آخر الأمر . وإن المسيح لم يفر بدينه من اليهود ولا من الرومان ، وإنما قبل منهم ما صبوا عليه من عذاب ، وتلقى منهم ما أعدوا له من شر ، ثم انتصر عليهم آخر الأمر .

كلا ! إنك لا تريد أن تفر بعقلك يا بنى ! فالعقل أشجع وأرفع وأمضى من أن ينهزم للسلطان أو يتقيه بالفرار ؛ وإنما تريد أن تفر براحتك ولذاتك وبما لك فى الحياة من أرب . إنما تريد أن تفر لأنك تستشعر الضعف عن المقاومة ، وتحس العجز عن الثبات لهذه المحنة التى تدبر لك وتسلط عليك . إن العقل خير كله فيما أرى ، ولست أعتقد أنه يغرى بالأثرة أو يحرض على الفرار . إن الدوافع التى تدفعنا إلى الشر لا تأتينا من عقولنا ، لأن عنصر العقل خير كله ، وإنما تأتينا من شهواتنا وغرائزنا . فانظر بأى شهوة أو بأى غريزة تريد أن تفر . ولكن إياك أن تظن أنك تؤثر عقلك بالعافية أو تحسن إليه بالهرب !

قال كلكراتيس : فأنت إذاً تغرينى بانتظار الموت ؟ !

قال الراهب : فإنك منتظر للموت فى كل لحظة ، وفى كل

مكان ، وفى كل طور من أطوار حياتك .

قال كلكراتيس : أرى أنك تريد لى أن أتعرّض للفتنة وما يتبعها من الشر والنكر وألوان المكروه .

قال الراهب : لا أريد شيئاً ، وإنما أستنبط النتائج من مقدماتها . فإن كنت حريصاً على عقلك مؤثراً له مؤمناً به ، فإن العقل لا يعرف الهزيمة ولا يحبها ، ولن تكون أول من تعرض للفتنة وألوان المكروه فى سبيل الرأى والعقل ، ولن تكون آخرهم . وإن كنت حريصاً على الراحة والعافية مؤثراً لهما فسواء علىّ وسواء على الرأى والعقل ، أسلكت إلى هذه الراحة والعافية سبيل صديقيك فخادعت الناس ونافقت معهم ، أم سبيل الفرار والهجرة فخادعت نفسك وآثرت مخادعتها على مخادعة الناس ، لأن ذلك أيسر لك وأهون عليك .

قال كلكراتيس : لم أكن متردداً ولا مضطرباً قبل لقائك ، فأما الآن فإنك قد أفسدت على أمرى كله .

قال الراهب : لم أفسد عليك شيئاً يا بُنىّ ! لأن أمرك كان كله فاسداً ، ولأنك كنت تخدع نفسك بالآمال والأمانى ، وتخيل إليها أنها أكرم من نفس صديقك ومن نفوس الناس جميعاً . أليست تفرّ برأيها وتهرب بحريتها ؟! فأين هى من النفوس التى تقبل الضيم وتحتمل الذل ؟ ! وكانت هذه الكبرياء تُغريك وتطغيك ، وتحملك على أن تؤله نفسك بالعبادة من دون الآلهة جميعاً . فأما الآن فقد أظن أن الأمر تبين لك ، وأنك ستطيل التفكير قبل أن تنحاز إلى دين قيصر مع صديقيك ، أو إلى دين نفسك فى ذلك المهاجر البعيد . ولكن أحب

أن تعلم أن كلا الدينين باطل مهين عند العقل الذى يخيل إليك أنك تُكبره كل الإكبار .

قال أندروكليس : كلا الدينين باطل مهين ! فأنت إذاً تنكر دين قيصر والمسيح ؟ !

قال الراهب : أنكر دين قيصر ، ما فى ذلك شك ، ولكن دين المسيح شىء ودين قيصر شىء آخر . وما لجأت إلى الدير إلا لأفرغ من قيصر وأشباه قيصر للمسيح .

ثم سكت قليلا ثم قال : بل للمسيح ولانتظار ما سينكشف عنه الدهر بعد قليل .

قال حاكم المدينة : فسينكشف الدهر عن شىء بعد قليل إذاً ؟

قال الراهب : ما أشك فى ذلك يا بُنى ! فقد تحدثت به الكتب ، وكان الناس يُضمرون انتظاره فيما بينهم وبين أنفسهم ، ثم أخذت بوادره الآن تبتدر ، وجعلت الآيات تتحدث إلى من يفهم عنها بأن مَقدَمه قريب .

٥

وارتفع الضحى من الغد ، فإذا الراهب الشيخ والفيلسوف الشاب ماضيان فى حديثهما الذى كانا فيه من الليل ، فقد انتقلا به إلى بيت كلكراتيس حين همت أستار الليل أن تنجاب عن وجه النهار .

انتقلا بحديثهما دون أن يقطعاه أو ينصرفا عنه ، ودون أن يشغلهما عنه انهزام الليل المظلم وانتصار الصبح المشرق ، وهذا السهر المتصل الذى كان خليقاً أن يُعييهما ويُضنيهما . ولأمر ما شغلهما هذا الحديث عن هذا كله ، وعن أكثر من هذا كله : فلم يشعرا بحاجة إلى الراحة ولا بنبوّ عن العادة ، ولا برغبة فى طعام أو شراب ، وإنما مضيا أمامهما فى الحديث نشيطين له ، مستمتعين به ، كما يمضى المسافر فى طريق جميلة سهلة ، يملؤه النشاط وينأى به كل النأى عن الكلال والملال ، وعن التقصير والقصور .

وكان الراهب الشيخ يقول لصديقه الشاب فى هدوء ودعة ، وفى ابتسام يوشك أن يكون ساخراً لولا أن الشيخ كان أشد وقاراً وأعظم إيماناً من السخرية — كان الراهب الشيخ يقول لصديقه الشاب وادعاً باسماً : إنك يا بُنى تسرف فى أمر العقل ، وتحمله أكثر مما يطيق أن يحتمل ، وتدفعه حيث لا ينبغى أن يدفع ، فإنك لاتصدر عن العقل حين تحب وتُبغض ، ولا تصدر عن العقل حين تجوع وتظمأ ، وإنما تصدر فى ذلك كله عن غرائز قد ركبت فى طبعك ،

وسيطرت على مزاجك . وقد يستطيع عقلك أن يفهم هذه الغرائز ، وقد يستطيع أن يمسها ببعض التنظيم ، وقد يعجز فى كثير من الأحيان عن فهمها وتنظيمها .

وما أدرى يا بنىّ لمَ تؤمن بسلطان الغرائز على جسمك ، ولا تؤمن بسلطانها على نفسك ؟ بل ما أدرى لمَ تؤمن بأن للغرائز على نفسك سلطاناً فى بعض الأمر ، وتجحد أن يكون لها سلطان فى بعضه الآخر ؟

قال كلكراتيس : فإنى لا أفهم عنك ما تقول منذ اليوم .

قال الراهب الشيخ : فقد فهمت عنى كل ما قلته منذ التقينا ، أفتراك قد نال منك الجهد وأدركك التعب ؟

قال كلكراتيس : كلا ! ما رأيتنى قط كما أرانى الآن نشيطاً إلى الحديث راغباً فيه ، مستزيداً منه ، مشغوفاً به . ولكن أوضح مقالتك فإن فيها بعض الغموض .

قال الراهب : فإن جسمك يا بُنىّ يألم إذا مسه الجوع أو الظمأ دون أن يكون لعقلك فى ذلك تأثير قليل أو كثير ، وإن جسمك يا بنىّ يبرأ من الألم حين تردّ عنه الجوع بالطعام ، وحين تردّ عنه الظمأ بالشراب . ولو أوتيت عقل الناس جميعاً لما استطعت أن ترد عن جسمك ألم الجوع والظمأ حين يحتاج إلى الطعام والشراب ، ولما استطعت أن تردّ على جسمك ألم الجوع والظمأ حين يدركه الشبع والرىّ . فإنى أرى يا بنىّ أن لنفسك غرائزها كما أن لجسمك غرائزه ، وأن غرائز النفس كغرائز الجسم لا تصدر عن العقل ولا تنشأ عنه وإنما تصدر عن الطبع وتنشأ عن المزاج ، وحاجة النفس يا بنى إلى

الإيمان كحاجة الجسم إلى الطعام والشراب ، تألم إن فقدت الإيمان ، وتستريح إن ظفرت به ، ليس للعقل فى ذلك أثر . فكن أعقل الناس ، وكن أحزمهم وأصرمهم وأمضاهم عزماً ، فلن يغير ذلك من نفسك شيئاً إن كانت طبيعتها طبيعة النفس الإنسانية التى فُطرت كما فطرت نفوس الناس على الإيمان .

قال كلكراتيس : فإنى لا أنكر من ذلك شيئاً ، وما أنكر حاجة نفسى إلى أن تؤمن ، وعجزها عن حياة الكفر والجحود ، وإنما أحاورك فى موضوع هذا الإيمان ، وفى السبيل التى تؤدّى إليه .

قال الراهب الشيخ : فإنى يا بنى أرى أن فى العقل تمرداً وغروراً . قد خضعت له طائفة من الأشياء ، وذلت له بعض صور الطبيعة ، فظن أن كل شىء يجب أن يخضع له ، وأن كل صورة من صور الطبيعة يجب أن تُذعن لسلطانه . والحوادث مع ذلك تثبت له من يوم إلى يوم ، بل من لحظة إلى لحظة ، أنه لم يعلم من الأمر إلا أقله ، ولم يستذلّ من صور الطبيعة إلا أيسرها وأهونها شأناً . وإن غرور العقل يا بنى قد زين له أن يجعل للطبيعة قوانين ، ويفرض عليها قيوداً وأغلالا ، وألا يؤمن بها ولا يرضى عنها إلا إن خضعت لقوانينه ، ورسفت فى قيوده وأغلاله . ولكن قوانينه لم تُحطْ بكل شىء ، ولكن قيوده وأغلاله لم تبلغ كل شىء . وما زالت الطبيعة حرة طلقة ، وما زالت أكبرَ من العقل وأوسع من سلطانه وأبعد من مرماه . وما زالت أحداث تحدُث لا يستطيع العقل إنكارها ، ولا يستطيع تفسيرها ، ولا يستطيع إخضاعها لقوانينه ولا لقيوده وأغلاله .

هى متمردة على العقل لأنها أقوى منه . وهو متمرد عليها لأن الغرور قد أفسد عليه أمره ، وأنساه أنه حديث السن ، قليل الحوْل والطوْل ، وأن الطبيعة أقدم منه عهداً ، وأبعد منه مدى . ما أجدر العقل يا بُنىّ أن يُصلح نفسه ، وأن يُصلح ما حوله ، لو أنه عرف قدر نفسه ، فلم يخرج عن طوره ولم يُسرف فى التمرد والغرور .

إنك يا بنىّ لا تستطيع أن تفسر بعقلك كيف يحيا الميت بعد أن مات وشبع موتاً : ومع ذلك فقد نهض الميت من قبره ، وقد قرأت عليك ذلك فى الإنجيل ، وما أنكرتَ منه شيئاً ! لأن الناس جميعاً قد عرفوه واطمأنوا إليه . وإنك يا بُنىّ لا تستطيع أن تفسر بعقلك كيف يبرأ الأكمه والأبرص ، لأن قائلا يقول له ابرأ ! ومع ذلك فقد برِئ الأكمه والأبرص حين أمر أن يبرأ ، وقد قرأت عليك ذلك فى الإنجيل فلم تنكره ؛ لأن الناس جميعاً قد عرفوه . وإنك يا بنىّ لا تستطيع أن تفسر بعقلك كيف يمشى الرجل على الماء ، ولا كيف تشبع الجماعة الضخمة مما يقوم بأوَد الرجل الفذّ ! ومع ذلك فقد كان هذا كله ، قرأته عليك فى الإنجيل فلم تنكر منه شيئاً ! لأن الناس جميعاً قد عرفوه . فكن فى إحدى هاتين المنزلتين ، ولا تتذبذب بينهما : فإما أن تعرف ما عرف الناس ، وإذًا فلتؤمن بما آمن به الناس ! وإما أن تنكر ما عرف الناس ، وإذاً فما أدرى لمَ تطمئن إلى آلهتك القدماء ، وإنّ أمرهم لأدنى إلى المحال وأشدّ إغراقاً فى السخف ، وأبعد مما يستطيع عقلك أن يُسيغ !

قال كلكراتيس : فإنى أستطيع أن أنكر ما عرف الناس إلا أن

يعرفه عقلى . وإنى لاأرى على نفسى بأساً من أن أنكر الآلهة القدماء كما أنكر الإله الجديد الذى يحدثنى عنه الإنجيل ما دام عقلى لا يستطيع أن يُسيغ من أمره ولا من أمرهم شيئاً .

قال الراهب : بل أنت لا تستطيع هذا يا بنىّ ! لأن نفسك عاجزة عن أن تحيا بغير إيمان ، كما أن جسمك عاجز عن أن يحيا بغير الطعام والشراب .

إن جسمك لا يستطيع أن يقيم على الجوع ، وإن نفسك لا تستطيع أن تقيم على الجحود ، وإنك مضطر إلى أن تؤمن بآلهتك القدماء ، أو بإلهنا هذا الجديد القديم الأبدىّ الخالد . فاختر لنفسك بينه وبينهم ، وانظر أىّ الدينين أقرب إلى ما تحتاج إليه نفسك من الحب والرحمة ، ومن العطف والحنان ، ومن البر والتقوى . وأى الدينين أولى إلى ما يحتاج إليه عقلك من الارتفاع عن الصغائر ، والتنزه عن الآثام ، والتطهر من الرجس .

قال كلكراتيس : ما أشد ما أفسدت علىّ أمرى ! وما أشد ما سلطت علىّ من الاضطراب .

قال الراهب الشيخ : قلت لك يا بُنىّ إنى لم أفسد عليك شيئاً ؛ لأن أمرك كان كله فاسداً ؛ إنما رأيت الأمور قد اختلطت عليك ، فاجتهدت فى أن أهون عليك التمييز بين المختلط منها . وما أظن أن ذلك يستقيم لك فى هذه اللحظة التى أنت فيها ! ولكنك فى حاجة إلى الأناة والروية ، وإلى التلبث وطول التفكير . فأمهلْ نفسك ورُضها على عبادة دينوزوس وأصحابه ، فما أراها تستجيب لك . ثم

رضها على الكفر المطلق والجحود الخالص ، فما أراها تقيم على ذلك أو تطمئن إليه . ثم رضها على حبّ هذا الإله الجديد الذى يبشر به الإنجيل، وانظر فلعل رحمة الله أن تمسها ، ولعل قلبك أن يذوق حلاوة هذا الإيمان الذى أنعمُ به منذ انتهيتُ إلى ذلك الدير .

وإنى ، يا بنىّ ، راحلٌ عنك وعن صديقيك منذ اليوم ، وكاره أن يظن بى صاحبك ما ظنه حين كان يزعم أنى قد أتيت أخطفك من بينهما . فاستقبل أمرك هادئاً مطمئنًّا ، وانظر إلى أى شىء ينتهى بك النظر والتفكير .

قال كلكراتيس : فما أرى أنى سأدعك ترتحل عنى ، وما أرى أنى أستطيع فى هذه الأرض مُقاما .

قال الراهب : فما أستطيع يا بنىّ أن أقيم .

قال كلكراتيس : لن ترحل وحدك .

قال الراهب مشرق الوجه : فأنت إذاً تريد أن تتبعنى ؟

قال كلكراتيس: نعم ! لا لأنى آمنت بما تؤمن به ، واطمأننت إلى ماتطمئن إليه ، ولكن لأنى أجد فى حديثك أنساً لم أجده فى حديث إنسان قط ، وأرى فى قربك رحمة وحناناً لم أجدهما فى قرب إنسان قط ، وأرى أن هذه الدار تنبو بى ، وأن الناس من حولى عدوٌّ لى ، وأنك وحدك الصديق ، وأن دارك وحدها هى دار الخفض والدعة والهدوء .

ثم صمت الفتى صمتاً طويلا ، ولكن دموعه الغزيرة المنحدرة تحدثت عن نفسه الحائرة المضطربة أصدق الحديث .

هنالك نهض الراهب الشيخ فضمه وقبله وبارك عليه .

٦

وبلغ الراهب الشيخ ديره بعد أيام ، فإذا الفيلسوف الفتى يستقبله مع المستقبلين حفيًّا به مشوقاً إليه ، يسأله فى لهفة وحنان ، وفى محبة وبرّ عما احتمل من مشقة ، وما صادف من عقبة ، وما لقى من عناء فى سفره البعيد . والراهب يجيبه هادئاً مطمئنًّا وادع النفس متريح القلب ، لا يظهر دهشاً لمكانه فى الدير ، كأنه كان مستيقناً أنه سيلقاه حيث يلقاه الآن . حتى إذا استقرّ به مكانه ، وخفّ إلحاح أصحابه عليه بالتحية والسؤال ، وفرغ لصديقه الفتى شيئاً ، سأله : كيف انتهيت إلى هذا الدير ؟ وكيف نجدك فيه ؟

قال الفتى : لقد أحسست منك يا أبت تردداً فى اصطحابى ، إحجاماً عن مرافقتى ، وإشفاقاً من أن يظن بك صاحباى أنك قد تطفتنى من بينهما خطفاً ، كما كنت تقول ، فلم ألح عليك ، بل أعدْ عليك طلب الإذن فى صحبتك . وإنما تلقيت ضمك لى وتقبيلك إياى ، وهذه البركة التى مسستنى بها ، تلقيت هذا كله منك على أنه قبول لما طلبت إليك ، قبولٌ صدر من قلبك إلى قلبى ، وانتقل من نفسك إلى نفسى ، وإن لم يُبلغه لسانك إلى أذنى . ومن هنا أظهرت المضىّ فيما كنت ماضياً فيه من سخط على قيصر ، ورغبة فى الهجرة ، وبحث عن الأرض التى أهاجر إليها . وذهبت من مساء ذلك اليوم إلى قصر الحاكم ، فلقيته ولقيت أندروكليس ولقيتك معهما

وسمرنا فيما سمرنا فيه ، وافترقنا حين تقدم الليل ، لم يحس صاحباى أنى تقدمت خطوة فيما كنت أفكر ، أو تأخرت خطوة عن الموقف الذى كنت قد انتهيت إليه . ولكن أمرى كله كان قد دبر بين أول النهار وآخره . ولما فارقتكم لم أعد إلى بيتى إلا لألم به إلمامة قصيرة . ولما تلقيت الصبح من غد تلك الليلة كنت قد فصلت عن المدينة منذ ساعات . ثم لم يرتفع الضحى ، ولم تزل الشمس ، حتى كنت بعيداً عن إقليم صاحبى . وما أدرى بعدُ ماذا كان من أمره وأمر أندروكليس ، حيث علما أنى قد فارقت المدينة فراق من لا يريد أن يعود إليها . وما أدرى إلا أنهما قد ضاقا بهجرتى هذه ضيقاً شديداً ، فإنهما يحبانني ويأنسان إلى ، ويحرصان الحرص كله على صحبتى .

وقد كنت أريد أن أجزيهما براً ببر وإحساناً بإحسان ، ولكن ماذا أصنع وقد فرقت بيننا طبائعنا وأمزجتنا على هذا النحو الذى رأيت ! على أنى قد تركت ورائى من الأمر ما ينبئهما بأنى كنت لهما صديقاً ، وعلى مودتهما حريصاً فقد جعلت إلى حاكم المدينة تدبير ثروتى وإنها لعريضة ، والإشراف على أموالى وإنها لضخمة ، وتقدمت إليه فى أن يقوم فى ذلك مقامى ثلاثة أعوام ! فإنى رجعت إلى المدينة فذاك ، وأنا زعيم أن أعرف له حسن خلافته لى فيما تركت ورائى ، وإن لم أرجع ، وما أرانى راجعاً ، فإن مالى يقسمُ أثلاثاً : له الثلث ، ولأندروكليس الثلث ، والثلث الأخير لهذا الدير .

وقد حملت معى ما استطعت حمله من مال وجوهر ، ومن عرض

ورقيق ، فقدّمته إلى رئيس الدير ليبرّ به من تعوّد أن يبرّهم من الضعفاء والبائسين والمحتاجين إلى المواساة والعون .

وأقمت فى هذا الدير أنتظر عودتك لأستشيرك وأستخبرك ، وأسألك عما أصنع وعما أريد ؛ فإنى لاأدرى ماذا أصنع ، ولا أعرف ماذا أريد .

قال الراهب الشيخ فى صوت يملؤه الحنان والحب : لقد تعجلت نفسك يا بنىّ ، وكنت خليقاً أن تستأنى وتصطنع الريث ! فإنك صائر آخر الأمر إلى قرار ترضاه وتطمئن إليه . ولو قد أقمت بين أهلك ومالك وصديقك لما أخر ذلك ما قدر لك من الانتهاء إلى ما يطمئن إليه قلبك الذى لا بد له من أن يطمئن ، وإلى ما تستريح إليه نفسك الحائرة ، ويخرج به عقلك من الشك إلى اليقين .

إنك يا بنى لست من هؤلاء الناس الذين تُفرَض عليهم الحيرة ضربةَ لازب ، وينفقون أعمارهم فى الشك الذى يُهلك النفوس ، أو الذى يقلقها ويُعَنِّيها ، أو الذى يضطرها إلى التهاون والاستمتاع باللذات . لست من هؤلاء فى شىء ؛ ولكنك من الذين فُطروا على الحزم والعزم ، الذين لا يشكون إلا ليستيقنوا ، ولا يقلقون إلا ليطمئنوا . فأقل عليك للوم ، واطمئن إلى الراحة فى هذا المكان الهادئ البعيد ، وأرسل نفسك على سجيتها ، ودَعها تفكر ما وسعها التفكير ، ودَعها تشك ما امتدت لها أسباب الشك ؛ فلست أخشى عليها من هذا كله شيئاً .

قال الفتى : ما سمعت كاليوم كلاماً أحسن موقعاً فى النفس ، ولا أيسر مسلكاً إلى القلب ، ولا أقدر على تهدئة الضمير . لقد كنت

أريد أن أفرّ بعقلى من قيصر وطغيانه ، فإنى الآن قد فررت إليك من عقلى وجموحه . فأشعرْ نفسى هذا الهدوء الذى تعرف كيف تذيعه فى النفوس ، وأزلْ عنى هذا الاضطراب الذى لا أستطيع عليه صبراً ، ولا أملك له احتمالا . أرحنى من عقلى فقد سئمته وَبرمت به ، وأصبحت له مبغضاً ، وعليه مضغناً .

قال الراهب الشيخ : رفقاً بنفسك يا بُنى ، وإنصافاً لعقلك هذا المسكين الذى تعبث به كما يعبث الطفل بلعبته . لقد كنتَ منذ أيام تحكمه فى أمرك كله ، وتسلطه على نفسك وعلى كل شىء ، وتراه وحده الحكمَ الذى ترضى حكومته ، والقاضى الذى لا يردّ قضاؤه . فهأنت ذا قد أصبحت ترفض عقلك رفضاً ، وتنبذه نبذاً ، وتأبى صحبته . لقد كان عقلك يتمرد عليك ، فأصبحت أنت تتمرد على عقلك . أليس من الممكن أن تجد لنفسك طريقاً وسطاً ، وأن تصاحب عقلك مصاحبة الصديق للصديق لا مصاحبة العبد للسيد ؟

قال الفتى : وهل إلى ذلك من سبيل ؟ لقد كلفنى عقلى ما لا أطيق . ما عرضت عليه شيئاً إلا شك فيه ، ولا دعوته إلى شىء إلا ارتاب به ، ولا رغبته فى شىء إلا رغب عنه ، حتى بغض إلىّ كل شىء وزيّن فى قلبى حب الموت . ولقد رأيتنى يوم أقبلتَ أنت إلى المدينة أقرأ « فيدون » تهيؤاً للموت . ولولا أن بيان أفلاطون شغلنى عن نفسى وعن الموت ، لما حمدت عاقبة ذلك الشك الذى كنت فيه .

قال الراهب وهو يضحك : فإن أمرك يا بُنى لا يخلو من فُكاهة . ما أسرع ما فرّقت بين نفسك وعقلك ! وما أسرع ما أنشأت بينهما هذه

الخصومة ، كأنهما شخصان مختلفان قد أصبح كل منهما لصاحبه عدوًّا ! ومع ذلك فأين الحدود التي تفرّق بين هذين الشخصين ؟ ! إن عقلك يابني هو الذي يتحدّث الآن ، وهو الذي كان يتحدّث أمس . قد كان عقلك مسرفاً في الإيمان بنفسه فكان طاغية متمرداً ، ثم هو الآن مسرف في الارتياب بنفسه فهو ذليل مستكين . وكلتا الحالتين مرض يجب أن تبرأ منه لتنتهي إلى هذه المنزلة الوسطى ، فتؤمن بعقلك إلى حدّ ، وتجحد سلطانه إلى حدّ ، وتأخذه بما ينبغي من التواضع الذي يتيح له الفهم والتفكير وإصلاح أمرك في الحياة ، ويتيح لنفسك الإيمان واليقين وهذا النحوَ من الغذاء الروحي الذي لا تستطيع أن تحيا بدونه .

والأمر بينك وبين عقلك ، يا بنيّ ، أيسر جدًّا مما تظن . لم تفكر قط في المعجزات ولم تقف عندها . فلما أظهرتك على أطراف منها اطمأن إليها ضميرك ، ولم يسترح لها عقلك ، فهذا مصدر ما أنت فيه من الاضطراب . ولو قد استطعت أن تُلقيَ في رُوعك أن هذه المعجزات التي تخرق العادة وتخالف مألوف العقل من قوانين الطبيعة ليست في نفسها إلا مظاهر طبيعية كغيرها من المظاهر ، إلا أن سلطان العقل لم ينبسط عليها ، لعرفت أن سلطان العقل لم ينبسط ولا يمكن أن ينبسط على كل شيء . والله يجري هذه المعجزات على أيدي رسله وأنبيائه ليظهر العقل على أنه ما زال ضعيفاً قاصراً ، وعلى أن علمه ما زال بعيداً ، وسيظل بعيداً عن أن يحيط بكل شيء . فخليق أن يذكر هذا ولا ينساه ، وأن يسلك طريقاً مستقيمة متواضعة

إلى ما يريد من الحق ، فإنه هالك إن لم يسلك هذه الطريق . وما أرى يا بنيّ أن أمر هذا العقل سيصلح إلا حين يجرى الله المعجزة الكبرى .

قال الفتى : المعجزة الكبرى ! وما عسى أن تكون ؟

قال الراهب الشيخ : هى هذه التى يفهمها العقل حق الفهم ، ويُكبرها كل الإكبار . يفهمها فلا يستطيع لها إنكاراً ، ويكبرها فلايستطيع عليها تمرداً ولا طغياناً .

قال الفتى : وتظن أن هذه المعجزة واقعة يوماً ما ؟

قال الشيخ : بل هى واقعة ، وما أرى إلا أن وقتها قد أظلّنا ! فإن الله أحب لعباده وأرأف بهم وأعطف عليهم ، من أن يخلى بينهم وبين هذا الطغيان العقلى الذى هم فيه .

ولقد تعهد الله عقل الإنسان ، ينشئه وينميه ، ويمدّه بالقوة شيئاً فشيئاً ، ويُظهر له المعجزات بين حين وحين ، يعصمه بذلك من الغرور ، ويحفظه من الطغيان ، ويعدل به عن السبيل الجائرة ، وهو يقدر أن هذا الطفل سيبلغ أشده يوماً ما ، وسيستطيع أن يضع نفسه موضعها وألا يتجاوز بها حدّها ، ولا يخرج بها عن طورها المقسوم لها . فإذا بلغ العقل أشده وانتهى إلى هذه المنزلة من النضج ، أنزل الله عليه السكينة ، وأظهر له المعجزة الكبرى التى تتجه إليه ، وتنفذ إلى أعماقه ، وتضطره إلى الإيمان بها عن فهم وروية ويقين ، لا عن خوف وفزع وإذعان

قال الفتى ، وقد أخذ منه الشغف والكلفُ والشوق مأخذاً عظيماً

كاد يخرجه عن صوابه : وترانا نبلغ هذا الوقت الذى ينضج فيه العقل لفهم هذه الآية الكبرى وحمل هذه الأمانة العظمى ؟

قال الشيخ : فقد نضج العقل يا بنىّ ، وإنه ليدعو هذه الآية بكل ما فيه من قوة ، وإنه ليتجه إلى السماء اتجاه المتلهف المشوق ، يستنزل منها هذه الآية . ولو استطاع لطار إلى السماء ، ولكنه قد فقد جناحيه منذ أهبط إلى هذه الأرض ، كما يقول أصحاب أفلاطون ؛ فهو مضطر إلى أن ينتظر رسالة الله ، وإلى أن يصبر حتى يأتيه اليقين .

قال الفتى : وكيف عرفت نضج العقل وقربه من هذا الوقت الذى يخرج فيه من الظلمة إلى النور ، ومن القلق إلى الاطمئنان ؟

قال الشيخ : لقد حدثتك ببعض ما رأيت فى رحلتى تلك إلى بلاد العرب . وما أرى إلا أن حديثى ذاك قد أدخل على نفسك بعض القلق الذى أنت فيه ، كما أدخلت رحلتى على نفسى هذا القلق الذى انتهى بى إلى هذا الدير .

فانظر يا بنى ، كما أنظر ، إلى الناس من حولك ! ألست ترى يأساً من كل شىء ، وضيقاً بكل شىء ، وانتظاراً لشىء لا يعرفون ما هو ، وطموحاً إلى مثل أعلى يلمحونه ولا يستطيعون تصويره ولا تصوره ؟ ثم انظر إليهم وفكر فى أمرهم ، أرأيتهم قد اضطربوا وساءت أحوالهم وفسدت الصلات بينهم كما تراهم الآن ؟ ! إن هذا لشىء يراد يا بنىّ ، وما كان الله ليدفع الناس إلى هذا اليأس المهلك إلا وهو يقدّر لهم رحمة تخرجهم منه ، ويهيئ لهم نوراً يمحو عنهم ظلمته القاتمة .

أقم يا بنيّ معى ؛ فإنى لا أقيم فى هذا الدير عبثاً ، وإنى لم أختره دون غيره من الأديار التى تنبثّ غير بعيد من مدينتنا إلا ولى فى اختياره أرب .

قال الفتى : وما ذاك ؟

قال الشيخ : هو هذا النبأ الذى أنتظره ، وما أشك فى أنه سيبلغنى أو فى أن بشائره ستبلغنى عما قليل . أقمْ يا بنيّ ! لقد رأيت بشائر هذا النبأ يتبع بعضها بعضاً فى تلك البلاد التى أقمت فيها أعواماً . وما أشك فى أن هذه البشائر ستتجاوز هذا الوجه من أقطار الأرض وستبلغنا . ولو استطعت أن أقيم فى البلاد التى ظهرت فيها تلك الآيات لما زُلت عنها ، ولكنها ليست لى بوطن ! فأنا أقيم منها غير بعيد ، وأنتظر أنباءها من يوم إلى يوم . ولقد حدّثت بأحاديثها إلى رهبان هذا الدير ، فاضطربوا لها كما تضطرب لها أنت الآن ، وكما اضطربت لها أنا من قبل . ومنهم شاب آرامىّ من أهل الجزيرة استخفته هذه الأحاديث ، فلم يملك نفسه ولم يستطع أن ينتظر كما ننتظر فى هذا الدير المطمئن ! ولكنه ارتحل عنا ، وأمعن فى الصحراء إلى أقرب موضع ممكن من هذه البلاد ! واتخذ لنفسه هناك صومعة يقيم فيها ، قريباً من الجادة حيث تمر القوافل التى تحمل إلينا تجارة تلك الأرض ، يريد أن يسبقنا إلى العلم بهذا النبأ العظيم . وقد عوّدنا إذا مرت عليه القوافل فسألها واستقصى أخبارها ، أن يزورنا فيحدثنا بما سمع وبما نقلت إليه القوافل . وإنه ليحدثنا بالأعاجيب يا بنيّ ، وإن موعد زيارته قد أظلّنا ! فهذا أوان مرور القوافل فى تجارتها إلى أرض الشام .

وما أراك ستطيل المقام هنا قبل أن ترى بحيرَى مقبلا علينا بأخبارها ينثرها بيننا فرحاً ، مرحاً ، مبتهجاً ، كأنه الفتى الكريم ، يجد اللذة كلها فى أن يهب للناس ما جمع من ماله .

أقم يا بنىّ ! لقد كان عقلك ينكر المعجزات ، ويزعم أنه لن يؤمن حتى يرى . فسيرى عقلك يا بنى . سيعيش فى عصر المعجزات . وسيكون حظك خيراً من حظى ومن حظ أمثال الذين تقدمت بهم السن . سنرى نحن البشائر وقد لا ندرك جلية الأمر . أما أنت فسترى البشائر كما نراها ، وقد تبلغ من صريح الأمر ما لا نبلغ ، وتنال من الفوز ما لم يقدر لنا أن ننال .

قال ذلك وانهلت من عينيه عبرات غزار احتبس لها صوته فى صدره . فنهض الفتى إليه وقبله وفداه ، وما زال به حتى عاد إلى ما كان عليه من الهدوء والوقار. فقال فى صوت مطمئن : انتظر يا بنىّ ! فليأتينك النبأ غداً أو بعد غد . وإذا بلغت ما لم نبلغ وانتهيت إلى ما لم ننته نحن إليه ، فاذكرنا من حين إلى حين ، وقل لنفسك إنا كنا نتحرّق شوقاً إلى بعض ما تجد من راحة أو نعيم .

٧

وقد أقام الفتى فى هذا الدير أياماً طوالا ، مضطرباً بين شك يقسو عليه حتى يكاد يهلكه ، واطمئنان يشيع فى نفسه حتى يفتح له إلى الأمل أبواباً عراضاً . يخلو إلى نفسه ويعرض أمره ، فيظهر له مظلماً قاتماً وبشعاً منكراً ! يوئسه ، أو يكاد يوئسه من كل شىء ، ويسلط عليه من شياطين الحيرة ما ينغص عليه يقظته ، ويذود عنه نومه ، أو يفسد عليه أحلامه إن غلبه النوم .

وكان يفزع من هذا الشك أحياناً إلى كتب الفلاسفة ، يطيل النظر فيها والوقوف عندها ، فلا يبلغ من مصاحبتها ومعاشرة أصحابها شيئاً . ومع ذلك فقد كانت هذه الكتب ، فيما مضى من حياته ، غذاء لنفسه وقلبه وعقله ، يجد فيها من اللذة ونعمة البال ما لا يشبهه إلا ما كان يجده صاحباه من اللذة فى عبادة أولئك الآلهة القدماء بما كانوا يحبون أن يعبدوا به من ألوان اللهو والعبث والمجون . وكان يفزع من هذا الشك أحياناً إلى الكتب المقدسة ، يطيل النظر فيها ، والوقوف عندها ، فيفهم أحياناً ، ويعجز عن الفهم أحياناً أخرى ، ولا يطمئن قلبه فى حال من الأحوال .

كانت نفسه تحدثه بأن وراء هذه المعجزات التى تمتلئ بها التوراة والإنجيل وقلوب الناس وأحاديثهم ، حقاً لا ينبغى أن يكون فيه شك . ولكن عقله كان عاجزاً عن أن يسيغ هذه المعجزات ، أو يُحسن الإذعان

لها والرضا عنها . فكان الفتى مقسما ، إذا نظر فى الكتب المقدسة ، بين إيمان يشيع فى قلبه ويدعوه إلى الرضا والاطمئنان ، وشك يشيع فى عقله ويدعوه إلى التمرد والجموح . وكان يجد فى هذا التناقض بين قلبه وعقله ألماً لاذعاً عميقاً عنيفاً ، زهده فى كل شيء ، ويكاد ينتهى به إلى الجنون أو ما يشبه الجنون .

هنالك كان يفزع من قلبه وعقله ، ومن كتب الفلاسفة وأسفار الدين ، إلى حنان ذلك الراهب الشيخ ، فيجد عنده بعض ما كان يحتاج إليه من الراحة وهدوء البال ، ويجد عنده هذا الحب الذى يُشعره الشجاعة والصبر ، ويذكى فى نفسه جذوة الشوق إلى هذه البشائر التى كان يسمع عنها ولا يراها ، ويتحرق شوقاً إليها ولا يجد ما يخفف لوعته أو ينقع غُلته .

وإنه لمع أستاذه الشيخ ذات يوم ، وقد اصفرّ وجه النهار ، وشاعت الكآبة فيما يحيط بهما من الحياة والأحياء ، وهدأت لذلك نفوسهما ، كأن هذا الحزن الشائع الهادئ قد مسهما بجناحه فأشاع فيهما شيئاً من الكآبة والهدوء انخفضت له أصواتهما شيئاً ، فهما يتحدثان حديثاً يشبه الهمس ، ولو استطاعا لآثرا الصمت ، وليبلغ كل منهما قلب صاحبه من طريق هذا الصمت العميق ! ولكنهما كانا يتحاملان ويتكلفان الحديث ، وقد كاد السأم يبلغ نفس الراهب الشيخ الذى كان لا يعرف سأماً ولا مللا ، والذى كان يذود عن صديقه الشاب كل سأم وكل ملل . ولكن انتظارهما قد طال وأسرف فى الطول ، ولم يأتهما النبأ الذى كانا ينتظرانه ، ولم يزرهما بحيرى الذى كان خليقاً

أن يزورهما منذ عهد بعيد ! فقد مرّت القوافل إلى الشام ، وليس من شك فى أنها قد أمعنت فى بلاد الروم ، فباعت واشترت وعادت إلى أوطانها ، ولم يأت بحيرى ولم يأت من نبئه قليل ولا كثير — أقول : إنهما ذات يوم لفى هذا الحديث الشاحب الكئيب ، وقد كاد السأم وطول الانتظار ينتهيان بهما إلى اليأس ، وإذا ضجيج يدنو منهما ، وإذا هما يُنصتان كأنما يريدان أن يتعرفا مصدره . ولكن الضجيج يدنو حتى يبلغ الدير ! وينهض الشيخ وصاحبه الفتى ليعرفا من أمره ما يجهلانه ! فما أسرع ما يمتلئ قلب الشيخ إيماناً ورضا ! وما أسرع ما يضطرب قلب الفتى إشفاقاً وخوفاً !

هذا بحيرى قد أقبل ، ولم يقبل وحده ، وإنما أقبل معه عدد غير قليل من الناس ، وقد أهمهم أمر ذو بال ! فهم يلغطون فى كثير من الدهش والحيرة ، منهم من ينكر ، ومنهم من يعرف ، منهم من يرضى ، ومنهم من يسخط ، وأهل الدير يسألون ويستنبطون فلا يظفرون من الجواب إلا بهذا اللغط الذى تختلط فيه المعرفة والإنكار ، والتصديق والتكذيب ، والشك القاتم واليقين المشرق . فأما بحيرى نفسه فقد كان خارجاً عن طوره ، يأتى من الحركات بيده ووجهه وجسمه كله ما لم يتعوّد أهل الدير الإتيان به .

وكان كلما دنا من الراهب الشيخ ازداد هيامه وتولهه ، حتى إذا رآه عدا إليه عدواً ، ولم يكد يبلغه حتى ألقى نفسه بين ذراعيه ، وجعل يضمه ويقبله ويقول فى صوت يقطعه البكاء ويبلله الدمع الغزير : لقد رأيت ! أقسم لقد رأيت ! أشهد بالمسيح والصليب لقد رأيت ! لقد رأيت واقتنعت.

لن يبلغ نفسى الشك بعد اليوم . لقد رأيت ! أقسم لقد رأيت !

والراهب الشيخ ، يهدئه ويبارك عليه ، ويسأله عما رأى ، ويدعوه إلى أن يقلل من هذه الأيمان ، ويخفف من هذه الحدة ، ويرد نفسه إلى صوابها واطمئنانها شيئاً ، ويحدثه بجلية ما رأى وخلاصة ما اقتنع به . وما يزال الراهب الشيخ بهذا المتوله الهائم حتى يرد عليه بعض الهدوء ، ويظفر منه وممن حوله بشىء من الأناة والوقار .

ثم يسأل الراهب الشيخ صاحبه بحيرى ، وقد اطمأنت نفسه ، أن يقص عليه بدء حديثه .

فيقول :

٨

من شاء فليشك ، ومن شاء فليستيقن . أما أنا فلن يجد الشك إلى نفسى سبيلا بعد اليوم . لقد تأذن الله بأن كل شىء من حولنا سيتغير . فطوبى للذين يبلغون الآية الكبرى ! وطوبى للذين يرونها فتقبلها قلوبهم مطمئنة إليها ، وتقبلها عقولهم مؤمنة بها ؛ ورحمة للذين تقصر بهم آمالهم عن بلوغ هذا الوقت السعيد ؛ والويل كل الويل للذين يرون ثم لا يؤمنون !

قال الراهب الشيخ : فحدثنى يا بنى بما رأيت ، حتى إذا فرغت من حديثك فكن كما شئت مبشراً ومنذراً .

قال بحيرى : لقد رأيته ، ما يبلغنى فى ذلك شك ، وما يمسنى فيه ريب .

قال الشيخ : من هذا الذى رأيته ؟

قال بحيرى : هو الذى سيغير من حولنا كل شىء . وهو الذى سيتم ما جاء به الأنبياء والرسل . هو الذى سيحقق ما بشرت به الكتب المقدسة . هو الذى سيصدق ما امتلأت به التوراة والإنجيل .

وكان الذين يسمعون هذا الحديث قد أخذت عليهم ألبابهم واختلطت عليهم أمورهم ؛ فكانوا يسمعون ومنهم الشاك المرتاب ، ومنهم المشوق إلى التصديق المشغوف بالإيمان ، الذى لا ينتظر إلا أن تهدأ عن هذا المتحدث ثورته ، فيفصح عما فى نفسه ويعرب عما يريد أن يقول .

وكان الراهب الشيخ والفيلسوف الفتى قد بلغا من هذا الشوق أقصاه حتى كأنهما استحالا شوقاً خالصاً .

فلما طال على الراهب الانتظار ، وكاد يفقد الصبر ، قال لصاحبه بحيرى وهو يتكلف الأناة والهدوء : مهلا يا بُنيّ ! إن كنت تريد أن نصدقك فاقصص علينا أمرك ! فإن إطالة التشويق توشك أن تنتهى بك وبنا إلى اليأس المهلك !

قال بحيرى : إنك لتعلم لماذا تركت هذا الدير منذ عهد بعيد ، ولماذا أمعنت فى الصحراء حتى اتخذت صومعتى فى أقرب مكان من هذه البلاد التى حدّثتنا عنها بالأعاجيب . لقد أقمت فى هذه الصومعة كما تعلم ، أنتظر من أنباء تلك البلاد ما كنتَ تنتظر ، وأترقب من أخبارها ما كنتَ تترقب . وإنك لم تكذبنى فيما نقلت إليك من أحاديث الناس عما حدث فى تلك البلاد بعدك من أحداث ، يروونها ولا يفهمونها ، ويتناقلونها ولا يستطيعون لها تفسيراً ، ولكنهم إذا رأوا منها شيئاً أو سمعوا من أخبارها طرفاً ثم أعياهم الفهم والتأويل ، قالوا : إن لهذا لشأناً .

ولقد كنت أحدثك بما أسمع من الأعاجيب ، فكنت تقول وكنت أقول معك كما يقول هؤلاء الناس : إن لهذا كله لشأناً . ولكنك أنت كنت تعلم هذا الشأن . ولكنى أنا كنت أعلم هذا الشأن ! لأننا نجده عندنا مكتوباً فى الكتب . ولأننا نجد علمه عندنا موروثاً عن الأحبار والرهبان .

ألسنا ننتظر أن يظهر فى تلك البلاد رجل يتم الله على يده

ما بدأ من رسالته إلى الناس ؟ !

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : فإنى أقسم لقد رأيته !

قال الراهب وهو يهز رأسه وقد ظهر على وجهه الشك المؤلم : ما أرى يا بنى إلا أنك قد أخطأت أو خُدعتَ ! فإن أوان هذه الرسالة لم يأت بعدُ وإن كان قريباً .

قال بحيرى : ومنْ زعم لك أن أوان هذه الرسالة قد آن ؟ !

قال الراهب الشيخ : ألم تنبئنى أنك قد رأيته ؟ !

قال : بلى ! قد رأيته ، أقسم لك رأيته . ولكنه ما زال صبيًّا لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره المبارك بعدُ .

قال الراهب وقد أشرق وجهه : أما الآن فعسى أن تكون مصيباً . أستطيع أن أسمع لحديثك . كيف رأيته وكيف عرفته ؟

قال بحيرى : لقد رأيته ولقد حميته . بل ماذا أقول ! غفرانك اللهم ، فأنت وحدك الذى تملك حمايته وتبلغ منها ما تريد حتى يُتم أمرَك ، ويبلغ رسالتك إلى الناس .

قال الراهب الشيخ : قل يا بنى ، فقد شققت علينا وكلفتنا أكثر مما نطيق .

قال بحيرى : أنشدُك اللهَ ، ألسنا نعلم أنه سيولد فى تلك الأرض التى كان فيها ما حدّثتنا به من أمر الفيل ؟ !

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : أنشدُك الله ، ألسنا نعلم أنه سيولد يتيمًا يموت عنه

أبوه وهو جنين ؟ !

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : أنشدك الله ، ألسنا نعلم أن أحداثاً عظاماً ستحدث يوم مولده يحسها الناس ولا يتبينونها ؟ !

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : ألسنا نعلم أنه سيفقد أمه ولما يتجاوز السادسة من عمره ؟ !

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : ألسنا نعلم أنه سيفقد جدّه ولما يتجاوز السابعة من عمره ؟ !

قال الراهب الشيخ بلى !

قال بحيرى : ثم ألسنا نعلم أنه سيظل فى كفالة عم له يحميه ويرعاه حتى يبلغ أشده ، ثم يقوم دونه حين يجد الجدّ ويتألب عليه عدوّه من المشركين ؟ !

قال الراهب الشيخ : بلى ! كل هذا نقرؤه فيما نقرأ من كتبنا ، أو نتوارثه فيما نتوارث عن أحبارنا ورهباننا .

قال بحيرى : ثم ألسنا نعلم آخر الأمر أن الله قد ميزه من غيره من الناس بعلامة مادية ترَى وتُحسّ ويعرفها الراسخون فى العلم ولا يرتاب فيها إلا المبطلون أو الجاهلون ؟ !

قال الراهب الشيخ : بلى ! هى هذا الخاتم بين كتفيه .

قال بحيرى : فإذا حدّثتك بأنى قد رأيت هذا الصبىّ ، ورأيته

مع عمه هذا الذى يكفله ، وعرفت أن اسم هذا الصبى محمد ، وأن اسم أبيه عبدالله ، وأن اسم جده عبد المطلب ، هذا الذى رأيته أنت عند أبرهة وحدّثتنا من أنبائه بما تعلم .

قال الراهب الشيخ وقد اضطرب لهذا الحديث أشدّ الاضطراب : وإنك لتزعم أنك قد رأيته ؟ !

قال بحيرى : اللهم اشهد أنى رأيته ، ورأيته مع عمه أبى طالب ، وعلمت ما حدثتك به من أن أباه قد مات عنه جنيناً ، وعلمت ما أشرت إليه من أن أمه قد ماتت عنه فى بعض الطريق ولما يتجاوز السادسة من عمره ، وعلمت أنه عاد إلى وطنه تكفله أمة ورثها عن أبيه فبلغته مأمنه وردته إلى جدّه الذى كفله وحماه. ثم علمت أن جدّه هذا قد مات عنه وأوصى به إلى عمه ، وأن عمه قد قام دونه يكلؤه ويرعاه ويؤثره على ولده ، وأن الصبى يبادله حبًّا بحب ويجزيه حناناً بحنان . ولقد حدّثنى عمه أنه خرج فى تجارته مع قومه ، فكان يجد ألماً مبرحاً لفراق هذا الصبى ، ولكنه كان يشفق عليه من مشقة السفر وجهد الطريق . فلما كان اليوم الذى فصَلتْ فيه القافلةُ تعلق الصبى به وجعل يتوسل إليه فى أن يستصحبه ، ويزعم له أنه لا يستطيع المقام إلا فى كنفه . فصادف دعاء الصبى هوى فى نفس الشيخ فاستصحبه ، ومرّ به على صومعتى فيمن مرّ من قومه وهم يقصدون قصد الشام .

قال الراهب الشيخ وقد بهره ما سمع وقد أطرق القوم من حوله سكوتاً كأنما عُقدَتْ ألسنتهم فلا يستطيعون أن يديروها فى أفواههم : ولكن كيف عرفته ؟ وكيف اهتديت إلى مكانه من قومه ؟

قال الراهب : فهذه هى الآية التى ستقنعك كما أقنعتنى ، وستزيل عن نفسك الشك كما محته من نفسى محواً . أنشدُك الله أتعلم أنى عندك صادق ثقة مأمون ؟

قال الراهب الشيخ : اللهم نعم !

قال بحيرى : نعم رأيت هذا ، ولكنى رأيته وحدى ، ولم يره أحد من أولئك الذين كانوا يصحبون الصبىّ . فإذا حدّثتك به فإنما أحدثك بما رأيت وبما لم ير غيرى من الناس . فأما هؤلاء فقد ظنوا بى الظنون وأما أنت . . . . .

قال الراهب الشيخ : فما أنكر شيئاً مما تقول .

قال بحيرى : وأعجب من هذا أنى كنت قد أنبئت بما رأيت ! قد ألقى ذلك فى رُوعى أثناء النوم فى صورة مجملة غامضة ، ولا أكاد أتبين منها إلا أنى أحسست فى تلك الليلة أن سيحدُث لى حدث ذو بال إذا كان الغد . فأصبحت وإنى لأنتظر شيئاً، وأضحيت وإنى لمستيقن أنْ سيحدث لى بعض الأمر . وما هى إلا أن يرتفع الضحى وإذا أنا أطلع من أعلى الصومعة فأرى ما يملؤنى روعة وروعاً : أرى هذا الصبىّ ينفرد بهذا الظل دون أن يشعر بذلك أحد ، ودون أن يلتفت هو نفسه إليه أو يشعر به ، حتى إذا دنت القافلة وحطت رحالها ، جعل الصبى كلما انتقل انتقلت معه سحابته تلك ، تُظله وتقيه حرّ الشمس ، ولا يشعر بذلك أحد ، ولا يفطن لذلك إنسان . وأسأل من حولى : أيرون ما أرى ؟ فإذا هم كغيرهم من الناس لا يرون . وأدعو القوم إلى طعام قد أعددته لهم لما رأيت ولما كان قد أُلقىَ فى

رُوعى ! فكلهم يستجيب لدعوتى إلا هذا الصبىّ ، فإنهم يخلفونه فى رحالهم . فأسأل وألح فى السؤال ، حتى أعلم أنهم قد حضروا جميعاً طعامى إلا هذا الغلام ، فألح فى حضوره فيحضره القوم ، وإنهم ليتلاومون على أن خلفوه ! حتى إذا رفع القوم أيديهم عن الطعام، أخذت أحتال حتى أخلو إلى الشيخ الذى يصحب هذا الصبىّ . فما أزال أسأله وأستقصى أمره ، حتى أعرف من حال الصبىّ ما حدثتك به . ثم أتحدّث إلى الصبى نفسه ، فياللوجه المشرق المطمئن يُنبئ عن نفس مشرقة مطمئنة ! وياللصوت العذب ينبئ عن خُلق عذب ! وياللحديث الكريم ينبئ عن قلب كريم ! وإنى لأسأل الصبى وأستحلفه بأوثان قومه ، فلا أرى منه إلا نفوراً وازوراراً ، وإذا هو ينبئنى بأنه لم يبغض شيئاً قط كما يبغض هذه الأوثان . فأستحلفه بالله ليصدُقنى الحديث فيما أسأل عنه ، فيجيبنى إلى ما أردت . وأنا أسأله عن أمره ، جليه وغامضه ، وعما ينبغى أن يحدث له يقظانَ ، وعما ينبغى أن يحدث له نائماً ، وعما ينبغى أن يحدث له مجتمعاً إلى الناس ، وعما ينبغى أن يحدث له خالياً إلى نفسه ، فلا يجيبنى إلا بما كنت أنتظر أن يجيبنى به .

هنالك لم يبق فى نفسى إلا أن أرى هذه الآية المادية بين كتفيه ، فأنظر فأرى ، فأقبل هذا الخاتم الكريم . وقد امتلأ قلبى حبًّا للصبى ، وبرًّا به ، وإشفاقاً عليه من يهود ؛ فإنهم يعرفون من أنبائه مثل ما نعرف ، وينتظرون من أمره مثل ما ننتظر ، ولكنهم يشفقون منه ويريدون به السوء .

وإذا أنا أتقدّم إلى عمه الشيخ أن يعود به أدراجه ، وأن يبالغ في حمايته وحياطته وصيانته من كيد يهود .

وإذا الشيخ يسمع لى فى غير تردّد ، ويستجيب لى فى غير مشقة ، ويعود أدراجه بالصبىّ ، ينتحل لذلك العلل والمعاذير ، ويكل إلى بعض قومه أن يخلفه فى تجارته .

ثم يطرقُ بحيرى شيئاً كأنه يفكر فيما يريد أن يقول ، وكأنه يريد أن يكره نفسه على كتمان بعض الأمر ، ولكنه يعجز عن هذا الكتمان ، ويرفع رأسه إلى الراهب الشيخ ويقول فى صوت هادئ مطمئن : ولم يكد الشيخ يعود أدراجه بالصبى حتى يقبل علىّ هؤلاء — ويشير إلىّ بعض من صحبه — يلومونني أعنف اللوم ، ويشاورونني فى البغى على هذا الصبىّ . ولكن الله قد تأذّن ليعصمنه من كل شرّ ، وليحمينه من كل مكروه . ولولا ذلك لما رددتّهم عما كانوا قد دبروه .

قال الراهب الشيخ : ما أرى يا بنىّ إلا أنك قد حدّثتنا حديثاً صدقاً ! فطوبى لهذا الصبى ! وطوبى لمن يصحبه ! وطوبى لمن يدرك عهده ويؤمن به ؛ وطوبى لك فقد رأيت ما لم نر ، وكنت موفقاً حين أبيت إلا أن تسبقنا إلى أعماق الصحراء ، لتسبقنا إلى العلم بأنبائها . ثم التفت إلى صديقه الفيلسوف الشاب فإذا هو واجم ، مغرق فى الذهول ، فيمس الراهب الشيخ كتفه كالمنبه له ، ثم يسأله : أسمعت ؟

قال الفيلسوف الفتى : نعم !

قال الراهب الشيخ : فماذا ترى ؟ وماذا تقول ؟

قال الفيلسوف الفتى : فإنى أستأذنك وأستأذن هذا الأخ الكريم فى أن أترك هذا الدير إذا تركه ، وفى أن أعيش معه فى صومعته ، لأنتظر معه أنباء الصحراء ؛ فإن أنباء الصحراء هذه هى التى ستنجينى من الشك ، وتؤمننى من الخوف ، وتدنينى من اليقين .

٩

قال بحيرى وهو يبتسم : اسبقنى أيها الأخ الكريم إلى الصومعة إن شئت ، فأقم فيها ما أحببت ، وانتظرنى ما وسعك الانتظار ! فقد أعود إليها وقد لا أعود .

قال الراهب الشيخ : ما أفهم عنك منذ الآن يا بحيرى ! أصادفٌ أنت عن الصومعة ، وصارف أنت نفسك عن أنباء الصحراء بعد أن انتهت إليك تباشيرها ؟ وما أحسب إلا أنها ستتواتر ، وسيتبع بعضها بعضاً فى غير انقطاع ، حتى يبلغك النبأ العظيم ، إن امتدّت بك الحياة إلى أن يأتى النبأ العظيم .

قال بحيرى : إنى لأحمق إن أقمت فى هذه الصومعة أنتظر الأنباء فى طرف من أطراف الصحراء ، وأنا أعلم أين مستقر هذه الأنباء ، وأين دار الأمن والرحمة ومهبط الوحى والرسالة . ولقد همّت نفسى أن أصحب الشيخ وابن أخيه إلى مكة فأقيم معهما . ولكن الله صرفنى عن ذلك صرفاً عنيفاً لأمر يراد ، فتردد خاطره فى قلبى ، ولكن لسانى لم ينطلق به . ثم مضى الشيخ وابن أخيه ، ونازعتنى نفسى إلى أن أتبعهما وألحق بهما ، ولكنى صرفتُ عن ذلك صرفاً عنيفاً لأمر يراد . وما أرى إلا أن الله يريد أن يحفظ على الصحراء سرّها مكتوماً مستوراً لا يظهرنا منه إلا على أيسره وأهونه ، إلا على هذا الذى يطمعنا فيه ويشوقنا إليه ، ولا يدنينا منه ، ولا يبلغنا جليته . ولولا ذلك لما انعقد لسانى حين هممت أن أعرض صحبتى على الشيخ . ولولا ذلك

لما صرفت ركائبي إلى هذا الدير حين هممت أن أوجهها إلى جوف الصحراء .

قال الراهب الشيخ : فأنت تعلم يا بنيّ أن الله يظهرك على هذا الأمر قبل إبانه ، وتريد مع ذلك أن تمانع ما عرفت من تدبير الله !

قال بحيرى : الله يعصمنى من أن أمانع تدبيره ، وأخالف عن أمره ، أو أتمرد على قضائه . ولكن الصومعة لم تصبح لى منزلا ولا مقاماً ، وإن لى فى العراق لأرباً . وإنك لتعلم أن صديقنا « نسطور » ينتظر من الأنباء هناك مثل ما كنت تنتظر أنت هنا ؛ لأنه يتوقع من الأمر مثل ما تتوقع . وإنى لخليق أن أسرع إليه كما أسرعت إليك ، فأنبئه بمثل ما أنبأتك به . وما أدرى بعد ذلك أأعود إلى الصومعة أم أمعن فى أرض العرب ، لعلى أقرب من مكة . فأقيم منها بحيث تبلغنى الأنباء ، وتنتهى إلى البشائر ، فى وقت أقصر من ذلك الوقت الذى كانت تبلغنى فيه وأنا مقيم بهذه الصومعة فى طرف من أطراف الشام . فإن شاء هذا الأخ الكريم أن يسبقنى إلى الصومعة فذلك له ، وإن شاء أن ينتظر عودتى إليك إن عدت ليصحبنى إلى الصومعة فذلك له .

قال الفيلسوف الفتى : وإن شئت أن أصحبك إلى صديقك « نسطور » ، وأن أشاطرك ما تدبر من المخاطرة والمغامرة . . . .

قال بحيرى : فذلك لك . ولكنك رجل من الروم ، والأمر بين منْ فى العراق ومن فى الشام على ما تعرف من الفساد والنكر . ولست آمن أن تتعرّض لبعض الشر أو يلمّ بك بعض المكروه . فأما أنا فليس علىّ من ذلك بأس ! لأنى من أهل العراق أسير سيرتهم ،

وأتكلم لغتهم ، وأنا بعدُ معروف بكثرة الرحلة والتنقل فى أطراف الأرض ، مأمون على أمر القوم ، لا يتهموننى ، ولا يشفقون منى على شىء .

قال الفيلسوف الفتى : فإنك قد أمعنت فى أرض الروم ولم تلق كيداً ، فدعنى أصحبك إلى أرض الفرس ، فلعلى أن أجد فيها من الأمن مثل ما وجدت أنت فى هذه البلاد . ولا بأس عليك إن كانت الأقدار قد أرصدت لى بعض ما يكره الناس ويخافون ؛ فإنى لا أكره شيئاً ولا أخاف شيئاً ولا أحب شيئاً كما أحب الخروج من أرض قيصر .

قال بحيرى : فهيئ نفسك إذاً للرحلة ؛ فإن الصبح لن يجدنا فى هذا الدير .

قال الراهب الشيخ فى صوت حزين : فأما أنا فليس يعنيكما من أمرى قليل ولا كثير ، أنا الذى فتح لكما أبواب الأمل ، وهداكما إلى طريق النجاة هذه التى تبتدئان سلوكها وأرجو أن تبلغا آخرها . ثم هأنتما هذان تنصرفان عنى مسرعين ، كلاكما يؤثر نفسه بالخير والعافية ، وليس منكما من يفكر فيمن يترك وراءه من الخليل والصديق .

قال الفيلسوف الفتى وهو يقبل صديقه الشيخ : إن شئت فاصحبنا ، فما نمنعك من ذلك وما نردّك عنه . ولكنك حين أقبلتَ على هذا الدير قد تركت وراءك أصدقاء لم تحفل بهم ولم تفكر فيهم . فأنت قد سننت لنا هذه السنة ، وفتحت لنا هذه الطريق .

قال الراهب الشيخ : فإنى لا أنكر عليكما شيئاً ، ولا ألومكما فى شىء ، ولو استطعت لكنت ثالثكما ، ولكنى مقيم هنا حتى يأتى أمر

الله ؛ فامضيا راشدين . وإذا لم يقدّر لنا اللقاء فى هذه الأرض فلا أقل من أن نطمع عندكما فى مودة القلب ووفاء الضمير .

وأسفر الصبح فلم يجد هذين الشابين فى الدير ، وإنما وجد الراهب الشيخ وحيداً مطرقاً مغرقاً فى التفكير ، كأنما أرسل نفسه لتشييع صاحبيه ، وهو ينتظر أن تعود إليه .

١٠

ولست أدرى بماذا رجعت نفس الشيخ إليه بعد أن انصرفت عن صاحبيه وقد أمعنا فى الصحراء . ولكنها لو اطلعتْ على ضمير كلكراتيس ثم حدّثت الشيخ بما رأت ، لأثارت فى قلبه حزناً شديداً ؛ فقد أمعن الرفيقان فى سفرهما البعيد ، مستبشرين أول النهار ، قد غمرهما نوره المشرق الذى ملأ الصحراء حتى امتزجا به امتزاجاً ، وأحس كل واحد منهما كأن نفسه ليست إلا قبضة من هذا النور القوى الخفيف قد شاعت فى عقله ، وقلبه وجسمه ، فإذا هو فرح مرح ، يندفع أمامه لا يلوى على شىء . ولولا فضل من وقار لانطلق لسانه بالغناء . وما له لا يفعل وكل شىء من حوله مشرق ، مبتهج يتغنى أو يدعو إلى الغناء !

ولكن الضحى يرتفع ، وحرارة الشمس تبلغ جسم هذين الرفيقين وتثقل عليهما وترد هما إلى شىء من الأناة والروية ، وإذا نفس الفيلسوف الشاب تتقبض قليلا قليلا ، ويدنو بعضها من بعض حتى تنحاز إلى مكانها من رأس صاحبها أو من قلبه ، من جسمه على كل حال ، فهى كائن ممتاز لا يشيع فى الفضاء ولا يمتزج بما حوله ، وإنما هو فى حيزه الذى قسم له . يحس نفسه ويفكر فيها ويعكف عليها ، ويستحضر من أمره ما مضى ، ويريد أن يستعرض من أمره ما لم يتكشف عنه الغيب بعدُ .

وإذا الفيلسوف الشاب يذكر بدء قصته ، وينتهى إلى هذا الحديث الطريف الغريب الذى سمعه من بحيرَى حين آذنت شمس الأمس بالغروب ، فأذهله عن نفسه ، وأرّقه بقية ليله ، وأزعجه عن الدير وعن صديقه الشيخ ، كما أزعجه حديث ذلك الشيخ منذ حين عن صديقه وأهله وعن مدينته التى استقبل فيها الحياة وعرف فيها لذّات الشباب .

وقد كان هذا كله خليقاً أن يدفع كلكراتيس إلى بعض الحديث ؛ فإن هذه العواطف المضطربة والذكريات القوية المختلفة قلما ترضى بالكتمان أو تطمئن إلى السكوت . ولكن الفتى أغرق فى صمت غامض عميق ، ظاهره استقرار النفس وهدوء البال ، ومن ورائه صراع عنيف ، بين قلب يشرق فيه نور اليقين فيملؤه رجاء وأملا ، وعقل تكتنفه ظلمة الشك فتدفعه إلى القنوط واليأس دفعاً . فما زال الفتى بعد هذا الذى اختلف عليه من أطوار الحياة ، وبعد ما قرأ فى الكتب وما سمع من صديقه الشيخ ، وبعد هذا الحديث الطريف الذى سمعه من بحيرى حين انحدرت الشمس إلى مستقرها الغربى أمس — ما زال الفتى بعد هذا كله ، وبرغم هذا كله ، كما كان ، حائراً مضطرباً ، مولّه النفس يكاد يمزقه الصراع بين قلبه وعقله تمزيقاً . قد زهد فى آلهته القدماء منذ عهد بعيد ، وتبين له أنه لم يكن يخلص لهم الدين حين كان يعبدهم مع صاحبيه إذا جنهم الليل فى قصر الحاكم ، وإنما كان يتخذ عبادتهم وسيلة إلى إرضاء نفسه ، وقضاء مآربه ، وتحقيق لذاته المادية التى كانت تأتيه من اللهو والعبث ، وتحقيق لذة معنوية أخرى

كانت تأتيه من هذا الامتياز الذى كان يخرجه عما ألف الناس ، ويمكنه من عصيان قيصر ، والمخالفة على أمر السلطان .

وهو قد نظر إلى دين المسيح فأطال النظر ، وفكر فأطال التفكير ، ولكنه أعرض عنه فى أول الأمر أشد الإعراض ؛ لأن القانون كان يفرضه ، ولأن السلطان كان يأخذ الناس به أخذاً ، ويبطش بالراغبين عنه والملحدين فيه . وما ينبغى للدين أن يكره الناس عليه إكراهاً ، وأن تفرضه القوة القاهرة على النفوس فرضاً ، وإنما هو ينبوع رحمة وحنان يجب أن تصبو النفوس إليه عن رضاً ، وتهوى إليه القلوب عن محبة وشوق .

ثم حدّثه الراهب الشيخ بما حدّثه به من المعجزات التى يقص الإنجيل أنباءها ، وتجتمع قلوب الناس على الإيمان بها والإكبار لها ، ومن هذه البشائر التى رأى أولها فى رحلته تلك ، وما زالت تتواتر ويقفو بعضها إثر بعض ، حتى كان ما سمعه أمس من رفيقه هذا الذى يسايره مغرقاً مثله فى صمت عميق . سمع حديث هذه البشائر ، وتلك المعجزات ، فمال إليها قلبه ، واستراح ضميره ! ولكن عقله ما زال لها منكراً ، وعنها مزوراً ؛ لأنه عقل فيلسوف ، قد نشأ على حكمة اليونان ومنطقهم ، ولم يتعود أن يطمئن إلى ما يخرج عما لهذه الحكمة والمنطق من قانون .

كان هذا كله حديث نفس الفتى منذ ارتفع الضحى ، وثقلت عليه حرارة الشمس . وكان يجد فى هذا الحديث عناء شديداً ، وهماً ثقيلا ! فهو لم يتحدث به إلى نفسه مرة ولا مرتين ، وإنما كان يتحدث به إليها

ويسمعه منها ، مصبحاً وممسياً ، مضطرباً فى الأرض ومطمئناً فى مضجعه . فلما طال عليه الجهد وبرّح به الألم ، تكلم ، لا راغباً فى الكلام ولا منتظراً منه دواء لدائه أو شفاء لعلته ، ولكن ليخرج نفسه من طور إلى طور ، وليشغلها عن هذا الصراع العنيف الأليم بين قلبه الذى يريد أن يطمئن ، وعقله الذى لا يريد ، أو لا يستطيع ، أن يتحول عن الشك .

قال كلكراتيس لرفيقه بحيرى : أرأيت لو أنى حدثتك بما قصصتَ علينا من أنباء هذا الصبيّ العربى أكنت تصدّقنى أو تطمئن إلىّ؟

قال بحيرى : فإن الأمر مختلف أشدّ الاختلاف .

قال كلكراتيس : وما ذاك ؟

قال بحيرى : فإنى لا أصدّق الناس جميعاً ، ولا أكذّب الناس جميعاً . وأنا آمن لمن عهدى به الأمانة والصدق ، وأرتاب فيمن عهدى به الخيانة والمين . وللحق بعدُ آياتٌ تدل عليه ، وعلامات تهدى إليه . ونحن لم نبتكر أمر هذا الصبى العربى ابتكاراً ، ولم نخترعه من عند أنفسنا ، وإنما حفظته الكتب ، وتحدثت به النبوات ، وتناقله الصالحون الصادقون من أحبارنا ورهباننا ، يورّثه بعضهم بعضاً ، ويعهد بانتظاره بعضهم إلى بعض ، ويتواصَوْن بترقبه واستقصاء أنبائه ؛ حتى إذا بدرت بوادره ، وظهرت بشائره ، أقبلوا إليه فمنحوه ما يملكون من نصر وتأييد . ولقد أقبلتُ إلى هذا الدير الذى فصلنا عنه منذ حين ، وإنى لأنتظر من هذا الأمر ما أنتظر ، وأرقب من أخباره ما أرقب . فما هى إلا أن

يقبل صديقنا «كلينيكوس» فيقص علينا بدء حديثه ، ونعلم منه مثل ما علمت ، حتى تشيع فى قلبى ثقة قوية بأن لهذا الحديث شأناً ، فأطير عن هذا الدير إلى صومعتى تلك فى طرف من أطراف الشام . وما أكاد أستقر فيها حتى تتواتر إلىّ الأنباء ، وتتوالى إلىّ الأعاجيب ، ثم ينتهى الأمر بى هذا العام إلى ما علمت . وما أدعوك إلى تصديق ، وما أردّك عن تكذيب ، وما أفرض عليك شيئاً ، وما أحظر عليك شيئاً ، ولكنى رأيت فآمنت ، وسمعت فصدّقت ، ثم حدّثت بما رأيت وما سمعت رجلا من أهل العلم فآمن وصدّق ، وسأحدّث من أعرف من أهل العلم ، وما أرى إلا أنهم سيؤمنون ويصدّقون ، وينتظرون كما أنتظر أن تظهر هذه المعجزة التى لا تدع سبيلا إلى الشك ، ولا طريقاً إلى الارتياب .

قال كلكراتيس فى صوت هادئ حزين ، ولكن فيه نغمة الحرص على المعرفة ، والشوق إلى اليقين ، والعجز مع ذلك عن بلوغ ما يريد : إن قلبى ليؤمن لك ، ولكن عقلى يأبى عليك .

قال بحيرى : فأنت فى حاجة إلى أن تخلق خلقاً جديداً ، وتولد مرة أخرى ، لترى الأمر كما نراه ، وتفهمه على وجهه .

قال كلكراتيس وفى وجهه ابتسامة يائسة : إنى لا أفهم عنك . لقد قرأت هذا فى الإنجيل ، قاله المسيح لرجل من يهود ، كان يشك أمره كما أشك أنا الآن ، يرضى قلبه ويسخط عقله . ولكنى أسألك كيف أولد مرة أخرى ، وإنما أسألك كيف السبيل إلى أن . مرة أخرى ؟ كيف السبيل إلى أن أغير هذا العقل فأردّه إلى

اليقين الذى يخرجه من الشك ؟ أو كيف السبيل إلى أن أغير هذا القلب فأردّه إلى الشك الذى يخرجه من اليقين ؟ فأنا شقى بهذا التناقض الذى أجده بين عقلى وقلبى . وما أرى أنى سأستريح إلا أن يشكا معاً أو يطمئنا معاً . فأما أن يذهب أحدهما نحو الشرق ، ويذهب الآخر نحو الغرب ، فهذا العذاب الذى لا يطاق ، وهذه الحياة خير منها الموت .

قال بحيرى : إنى لأرحمك وأرثى لك ، ولكنى لا أحب أن تيأس من رحمة الله ، أو تقنط من روْحه . فخذ نفسك بالصلاة ، وأقم عليها ما استطعت فقد يمسك الله بجناح من رفقه وعطفه ، فيخرجك من الظلمة إلى النور .

قال كلكراتيس : فإنى لا أجد إلى الصلاة سبيلا ، ولقد أخذت بها نفسى أخذاً شديداً ، فحاولت الصلاة صامتاً ، وحاولت الصلاة ناطقاً ، فجعلتُ كلما أدرت منها جملة فى نفسى أدار عقلى ،أو أدار الشيطان ، جملة أخرى تكذبها وتنفيها .

قال بحيرى : فإنى لا أملك لك من الله شيئاً . وأكبر الظن أنك فى حاجة إلى هذا الألم العنيف الذى يبهر العقل ، ويملأ النفس ، ويستغرق الضمير ، والذى لا يأتى إلا من التجارب والخطوب . ثم أطرق لحظة كأنه يفكر وكأنه يدعو خواطره من بعيد ، ثم رفع إلى رفيقه وجهاً مشرقاً يصوّر نفساً مطمئنة ، وقال فى صوت خافت ، كأنه صوت الصلاة : أرأيت أننا نصلى فنسأل الله أن يكفينا شرّ التجارب ، ويعصمنا من مكر الدهر وآلام الخطوب ! فمن يدرى ؟

لعل من الخير أن تصلى فتسأل الله أن يبلوك بالتجارب ، ويمتحنك بالخطوب ؛ فإن التجارب تمحص القلوب ، وإن الخطوب تطهر النفس ، وإن المحن تصفى الضمير ، وإن هذه الآلام الطارئة على غير انتظار والملمة فى غير رفق ، تكف من غلواء العقل ، وتخفف من كبريائه ، وتردّه إلى التواضع ، وتشفيه من داء الغرور .

قال كلكراتيس ، وقد انهمرت من عينيه دموع غزار : عسى أن يكون ذلك ! ولكنى فى حاجة إلى أن أرى لا إلى أن أسمع ، وإلى أن أشهد لا إلى أن أقرأ فى الكتب . ما قصدى إلى العراق ، وإن همى لفى الحجاز ! ما رحلتى إلى صديقك « نسطور » ، وإن شفائى لعند ذلك الصبىّ العربى اليتيم !

١١

وهل عرفت الفكرة اللازمة التى لا تَريم ، والخاطر الملح الذى لا يفصل عن صاحبه ولا يرفِّه عليه ! فإنى لا أعرف شيئاً أشد منهما على النفس ، ولا أشق منهما على العقل ، ولا أفتك منهما بالأعصاب . وما أرى إلا أنك ترثى مثلى لهذا الفيلسوف الرومى الشاب حين علم أنه لم يكد يُلقى إلى رفيقه جملته تلك حتى لزمته هذه الفكرة فلم تفارقه ، وألحّ عليه هذا الخاطر ، فلم يجد إلى التخلص منه سبيلا .

وجعلت هذه الجملة تذهب وتجىء فى رأسه كما يذهب المنشار ويجىء فى الخشبة التى يريد أن يشقها : « ما قصدى إلى العراق ، وإن همى لفى الحجاز ! ما رحلتى إلى نسطور وإن شفائى لعند ذلك الصبى العربى اليتيم ! » .

وهمّ الفتى ألف مرة ومرة أن يصرف عنها نفسه ، ويحوّل عنها تفكيره ، فلم يوفق من ذلك لشىء ، وإنما جعلت هذه الجملة تدور فى رأسه دوراناً متصلا ، حتى خيل إلى الفتى أنها لون من هذيان الحمى ، وجعل يتصور فى نفسه أنه مريض ، وأن شفاءه فى العناية بجسمه ، لا فى الذهاب إلى العراق ولا فى التحول إلى الحجاز ، ولا فى الرحلة إلى « نسطور » ، ولا فى القصد إلى ذلك الصبى العربى اليتيم . وجعل الفتى يمتحن نفسه مغرقاً فى الصمت ، ويمتحن نفسه مندفعاً فى الكلام ، فإذا هو لا يستطيع أن يخلص من هذا الخاطر

اللازم له الملح عليه .

وكذلك انقضى النهار ، وكذلك أقبل الليل فجلل الصحراء بظلمته القاتمة ، والفتى فريسة لخاطره هذا الملح ، لا ينقذه منه ضوء النهار ، ولا يصرفه عنه ظلام الليل . وصاحبه يرفق به ، ويعطف عليه ، ويواسيه حيناً بالحديث ، ويسليه حيناً آخر بما يُظهر له من مناظر الصحراء المختلفة المتشابهة . ولكن الفتى لا يسلو ولا يتعزّى ، وإنما هو خاطره الملح قد ملأ قلبه وشغل نفسه ، وملك عليه أمره كله . ولولا بصيص ضئيل من نور العقل كان يضبط أعصابه بعض الضبط ، وينظم حركاته بعض التنظيم ، لما شك الفتى ولا شك صاحبه فى أن عارضاً من الجنون ألمّ به ، فأنساه ماضيه ، وشغله عن مستقبل أمره ، وردّه إلى حال لا يصلح معها التفكير ولا التقدير .

وقد انتهى المسافران ومن كان يتبعهما من الغلمان ، حين تقدّم الليل ، إلى حصن ضخم شاهق من هذه الحصون التى كانت تنبثّ فى الصحراء بين الشام والعراق ، والتى كان يقيم فيها الجند حرّاساً للحدود محافظين عليها ، وكان يأوى إليها السفرُ الذين يضطرون إلى عبور الصحراء .

انتهى الرفيقان وأتباعهما إلى هذا الحصن حين كاد الليل ينتصف ، فلم تفتحْ لهم أبوابه ، ولم يحاولوا استفتاحها ، وإنما أجمعوا أمرهم أن ينفقوا بقية الليل فى ظله ، حتى إذا أسفر الصبح ألموا به ، فأصلحوا من شأنهم ، وتزودوا لمرحلتهم ، ثم أستأنفوا سفرهم البعيد . وما هى إلا ساعة حتى اندمجت هذه الجماعة الضئيلة فى هذا الهدوء الشامل

من حولها ، فأصبحت جزءاً منه ، لا تحس نفسها ، ولا يحسها أحد .

وكان الفتى قد طمع فى أن ما تكلّف من جهد السفر وما احتمل من مشقته ، سيدفعه إلى النوم الهادىء المريح ، فينسى فكرته اللازمة ، ويُصرَف عن خاطره الملح ، ويسترد ما أضاع من قوة ، ويجدد مافقد من نشاط . ولم يكذب النوم أمله ولم يُخلف ظنه ، وإنما أسرع إليه فأظله بجناحيه ، وأفاض عليه شيئاً من هذا السكون الذى يجد فيه الجسم راحة ، وتجد النفس فيه براءة من أوضار الحياة ، وتخفيفاً من أثقالها . ولكن الفتى يفيق بعد ساعة ويفتح عينيه فإذا ظلمة الليل ما زالت جاثمة على الصحراء ، وإذا أشعة ضئيلة تضطرب فى هذه الظلمة فلا تستطيع أن تجلوها ولا أن ترقق من كثافتها . ويستجمع الفتى نفسه المشرّدة ، وخواطره المتفرقة ، فإذا ثاب إليه رشده نظر من حوله كأنما يبحث عن شىء لا يجده ، وقد كان فى حقيقة الأمر يبحث عن مصدر صوت سمعه حين أفاق ، ولعله هو الذى أيقظه . والفتى لا يشك فى أنه لم يسمعه فى الحلم ، وإنما سمعه فى اليقظة ، أو سمعه بين اليقظة والنوم .

وكان هذا الصوت غليظاً خشناً ، وكان مع ذلك هادئاً تشيع فيه السخرية ، وكان يقول : « عجبت للذين يريدون ولا يفعلون ، ويعزمون ولا يتممون ، ويقصدون إلى العراق وهمّهم فى الحجاز ، ويرحلون إلى « نسطور » وشفاؤهم عند الصبىّ العربى اليتيم » .

على أن الفتى لم يلبث أن عرف نفسه وأنكرها معاً : عرف نفسه وفكرته اللازمة له وخاطره الملح عليه ، وأنكر نفسه هذه المضطربة التى

عجز النوم عن أن يقهرها ، فإذا هى تفكر نائمة كما كانت تفكر يقظى ، وإذا هى تردّد فى الحلم وفى جنح الليل ما كانت تردّده حين كانت مستيقظة فى ضوء النهار . ويعود الفتى إلى مضجعه وقد جمع إليه إرادته كلها وعزمه كله ، وأنفق جهداً غير قليل ليردّ عن نفسه هذا الخاطر الملح ، ودعا النوم كأشد ما يكون دعاء للنوم . ولكن النوم كان قد نأى عنه ، ولكن الصوت كان لا يزال يصل إلى سمعه ، يأتيه من خارج ، يأتيه من هذا الجو المحيط به ، لا من دخيلة النفس ولا من أعماق الضمير . فلا يشك الفتى فى أن إنساناً يناجيه ويغريه ، فيسأل : « من المتكلم ؟ » ولكنه يسمع صوت نفسه فيرتاع ، وقد كان يسمع ذلك الصوت الغريب فلا يحس خوفاً ولا روعاً .

هنالك ينهض الفتى من مضجعه ، ويمشى أمامه خطوات ، ثم يتحوّل فيمشى خطوات أخرى عن يمين ، ثم يتحول فيمشى خطوات إلى شمال ، فلا يرى أحداً ، ولا يحس شيئاً ! فيعود إلى مكانه قلقاً بعض الشيء ، مستشعراً بعض الخوف . ولكنه لا يكاد يستقر حتى يبلغه صوت آخر يأتيه من بعيد ، فيه عذوبة ورقة وحنان ، ولكنه يسمعه ولا يفهم عنه شيئاً . فينهض مرة أخرى ، ويمضى شطر الوجه الذى يأتيه منه الصوت ، وما يزال يسعى خائفاً يترقب ، حتى يخيل إليه أنه يرى شخصاً ماثلا ، فيدنو منه فى بعض الحذر والرفق ، حتى إذا كان منه غير بعيد تبينه فإذا هو رفيقه الراهب بحيرى قائماً يصلى وقد رفع وجهه إلى السماء ، وهو يتمتم فى لغته السريانية التى يسمع لها الفتى فلا يفهمها . وما كان أشدّ حاجة الشاب إلى

أن يدنو من صاحبه ، فيمس كتفه ، ويدعوه إلى معونته ، ويتحدث إليه بأمر هذا الصوت الذى سمعه ! ولكنه ينظر إلى رفيقه فإذا هو غارق فى صلاته ، لا يحس مكانه منه ، ولا يحس شيئاً من حوله ، ولعله لا يحس نفسه أيضاً . فيكره الفتى أن يصرفه عن هذه الصلاة ، وأن يُخرجه من هذه الحال التى يود لو أتيح له شىء مثلها أو قريب منها . ويعود أدراجه ويستقر فى مكانه ، ويدعو النوم كأشد ما يستطيع له دعاء ، وينفق جهداً عنيفاً ليذود عن نفسه كل خاطر . وها هو ذا قد أخذ يستريح ، ويحس هذا الفتور الذى يشيع فى أعضائه كأنه يبشره بمقدم النعاس ، فيستسلم له ، ويود لو استطاع أن ينغمس فيه انغماساً .

ولكنه يسمع الصوت الغليظ الخشن ، الهادئ الساخر ، يعيد جملته تلك : « عجبت للذين يريدون ولا يفعلون ، ويعزمون ولا يتممون ، ويقصدون إلى العراق وهمهم فى الحجاز ، ويرحلون إلى "نسطور" وشفاؤهم عند الصبى العربى اليتيم » .

هنالك يستوى فى مجلسه وقد امتلأ رعباً ، وكظم صيحة عنيفة كادت تسبقه إلى الهواء ، فتنبه النائمين من أتباعه وتلفت إليه هذا الراهب المستغرق فى الصلاة . ولكن فضلا من حياء أمسك عليه نفسه وردّه إلى بعض الروية والأناة ؛ فقد جعل يسائل : ما هذا الصوت ؟ ومن أين يأتينى ؟ إن كنت قد سمعته حالماً أول الأمر فلست بالحالم الآن . ثم يمتلئ قلب الفتى أمناً ودعة واطمئناناً ، وإذا هو يرى فى نفسه ما لم يكن يقدّر ، ويطمئن إلى ما لم يكن يطمئن إليه ، ويستيقن أن هذا

الصوت لم يبلغه إلا لأمر يراد .

لا ينبغي إذًا أن يمضي في طريقه إلى العراق ، ولا أن يصمم على رحلته إلى « نسطور » ! فإن الله لا يريد له ذلك ولا يعينه عليه . ولا بدّ من أن يعود أدراجه حتى يبلغ الدير ، فيفضي بأمره كله إلى صديقه الشيخ ، ويتزوّد عنده بشيء من هذه الراحة التي يعرف كيف يشيعها في ضميره ، وهذا اليقين الذي يعرف كيف يملأ به قلبه . وها هو ذا ينهض ، وها هو ذا يمضي أمامه حتى يبلغ رفيقه الراهب ، فيراه ما زال ماثلا يتمتم في لغته السريانية وقد رفع وجهه إلى السماء لا يحس شيئاً ، ولعله لا يحس نفسه . فينظر الفتى إليه ويطيل النظر ، وكأنه يريد أن يؤذنه بانصرافه عنه وتحوله إلى الدير . ولكن الراهب مستغرق في صلاته ، فما إخراجه منها وما صرْفه عنها ! وهذا الفتى يتحول عن صاحبه مسرعاً ، ويمضي أمامه لا يلوي على شيء وما هي إلا لحظات تمضي حتى يصير الفتى سرًّا مكتوماً في هذا الضمير الغامض الذي يأتلف من ظلمة الليل وامتداد الصحراء .

١٢

ثم ينبلج الصبح عنه ، فإذا هو كامل القوة ، موفور النشاط ، باسم الثغر ، مبسوط الأسارير ، لا يظهر عليه الإعياء ، وإن كان قد تكلّف مشقة سفر متصل لم يسترح من جهده إلا هذه الساعات القليلة التى كانت إلى التعب أقرب منها إلى الراحة ، وإلى الخوف المضنى أدنى منها إلى الأمن والهدوء . وإنما يظهر على وجهه شىء آخر يصوّر نفساً راضية ، وقلباً مطمئناً ، وينم ّ بأن الفتى قد برئ من هذا القلق الذى كان يساوره ويفسد عليه أمره . ولا غرابة فى ذلك ! فقد كان يريد أن يرى وأن يشهد . أو ليس قد رأى وشهد ! إنه لم ير شخصاً ماثلا يصدر إليه هذا الصوت الذى ردّه عن العراق وحوّله إلى الدير ، ولكنه قد سمع هذا الصوت ، سمعه غير مرة ، وسمعه يأتيه من خارج نفسه ، لا من دخيلتها ولا من أعماقها ، فما ينبغى لعقله أن يشك ، وما ينبغى لبصيرته أن ترتاب ، وما ينبغى لعزمه أن ينثنى عما صمم عليه . إنه مأمور بالقصد إلى الحجاز ؛ فليقصدنّ إلى الحجاز بعد أن يستقر حيناً فى الدير ، ويتزود من صديقه الشيخ ببعض اليقين .

وهو يمضى أمامه يغمره ضوء الصبح المشرق ، ويُنعشه نسيمه البارد ؛ ويشيع النشاط فى جسمه ونفسه لذة غريبة يذوقها ولكنه لا يستطيع تصويرها ولا يحسن وصفها إن حاول هذا الوصف . والغريب

من أمره أنه كان يمضى أمامه دون أن يسأل نفسه : أماض هو فى طريقه إلى الدير أم هائم هو فى غير طريق ؟

وما شكه فى استقامة الطريق له واعتدالها أمامه ، وهو قد سلكها أمس ، وهو لا يسلكها اليوم إلا مأموراً ؛ فإن الذى أمره أن يعود أدراجه يهديه سبيله إلى العودة ، ما يتطرق إليه فى ذلك شك ولا ريب. فليمض أمامه ، وليمض لا ملوياً على شىء ولا حافلا بشىء ، وليبعد الخُطى فإن الأمد بعيد ! وما ينبغى أن يدركه الليل مرة أخرى قبل أن يبلغ مامنه وينتهى إلى غايته .

ومن الحق أنه لم يسلك هذه الطريق أمس راجلا ، وإنما كانت تخبّ به الركاب . ومن الحق أيضاً أنه لم يكن دليل نفسه أمس ، وأنه لم يعرف معالم الطريق ولم يثبتها ! فهو خليق أن يخطئ القصد ، وأن يجور عن السبيل . ولكن هذه الخواطر لا تلمّ به ولا تعرض له ، فهو مشغول بما يملأ قلبه من أمن ، وما يغمر نفسه من اطمئنان . وهو مشغول بهذه الثقة التى أراحت عقله ، واضطرته إلى الدعة والهدوء ، وجرّدته من ذلك السلاح الخطر الذى كان يناضل به فى ذلك الصراع الأليم .

لقد كان يريد أن يرى ، فقد رأى . ولقد كان يريد أن يشهد ، فقد شهد . وما من شك فى أن الأيام ستتكشف له عن معجزات أخرى أعظم خطراً ، وأعمق أثراً ، وأنبه شأناً من هذه المعجزة التى أسرّها الليل إليه ، ومن تلك المعجزات التى قصها الرهبان عليه . فليمض أمامه واثقاً ! فقد انجلت عنه الغمرة ، وآذنت محنته بالزوال .

ومن الحق أنه لم يمض فى الصحراء أمس وحيداً ولا صفر اليد ، وإنما كان له رفيق يأنس به ويستريح إليه ، وأتباع يعينونه على بعض الأمر ويُصلحون له من الشؤون ما لم يتعوّد أن يصلح لنفسه، ويحملون له من الزاد والمئونة ما يقيم أوده ، ويعصمه من الظمأ والجوع . وهو الآن يمضى فى الصحراء وحيداً لا رفيق له ولا تبع ، ولا مئونة معه ولا زاد . ولكن هذا الخاطر لم يلمّ به ولم يعرض له ؛ لأن قلبه مشغول عن هذه الصغائر بما يملؤه من عظائم الأمور . وآية ذلك أن الضحى قد ارتفع ، وأن الشمس قد أوشكت أن تزول ، وأنه على ذلك يمضى فى طريقه آمناً هادئاً ، لا يحس ألماً ولا تعباً ، ولا يدعوه جسمه إلى طعام أو شراب ، ولا يجد حاجة إلى شىء إلا إلى أن تبعدَ خطاه ، وأن يدفعه نشاطه حتى يبلغ مأمنه ، وينتهى إلى غايته ، ويلقى صديقه الشيخ ، قبل أن تجنه ظلمة الليل .

وما من شك فى أنه سيبلغ من ذلك ما يريد . وما من شك فى أن هذا الصوت الذى أزعجه من مضجعه لم يُرِدْ به إلا خيراً ، وهو خليق أن يُبلغه مأمنه قبل أن يدركه الجهد أو يمسه الضر .

وكذلك مضى الفتى أمامه واثقاً لا يعرف القلق ولا الشك إلى نفسه سبيلا ، سعيداً بهذا الأمن الذى فارقه منذ عهد بعيد ، والذى عاد إليه الآن يؤنسه فى وحدته ، ويذود عنه وحشة الصحراء .

لن يسمع إذا جنه الليل ذلك الصوت الغليظ الخشن يردد فى هدوئه الساخر تلك الجملة اللاذعة . لقد أراد ففعل . ولقد عزم فتمم . وأى دليل على ذلك أصرح وأوضح من هذه الخُطى البعيدة التى تقطع

الصحراء دون أن يجد لها كلالا أو يدركه منها سأم ! كلا ! لئن سمع صوتاً فى هذه الليلة المقبلة ليسمعنّ صوتاً حلواً عذباً مشجعاً ، يملؤه ثقة ويدفعه إلى المضىّ والإقدام . وقد أخذت حرارة الشمس تخف بعد شدّتها ، وأخذ وجه النهار يدركه الشحوب ، وأخذت الظلمة بعد حين تنتشر على الصحراء كأنها السيل المندفع لا يذر شيئاً أتى عليه إلا غمره واكتسحه اكتساحاً ، ولم يبلغ الفتى مأمنه ، ولم ينته إلى غايته ، ولم يعرف شيئاً من هذه المعالم التى تقوم غير بعيد من الدير .

ولكن لا بأس ؛ فإنه يسعى راجلا ، وقد كانت تخبّ به الركاب أمس . وأكبر الظن أنه إذا مضى فى طريقه وباعد بين خطاه ، واحتفظ بهذا النشاط الذى لم يفارقه طول النهار فسيبلغ الدير حين يتقدم الليل . وأكبر الظن أنه لن تمضى ساعات حتى يرى هذه المعالم ، ويتبين هذه الأضواء الضئيلة المضطربة التى تخفق فى ظلمة الليل وتمضى إلى بعيد كأنها تدعو إلى الدير أمثاله هؤلاء الذين أضْنتهم الصحراء وأعياهم السفر البعيد .

والفتى يمضى وظلمات الليل تتكاثف ويركب بعضها بعضاً ، وهذه الأشعة الضئيلة التى تنحدر من السماء تحاول أن تشق هذه الظلمات فلا تكاد تبلغ من ذلك شيئاً . ومع أن كل شىء قد كان صامتاً من حول الفتى فى تلك الصحراء الموحشة أثناء النهار ، فقد يخيل إليه أن اللغط من حوله قد أخذ يظهر شيئاً فشيئاً ، قد أخذ يظهر قليلا ضئيلا كأنه قطعٌ صغيرة متفرقة تحملها الريح ، ثم يشتد ويتدانى قليلا قليلا ، ثم يتلاصق وينعقد ويأخذه من كل مكان ، وإذا هو يسمع أصواتاً

مشتبكة تأتيه من كل وجه : تأتيه من أمام إذا مضى إلى أمام ، وتأتيه من وراء إذا وقف متفكراً مستخبراً ، وتأتيه من يمين وشمال ، ولو صدّق نفسه وآمن لخياله لاعتقد أن هذه الأصوات تنجم له من الأرض ، وتهبط عليه من السماء ، وهى على كل حال تغمره من جميع أقطاره وتكاد تُغرقه . ولكنه لم يفقد رشده ، ولم يضلّ صوابه ؛ فهو يشهد هذا كله شاعراً به ، محققاً له ، مفكراً فيه . ثم لا يلبث أن يردّه إلى أصله ويضيفه إلى مصدره . فهو قد سافر يوماً كاملا لم يذق فيه من الراحة إلا ما لا يُغنى ، ثم هو قد استأنف السفر يوماً كاملا لم يذق فيه طعاماً ولا شراباً ، ولم يأخذ فيه من الراحة بقليل ولا كثير . وهذا الليل قد تقدّم وهو ما زال ماضياً أمامه ، ولعله يحس تقارب الخطى وشيئاً من الكلال قد أخذ يتمشى فى أطرافه . فهذا الإعياء من غير شك هو أصل هذا اللغط ومصدر هذه الأصوات التى تأخذه من كل وجه . وويل للنفوس القوية من الأجسام الضعيفة ! إن نفسه لكاملة القوة ، مجتمعة النشاط ، قادرة كل القدرة ، وحريصة أشد الحرص على أن تمضى حتى تبلغ الدير . ولكن هذا الجسم الضعيف قد أخذ يفتر ويتهالك ، ويعجز عن مجاراة هذه النفس القارحة . فليت الله لم يبتل النفوس بالأجسام ! وليته أتاح لهذه النفوس حياة مجردة من المادة ، مطهرة من هذه الأدناس والأوضار ! ولكن الأصوات تلغط ويتكاثف لغطها فى سمع الفتى كما تتكاثف ظلمة الليل أمام عينيه . ولكن جسم الفتى يفتر ويفتر ، ويثقل ويشتد ثقله حتى تعجز نفس الفتى عن حمله ، وتودّ لو تخرج منه فتلمّ بالدير ثم

تطير إلى الحجاز حيث الصبىّ العربى اليتيم .

ولكن خُطى الفتى تقرُب وتقرُب ، وإذا هو يحس أنه يتحرك دون أن يتقدّم ، وينظر فإذا هو قائم مكانه قد فارقه قوته وفارقه نشاطه ، وأحس حاجة إلى الراحة لا يستطيع لها مقاومة ، ولا يجد منها بدًّا .

الراحة ! ولكن كيف السبيل إليها ؟ ! وأين يبتغيها وهو فى هذا المكان الموحش الذى لا يعرف له أولا ولا آخراً ! أما أمس فقد استطاع أن يطلب الراحة مع أصحابه فى ظل ذلك الحصن الضخم الشاهق فى السماء . وقد كان يظن أنه سيطلب الراحة من ليلته فى ذلك الدير الذى لا ينبغى أن يكون بعيداً ، لولا ضعف هذا الجسم النحيف الذى يقعد به وليس بينه وبين الغاية إلا أمد قريب .

ومع ذلك فويل للذين يريدون ولا يفعلون ! وويل للذين يعزمون ولا يتممون ! وهو قد أراد ولا بد من أن يفعل . وقد عزم ولا بدّ من أن يتم ما عزم عليه . ومن الحق أن جسمه لا يعينه ، وأن خطواته لا تطاوعه . ولكن لا بأس ! فليرفه عن هذا الجسم شيئاً ، وليمنحه من الراحة نصيباً ، وليجلس هنا فى هذا المكان الموحش الذى لا يعرف له حدًّا . ولكن ليحتفظ بقوته ويقظته ، وليدفع النوم عن نفسه دفعاً ، حتى إذا استراح الجسم ساعة أو بعض ساعة ، أنهضه وكلفه السعى حتى يبلغ المأمن ، وينتهى إلى الغاية ، ويصل إلى الدير .

وخيِّل إلى الفتى أنه جلس ، وإن كان الحق أنه خرّ من أقطاره صريعاً . وظن الفتى أنه محتفظ بقوة نفسه ، ويقظة ضميره وذكاء قلبه ، ونشاطه كله ، وأنه سينهض بعد حين فيمضى إلى غايته . وقد

همّ أن ينهض بعد حين . ولكن ماذا ! إنه ليحاول النهوض فلا يجد إليه سبيلا . وإنه ليحاول أن يحرك بعض أطرافه فلا يجد إلى ذلك سبيلا . وإنه ليسمع ذلك اللغط الذى كان يسمعه منذ لحظة ولكنه يتميزه الآن بعض الشىء ؛ فهو ليس صوتاً منعقداً كثيفاً ، ولكنه أصوات متفرقة ، تتنادى وتتجاوب كأنها أصوات قوم يتحدّثون . ثم يحاول أن يفتح عينيه فلا يجد إلى ذلك سبيلا . أين هو ؟ ما خطبه ؟ ماذا ألمّ به ؟ إنه ليجد ثقلا فى أطرافه ، وعجزاً عن الحركة ، وعجزاً حتى عن أن يفتح عينيه . وإن عقله مع ذلك لحاضر يقظ ، ولكنه يحس كأنه يتحرك على غير إرادة ، أو كأنه محمول على شىء يمضى به دون أن يتحققه أو يعرف ما هو .

ثم تنجلى عن الفتى ظلمات نفسه شيئاً فشيئاً ، وتثوب إليه خواطره قليلا قليلا ، ويحضره عقله ورشده حقًّا ، ويمتلئ قلبه بالحقيقة الواقعة التى تملؤه رعباً وجزعاً ، وإذا هو يصيح صيحة منكرة ، صيحة المستغيث الواله ، فلا يجد لصيحته صدى ، ولا يسمع لها جواباً ، ولكنه يحس كأنه محمول على شىء يمضى به مسرعاً ، وهذه الأصوات تدفعه دفعاً وتحثه حثًّا عنيفاً . ليس من شك فى أنه أسير ، قد أسره بعض الناس ، أو أسره بعض الجن التى كانت تلغط فى الصحراء . لشدّ ما ودّ لو استطاع أن يفتح عينيه وينظر من حوله . فليس من شك فى أن الذين أسروه قد عصبوه . وهو يستغيث ويلح فى الاستغاثة ، ويئن ويلح فى الأنين ، فلا يسمع إلا أصواتاً تتضاحك ، وقوماً يتنادون ، وحثًّا لهذه المطية التى تحمله .

ثم تمضى ساعة وساعة ، وإذا هو يحمل فيحط على مطيته ، ثم تحل العصابة عن عينيه فينظر فيرى . ويا هول ما يرى ! يرى نفسه طريحاً على الأرض فى ظل خيمة غليظة خشنة ، وقد أحاط به نفر نحاف الأجسام ، سمر الوجوه ، يتطاير من عيونهم الشرر ، ولكنهم مع ذلك يرفقون به ، ويعطفون عليه ، ويحطون عنه الأغلال ، ويردّون إلى يديه حريتهما ، ولكنهم يحتفظون برجليه فى القيد ، ثم يقدّمون إليه فى سخرية رفيقة شيئاً غليظاً من طعام وشراب .

١٣

وقد أحس الفتى بعد هذه الساعة الأليمة أن هزيمة العقل وفلسفته قد كانت منكرة حقًّا أمام طبيعة الجسم وغرائزه . فلم يكد يرى ما قدّم إليه من طعام وشراب حتى أقبل عليه فى نهم لم يألفه ، فازدرده ازدراداً ، لم يصدّه عنه غلظه وجفوته ، ولم يصرفه عنه بعدُ ما بينه وبين ما كان قد ألف من لين الطعام ورقيق الشراب . بل لم يصرفه عنه ما كان يجد من ذل الإسار بعد عزّ الحرية ، ومن خيبة الأمل بعد تلك الأمانى العراض التى ملأت حياته حين كان فى المدينة يلهو ويعبث مع صديقيه ، وحين كان فى الدير ينتظر ما سيتكشف عنه الغيب له ولصديقه الشيخ من الآيات الكبار ، وحين تحوّل عن رفيقه «بحيرى» ومضى عائداً أدراجه مذعناً لذلك الصوت الغليظ الخشن الذى سخر منه فى هدوء . كل ذلك لم يخطر له ، ولم يثر فى نفسه غيظاً ولا حنقاً ، ولم يغره بامتناع ولا إباء حين قدّم إليه الطعام والشراب ، وإنما استعرضه وفكر فيه ، وذاق مرارته واحترق بلوعته بعد أن شفى ألم الجوع والظمأ ، وبعد أن استرد جسمه قوته ونشاطه . ولو أننا اطلعنا على دخيلة نفسه حينئذ لرأيناه خجلا مستخذياً ، ووجلا محزوناً ، ويائساً من هذا العقل الذى كان يؤمن به ويذعن له ، ويرى أنه أقوى ما ركب فى الإنسان من غريزة ، وأعز ما منح للإنسان من سلطان . وها هو ذا الآن يراه ذليلا منكسراً ، لا يقدر على مقاومة ،

ولا يثبت لمناضلة ، ولا يمتنع على غرائز هذا الجسم الضعيف الذى كان يحقره ويزدريه . على أن الفرصة قد أتيحت لكلكراتيس ففكر على مهل ، وروّى فى أناة ، وقلب أمره على وجوهه كلها ، وتذوّق مرارة حاله الجديدة حتى استقصى أدق ما فيها من ألم ، وأخص ما فيها من ندم ؛ فهو لم يكد يفرغ من طعامه وشرابه ويشعر أن جسمه قد استرد شيئاً من راحته وهدوئه حتى كان القوم من حوله قد أصابوا شيئاً من طعام وشراب ، واستردوا حظًّا من قوة ونشاط ، وإذا هم يتنادَوْن ويتناجوْن وتختلف بينهم الألفاظ والألحان والإشارات ، وهو يرى ويسمع ولا يفهم شيئاً . ثم يقبلون إليه فيردون يديه إلى الغلّ وعينيه إلى الظلمة ، ويحملونه حيث يشدّونه على مطيته تلك التى كان يحسها منذ حين تسرع به فى السير إسراعاً رفيقاً .

هو إذاً لم ينزل حيث نزل ليقيم ويستقر ؛ وإنما ألمّ بمكان من الصحراء ليستريح وليستريح هؤلاء الذين أسروه وعدَوْا عليه . وهو إذاً لم يبلغ مأمنه ، ولم ينته إلى غايته بعد . ولكن ما ذلك المأمن ؟ وما هذه الغاية ؟ وماذا يريد به هؤلاء القوم ؟ وإلى أين يحملونه ؟ ولماذا يهينونه ؟ لقد رآهم يتحدثون باللفظ واللحظ فلم يفهم عنهم ، وهو الآن يسمعهم يتناجون فى أصوات ترتفع وتنخفض وتتشكل أشكالا مختلفة بين ذلك ، فلا يفهم عنهم شيئاً . وهو يسأل نفسه : كيف انتهى إليهم وكيف انتهوا إليه ؟ فلا يجد لهذا السؤال جواباً . وإنما يذكر تلك الساعة الأليمة التى رأى نفسه فيها قائماً فى الصحراء ولا يستطيع أن يتقدّم ولا أن يتأخر ، وقد اكتنفته ظلمة الليل القاتمة ، وغمره

لغط تلك الأصوات المنكرة التى لا تبين . ثم لا يذكر بعد ذلك كيف انتهى إليهم وكيف انتهوا إليه . ماذا كان ذلك الصوت الغليظ الخشن الذى عجب منه وهزئ به ، وأغراه بالتحول عن العراق إلى الحجاز ، وبالرغبة عن نسطور إلى الصبىّ العربى اليتيم ؟ أكان صوتاً قد صدر عن ناصح له ، رفيق به عاطف عليه ، أم كان صوتاً صدر عن ساخر منه ، عابث به مضمر له الكيد والغرور ؟ ثم يذكر الفتى حديث رفيقه بحيرَى ، وما زعم له من حاجته إلى التجارب والخطوب ، ليرتد عقله عن الكبرياء إلى التواضع ، وعن الغرور إلى الاعتدال . وترتسم على ثغره ابتسامة حزينة أليمة حقّاً . لقد كانت أبواب السماء مفتحة حين تحدّث إليه رفيقه عن التجارب والخطوب . فما أسرع ما سلطت عليه التجارب وأغريت به الخطوب ! لقد كانت هذه التجارب والخطوب مسايرة له ولرفيقه فى الصحراء ، تريد أن تدنو منهما فلا تستطيع ؛ لأن مكان هذا الراهب الكريم كان يمنعها من الدنو ، فما هى إلا أن تحتال حتى تستدرج هذا الفتى وتبعده عن رفيقه الذى وقاه الله شر التجارب والخطوب . فما يكاد يبعد عنه حتى تنساب إليه من كل سبيل . لقد خلص لها وفرغت له فلتذقه مرارتها خالصة ، ولتصبّ عليه آلامها ممضة لاذعة ، ولترد عقله إلى التواضع ، ولتباعد بينه وبين الكبرياء والغرور .

ثم يخيّل إلى الفتى كأن عقله قد وقف عن التفكير ، وكأن قلبه قد عجز عن الشعور حيناً ، وكأنه فى شىء يشبه النوم وليس بالنوم ، وكأنه يسمع ذلك الصوت الغليظ الخشن وهو يبعث فى الفضاء قهقهة عالية ملؤها السخرية والاستهزاء ؛ فيعود الفتى إلى شعوره الأليم ،

وتفكيره العقيم ، وإذا هو يسأل نفسه مرة أخرى عن هذا الصوت : ما هو ؟ وما عسى أن يكون ؟ وترتسم على ثغره ابتسامة أخرى فيها سخرية مرّة ، واستهزاء حزين . فهو يسأل نفسه : ألا يمكن أن يكون هذا الصوت الذى أغراه بالعودة وورّطه فى هذه الكريهة ، صوت إله من هؤلاء الآلهة القدماء الذين كان يعبدهم ويُقبل عليهم فى المدينة مع صاحبيه ، ثم لم يلبث أن شك فيهم ، وتنكر لهم وأعرض عنهم واستجاب لصديقه الشيخ ، وجعل يبحث عن إله جديد دون أن يبلغه أو يهتدى إليه ، فأضاع نفسه بين قديم كان يعرفه ، وجديد لا يألفه ! لقد أعرض عن عبادة « ديونوزوس » وأصحابه منذ عهد بعيد . ألا يمكن أن يكون « ديونوزوس » قد أرسل إليه بعض أتباعه ليسخر منه ويعبث به ، ويردّه آخر الأمر إلى دينه القديم ؟

ولكن الابتسامة الحزينة الساخرة التى كانت ترتسم على ثغر الفتى تتسع شيئاً فشيئاً ! وإذا شفتاه تنفرجان عن ضحك عال وقهقهة تملأ الفضاء . ولو أتيح له أن يرى لرأى هؤلاء النفر من حوله وقد ارتسم عليها شىء من العجب لهذا الأسير الغريب الذى تختلف على وجهه الابتسامات وتنفرج شفتاه عن الضحك المرتفع البعيد .

ولكن الفتى مشغول عما حوله وعمن حوله ، ساخر من كل شىء ومن كل إنسان ، وساخر من نفسه قبل كل شىء وقبل كل إنسان ، وساخر بنوع خاص من هذا الخاطر السخيف الذى عرض له ، ومن هؤلاء الآلهة القدماء الذين أخذ يفكر فيهم والذين لم يخلص لهم الدين فى يوم من الأيام ؛ ولن يُخلص لهم الدين فى يوم من الأيام ؛ لأنهم

لم يستطيعوا قط أن يبلغوا عقله أو قلبه .

هو ساخر من كل هذا ، وهو ممعن فى لون آخر من ألوان التفكير يملأ نفسه حزناً إلى حزن ، ويفعم قلبه ألماً إلى ألم ، ويضيف فى نفسه ذلة إلى ذلة وانكساراً إلى انكسار . لقد ضاق بقيصر وبغى قيصر ، حين كان آمناً فى المدينة ، وادعاً بين صديقيه ، مستمتعاً بالثروة الواسعة والجاه العريض ، مهيأ لأن يضيف إليهما بسطة الملك وضخامة السلطان . لقد أنف من قيصر وبغى قيصر ، وكره أن يدخل قيصر بينه وبين ضميره ، وأزمع الهجرة عن أرض قيصر ، تلك التى يُستذل فيها الناس وتُحمل فيها الرعية على ما لا تُحب ، إلى أرض أخرى يصبح فيها ملكاً لنفسه ، لا يتحكم فيه أحد ولا يبغى عليه سلطان . لقد هاجر من أرض الذلة والهوان إلى أرض العزّة والكرامة . لقد أصبح ملكاً لنفسه ، ولكنه ملك لا يستطيع أن يفتح عينيه ، ولا أن يحرّك يديه ، ولا أن ينهض على قدميه . ملك عانٍ ذليل مُوثَق ، قد شدّ إلى مطية تسرع به إلى حيث لا يريد بل إلى حيث لا يعلم ، وهو لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، بل هو عاجز كل العجز عن أن يفهم من هؤلاء القوم الذين يطوفون به ويسعون من حوله ، إلى أين يذهبون به وماذا يهيئون له ؟

ليسخط الآن على ظلم قيصر وبغيه ، وليحمل الآن عاقبة تفكيره فى الهجرة وامتناعه عن سلطان قومه وقوانين وطنه ؛ فقد بلغ من ذلك ما كان يريد وأكثر مما كان يريد . ثم تعود إلى الفتى خواطره التى كانت تملأ رأسه آنفاً ، فيذكر حديث رفيقه الراهب عن التجارب

والخطوب ، وأثرها فى ردّ العقل إلى التواضع والاعتدال، وصَرفه عن الكبرياء والغرور . ما أصدق هذا الحديث وأدناه إلى الحق ! إن الفتى لمستسلم للقضاء ، مذعن للقدر ، قد وطن نفسه على الصبر ، وأخذها باحتمال المكروه . وهل يستطيع أن يطمع فى غير الصبر ، أو أن يفكر فى النبوّ عن الضيم والامتناع على المكروه ! كلا ! إنما هو أسير عانٍ لا يملك من أمر نفسه شيئاً . وآية ذلك أن المطية تسعى به مسرعة رفيقة إلى حيث لا يعلم ولا يريد ، وأنه قد أخذ يحس الظمأ ويجد ألمه محروقاً لاذعاً ، وهو لا يستطيع أن يشفى هذا الظمأ ؛ لأنه لا يستطيع أن يُفهم هؤلاء النفر من حوله حاجته إلى الشراب . يتكلم فلا يفهمون عنه ، ويريد أن يشير بيده فلا يستطيع ، ويودّ لو يشير بلحظه فلا يستطيع ؛ فقد حيل بين عينيه وبين الضوء . هو يعلم أنه لا يملك إلا الصبر والإذعان ، ولكنه مع ذلك يعالج نفسه على أن يكون صبوراً مذعناً ، حتى لو أتيحت له الحرية وخلى بينه وبين أن يريد وأن ينفذ ما يريد .

وهو يتصور أن هؤلاء النفر الذين ظلموه وبغَوْا عليه قد ثابوا إلى العدل فردّوا إليه حريته ، وحطوا عنه الأغلال ، وفكوا عنه القيود ، وخلوا بينه وبين الأرض الواسعة والفضاء العريض . ثم يعاهد نفسه لئن فعلوا ذلك ليقيمنّ بينهم أسيراً قانعاً بالإسار ، ذليلا راضياً بالذل ، عبداً مخلصاً فى خدمة مواليه ؛ لأن حديث التجارب والخطوب قد وقر فى نفسه واستقر فى أعماق ضميره ، ولأنه قد ضاق بطغيان عقله وكبريائه ، وبما كلفه الطغيان والكبرياء من بطر وأشر ومن جهد وعناء .

وكذلك أنفق كلكراتيس ثلاثة أيام ذليلَ الجسم أسيره ، عزيز النفس طليقها . ينزل به سادته حيث يريدون النزول ، فيحطون عنه الغلّ ، ويردّون إليه الضوء ، ويقدّمون إليه ما يقيم أوده من الطعام والشراب ، ثم يرحلون به متى أرادوا وقد ردوه إلى سواد الظلمة وثقل الأغلال .

وهو عن ذلك راض ، وله مذعن ، وإليه مطمئن ، لا يفكر حتى فى أن يسأل نفسه ماذا يراد به ؟ وإلى أين يقصد به ؟ وما عسى أن ينفعه هذا السؤال ! وما عسى أن يجدى عليه التفكير فيه ! إنما هى محنة لا بدّ من أن يحتملها أراد ذلك أو لم يرده ، وخطبٌ لا بدّ أن يصبر عليه رضى عن ذلك أو كرهه . فالخير فى أن يستقبل المحنة باسماً لها ، وأن يحتمل الخطب راضياً به ؛ فذلك أكرم له من جهة ، وأهون عليه من جهة أخرى ، وأدنى إلى ما أمره به رفيقه من ملابسة التجارب والخطوب ، وإلى ما أوصت به فلسفة القدماء من أن يريد المرء ما هو كائن إذا عجز عن تحقيق ما يريد .

فلما كان اليوم الرابع نزل القوم وأنزلوه ، وحطموا عنه أغلاله ، وردّوا إلى عينيه ضوء النهار ، وأطعموه وسقوه . وانتظر أن تمضى ساعة وبعض ساعة ، وأن يعود به القوم إلى الغلّ والظلمة والرحيل . ولكنهم لم يفعلوا ، وإنما تركوه حرّ اليدين والعينين ، وأطلقوا رجليه من القيد شيئاً ، خلّوا بينه وبين بعض الحركة البطيئة الثقيلة ، فى حدود هذه الخيمة الخشنة التى ضُربت عليه ! وجعل أفراد من رجال ونساء يقبلون عليه فينظرون إليه ! فمنهم من يُعجبُ به ، ومنهم من يَعجبُ

له ، ومنهم من يضحك منه ، ومنهم من يُظهر له الرثاء ! وكلهم يُقبل فينظر ثم ينصرف. ويُقبلُ المساء فيقدّم إلى الفتى طعامه الجافى وشرابه الغليظ ، ثم يخلى بينه وبينَ النوم . ويقبل الصباح بعد ليل طويل لم يذق فيه النوم إلا غراراً ، لا لأنه ضيق بحاله ، كاره لمكانه ، بل لأنه لا يقضى العجب من هذه الخطوب التى اختلفت عليه منذ سمع الصوت الغريب الذى تغنته تلك الفتاة الجميلة فى قصر حاكم المدينة .

وقد ألف الفتى حياته هذه فى قيده الثقيل وفى خيمته الخشنة ، بل أخذ يألف الذين يدخلون عليه ويحملون إليه طعامه وشرابه بين حين وحين ؛ بل أخذ يفهم عنهم بعض الحركات والإشارات ، وأخذت نفسه تعى بعض ما يديرون بينهم من الألفاظ . وأخذوا هم يألفون إشاراته وحركاته ، ويجدون شيئاً من الأنس إلى محضره ، ويُشعرونه بذلك بالإشارة واللحظ واللفظ ، ويودّون لو استطاعوا أن يفهموا عنه أكثر مما يفهمون ، وأن يفهم هو عنهم أكثر مما يفهم .

وتتصل الأيام وتتبعها الليالى ، والإلف يزداد من حين إلى حين بين الأسير ومواليه . وهؤلاء أطفال الحىّ وصبيانه يختلفون إلى خيمته فيطيلون فيها المقام ، وتتصل بينه وبينهم فنون من اللعب الهادئ والدعابة الحزينة . وما ينقضى شهر حتى يفقد الفتى كل وحشة ، وحتى تطيب نفسه بهذه الحياة ، وحتى يتسرب إلى قلبه شىء من الحب لهؤلاء الصبية الذين يلزمونه ، ولا يكادون يفارقونه إلا حين يفرّقهم عنه الليل .

وقد أخذ الفتى يشعر بأن الرضا عن هذه الحياة الجديدة قد أصبح هيناً عليه ومألوفاً له ، لولا هذا القيد الثقيل الذى يقارب بين خطاه ،

ويحدّ من حركته ، ولولا هذا الحظْر الثقيل الذى يضطره إلى خيمته هذه الضيقة الخشنة ، ولا يكاد يبيح له الاستمتاع بالفضاء الواسع والهواء الطلق إلا قليلا ، ولولا خواطر كانت تلمّ به فتثير فى نفسه آلاماً لاذعة بين حين وحين ، تذكره بمن ترك وراءه فى المدينة من الأهل والصديق ، وبما ترك وراءه فى الدير من حب ذلك الراهب الشيخ ، وبما لا يزال يتمنى فى قوة وعنف من الرحلة يوماً ما إلى الحجاز ، والظفر يوماً ما بلقاء ذلك الصبى العربىّ اليتيم .

ويرتفع الضحى ذات يوم ، والفتى غارق فى الدعابة واللعب مع هؤلاء الصبية الذين ملئوا عليه خيمته ، وإذا ثلاثة نفر من الذين أسروه وحملوه إلى هذا المكان قد أقبلوا ، ففرّقوا الصبية فى بعض العنف ، حتى إذا دخلوا إليه أقبلوا عليه فأنهضوه وأخرجوه من خيمته ، ومضوا به ، حتى إذا بلغوا به مكاناً بعيداً عن الحىّ شيئاً سلوا سيوفهم فأروه بريقها ، وهزّوا رماحهم فأروه اضطرابها ، ونثروا كنائنهم فأروه سهامها الرقيقة الحادة . وكانوا إذا سلوا السيوف أشاروا بها إلى رأسه ، وإذا هزّوا الرماح أداروها إلى صدره ، وإذا نثروا الكنائن أنبضوا قِسيَّهم فأبعدوا بها الرمى ، ثم أشاروا بأيديهم إلى الجهات الأربع من أمامه ومن ورائه وعن يمينه وعن شماله . وقد فهم الفتى عنهم حق الفهم ، وعرف أنهم ينذرونه بالموت إن حاول الهرب ، ويرغبونه فى الحياة المطلقة من القيود والأغلال إن أذعن لهذا الرقّ الذى فرض عليه . وما كان الفتى الفيلسوف فى حاجة إلى هذا النذير ! فقد عاهد نفسه منذ حين على الصبر والإذعان ، والرضا بحكم الإسار . ولكنه أظهر لهم

بالإشارة واللحظ ما أرادوا من طاعة واستكانة ، فردّوه إلى خيمته وتركوه فيها لحظة ، ثم عادوا إليه فخلصوه من القيد ، وخلوا بينه وبين الضوء والهواء ، وألبسوه ثياب الرقيق .

١٤

والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبتَها   وإذا تُرَدّ إلى قليل تقنعُ

وقد كانت نفس كلكراتيس راغبة فى كثير ، فأصبحت الآن قانعة بالقليل الذى رُدّتْ إليه ، بل بأقل من هذا القليل . وأين أيامه هذه التى ينفقها فى حىّ من أحياء كلب بن وَبْرةَ من أيامه تلك التى كان ينعم بها فى مدينة عظيمة من مدن الروم ؟ ! . . لقد كان سيداً يأمر فى قصره الفخم ، وأرضه الواسعة ، وغلمانه الذين لم يكن يُحسن أن يحصيهم والذين كانوا يمثلون عنده أجناساً مختلفة من الناس . وكان إذا أظله المساء من كل يوم ارتقى إلى قصر الحاكم فنادمه وشاركه فى مرحه وفرحه . وكان الذين يعرفونه من أهل المدينة لا يشكون فى أن السلطان صائر إليه يوماً ما . وكان مع ذلك غير راض عن نفسه ، ولا قانع بحظه ، ولا مكتف بهذه الحرية التى كان يستمتع بها ؛ وإنما كان يرى نفسه ذليلا مهيناً أسيراً لسلطان قيصر ، وكان يرغب فى أن يخرج من هذه الذلة والهوان إلى عزّة يتصوّرها ولا يستطيع أن يجد لها مثلا . فأين تلك الحياة الحافلة بفنون اللذات وألوان النعيم من هذه الحياة الجديدة المتواضعة ، أو هى أقل من المتواضعة ، والتى يقضيها بين هؤلاء السادة الكرام ، لا ساخراً منها ، ولا ساخطاً عليها ، بل قانعاً بها كل القناعة ، راضياً عنها كل الرضا؟ ! لقد عرف جسمه المترَف غلظ الثياب وخشونتها ، والنوم على الأرض الصّلبة بالعراء ، وعرف

الاستيقاظ فى السحر ، وعرف خدمة الناس بعد أن كان الناس يخدمونه . بل عرف رعى الإبل والشاء والتطويف بألبانها مع الصباح على هؤلاء السادة يسقيهم منها ، ولا يشرب إلا إذا ارتووا وأرضَوْا حاجتهم من الشراب . وعرف ما هو أكثر من ذلك وأشدّ إمعاناً فى هوان الأمر وضعة الحال ، ولكنه مع ذلك لا ينكر شيئاً ، ولا يأسى على شىء . ولعل حياته لا تخلو من بعض الغبطة ؛ فقد رأى حياة جديدة لم يألفها ، وعرف بالمشاهدة أجيالا من الناس لم يكن يحقق من أمرهم شيئاً ، وإنما كان يقرأ عنهم فى الكتب ، ويسمع عنهم فى أحاديث النهار وأسمار الليل . بل هو قد تعلم لغتهم واستطاع أن يتحدّث إليهم ، وأن يسمع منهم ، وأن يبلو أخلاقهم السمحة ، وطباعهم الساذجة ، ونفوسهم النقية ، وقلوبهم الذكية ، فلا يرى من هذا كله إلا ما يسرّه ويرضيه ، وإلا ما يعجبه ويبهره أحياناً . لقد كان سيداً طاعاً يأمر فى عدد ضخم من الغلمان والرقيق ، ولكنه الآن يذكر سيرته فى غلمانه ورقيقه ويوازن بينها وبين سيرة سادته معه وأمرهم فيه ، فيرى فرقاً عظيماً وبوناً بعيداً .

كان سيداً كما يفهم الروم هذه الكلمة ، مستعلياً على غلمانه ، لا يراهم يُشبهونه من قريب أو بعيد ، ولا يكاد يفهم مشاركتهم له فى الحياة ، ولا يرى أنهم أهل ليحفل بهم أو يفكر فيهم أو يُعنى ببعض أمرهم . إنما كان يكل تدبيرهم إلى واحد منهم هو صاحب القصر ، وكان يتخذهم أدوات لثروته وجاهه ، ولذته ونعيمه ، ولم يخطر له قط أنهم خليقون ببعض الرفق ، مستأهلون لبعض الرأفة ، وإنما كان مؤمناً

بأن له عليهم كل الحق ، وليس لهم عليه إلا أن يعيشوا ، وهم لا يعيشون لأن من حقهم العيش ، وإنما يعيشون لأن فى حياتهم له منفعة وأرباً .

وقد كان يدفعهم الجهد الثقيل المضنى إلى بعض الكلال والتقصير ، فلم يكن يُعنى أو لم يكن ينزل إلى إصلاحهم وتأديبهم ؛ لأنهم لم يُخلقوا لإصلاح ولا تأديب ، ولأن التفكير فيهم إضاعة للوقت ، والعناية بهم تبديد للجهد ، والفراغ لهم إهدار للكرامة . فكان يسلط بعضهم على بعض ، ويجعل بأسهم بينهم شديداً ، ويجنى من شقائهم سعادة ، ومن بؤسهم نعيماً ، ومن ألمهم لذة ، ويجنى من موتهم الحياة أحياناً ، ولا يرى فى ذلك إثماً ولا ضيراً ، ولا ينكر من ذلك قليلا ولا كثيراً ؛ لأن ذلك كله كان يتفق مع فلسفته وثقافته التى كانت تقسم الناس إلى فريقين : فريقاً خلقوا للأمر وهم السادة ، وفريقاً خلقوا للطاعة وهم العبيد .

وهو الآن ينظر إلى سيرة سادته معه وأمرهم فيه ، فيرى عجباً . هؤلاء القوم الغلاظ الجفاة ، الذين يحيون حياة خشنة كلها غلظة وشظف ، قد رقت قلوبهم لهؤلاء العبيد ، وعطفت نفوسهم عليهم ، فهم يخلطونهم بأنفسهم فى أكثر ألوان الحياة ، لا يكادون يمتازون منهم فى شىء إلا فى هذه الأمور التى ترضى غرور الرجل البدوى .

هم لا يكلفونهم جهداً إلا وهم يتكلفون مثله ، ولا يحملونهم مشقة إلا وهم يتحمّلون مثلها ، ولا يؤثرون أنفسهم من دونهم بطيبات الحياة ، وإنما يشاركونهم عن طيب نفس وقرة عين فيما يتاح لهم من هذا الرزق اليسير الذى تنبته لهم الأرض حين يبلها الغيث . وهم لا يستمتعون بنعمة طارئة أو لذة عارضة إلا أشركوهم فى بعض ما يستمتعون به . وإذا

استأثروا من دونهم بشيء فإنما يستأثرون بالجهد والمشقة : يستأثرون بالحرب مدافعين ومهاجمين ، مغيرين على العدوّ وذائدين عن الحرُمات . وهم بعدُ لم يتحضروا ولم يتثقفوا ، ولم يبنوا المدن ، ولم يشيِّدوا القصور ، ولم يستمتعوا بألوان اللذة والترف ، ولم يذوقوا علم أرسطاليس وفلسفة أفلاطون ، ولكنهم على فطرتهم الأولى ، أو هم لم يجاوزوا فطرتهم الأولى إلا قليلا .

فكر كلكراتيس فى ذلك تفكيراً متصلا طويلا ، فتغير رأيه فى أشياء كثيرة ، وكوّن لنفسه قيماً أخرى مخالفة لتلك القيم التى كان يقدّر بها الحياة حين كان رومياً متحضراً مترَفاً . وما له لا يفعل وقد أصبح عبداً بدوياً يعيش عيشة الأعراب ؛ فليفكر تفكير الأعراب إن استطاع إلى ذلك سبيلا .

والواقع أنه شارك هؤلاء الأعراب فى كل شىء ، فأخلص لهم الحب ، وأضمر لهم النصح ، واستيقن فيما بينه وبين نفسه أنه واحد منهم ، يسوءه ما يسوءهم ، ويسرّه ما يسرهم ، وإن فراقهم إن أتيح له سيكون عليه عسيراً وإليه بغيضاً . ولعله لو مُهدت له سبل الإفلات من هذا الرق لأبى أن يفارق هؤلاء الناس الذين استرقوه وبغوا عليه . ولمَ يفارقهم وهو لم يفقد عندهم من عزّته وكرامته شيئاً ، وهو لم يستمتع قط بحرية نفسه واسعة مطلقة بعيدة الآماد كما يستمتع بها فى هذا الطور من أطوار حياته ؟ إنه أسير الجسم ، ولكنه حر العقل إلى أبعد مدى . أسير الجسم إلى حدٍّ ما ؛ فقد يكون من العسير عليه أن يحاول الهرب أو الإفلات ، ولكنه حر فيما دون ذلك ، يذهب ويجىء

إلى أى وجه أحبّ ، وعلى أى نحو أراد . وقد وثق به سادته واطمأنوا إليه ؛ فهم يكلون إليه أموالهم ويأمنونه عليها ، ويثقون بتدبيره لها وذياده عنها وعنايته بها . فإساره ظاهر لا يكاد يكون له ظل من الحق . فأما حرية عقله فلم تمس ولم يضيق عليه منذ أقام بين هؤلاء الناس . لم يسألوه قط عن رأيه ، ولم يمتحنوه قط فى دينه ، ولم يراقبوه قط فيما ينكر أو يعرف من الأمر . وقد فكر الفتى فيما يمكن أن يكون لهؤلاء الناس من رأى ودين ، فأعجبه من أمرهم ما رأى وإن كان لم يرضَه لنفسه ، ولم يتخذه لها رأياً وديناً .

لم يرهم قط يعبدون إلهاً أو يتقربون إليه بالطاعة وفنون الضحايا ، وإنما سمعهم يديرون بينهم أسماء آلهة يذكرونها ولا يحققونها ، ويُظهرون الخوف منها والإكبار لها ، ولكنهم لا يبذلون فى إرضائها وتملقها جهداً ما . هم أحرار الأنفس أحرار الضمائر ، كأنما اشتقوا حرية نفوسهم وضمائرهم من حرية هذا الهواء الطلق الذى يتنفسونه ويعيشون فيه .

وهم أحرار الأجسام أيضاً ، لا تقيدهم المدن ولا تحبسهم القصور والدور ، ولكنهم ينزلون ويرحلون متى دعتهم حاجتهم إلى أن ينزلوا أو يرحلوا . حرية مطلقة يستمتع بها الجسم ، وحرية مطلقة تستمتع بها النفس والضمير .

كل ذلك كان يعجب الفتى ويرضيه . وكل ذلك كان يعزّيه عما فقد ، ويسليه عما احتمل ، ويغريه بالإقامة على حب هؤلاء الناس والوفاء لهم . ولكن شيئاً واحداً لم ينسه قط ولم تسلُ عنه نفسه قط ، وإنما كان ذكره له يزداد ، وشوقه إليه يقوى ويشتد ، وتفكيره فيه

يتصل ، ولا سيما إذا جنه الليل وخلا إلى نفسه وأبى أن يأوى إلى خيمته ، أو يطمئن فى مضجعه ، وآثر الجلوس فى العراء مسرّحاً طرفه أمامه يرى حيناً ولا يرى حيناً آخر ، مرسلا نفسه فى هذه الصحراء تهيم فى غير وجه وتذهب فى غير طريق وكان تفكيره فيه يتصل إذا أصبح فطرد الإبل أمامه إلى مراعيها ، ثم انتهى إلى حيث يستطيع أن يخلى بينها وبين ما ترعى من الكلأ والعشب ، ويفرغ هو لنفسه يريد أن يستقصى أخبارها ، ولضميره يريد أن يتعمق أسراره ، وهو هذا المكان البعيد الذى كان يعيش فيه ذلك الصبى العربى اليتيم .

الصبىّ ! كلمة كانت تجرى على لسانه وتتردد فى ضميره ، لأن العادة قد أجرتها على لسانه وردّدتها فى ضميره منذ ذلك اليوم البعيد الذى قضاه مع رفيقه بحيرى فى الصحراء . وكم مضى بعد ذلك اليوم من أيام ! وكم انقضى بعد ذلك اليوم من أشهر وأعوام ! وكم تغير بعد ذلك اليوم من شأن ! وكم حدث بعد ذلك اليوم من أمر ؟ ! لقد كان هو فى ذلك اليوم فتى روميًّا غضّ الشباب ، نضر الجسم ، فارح النفس . لقد أخذ شبابه يتولى عنه ، وأخذ جسمه يفقد نضرته ، وقد أخذ وجهه يتجعد ويربدّ ، وقد أخذ قلبه يهدأ ، وقد أخذت نفسه تحس الفتور . ليس هو الآن فتى روميًّا ، ولكنه عبد كهل قد تقدمت به السن ونيف على الأربعين ، وقد ثقل جسمه ونفسه بعض الشيء ، فهو لا يسرع إذا مشى ، ولكنه يسعى فى رزانة وأناة . وهو لا يسرع إذا تحدث ، ولكنه يتكلم فى ريث ووقار . وهو لا يسرع إذا فكر ، وإنما تخطو نفسه إلى خواطرها وآرائها خطوات متقاربة تسيطر عليها الدعة والهدوء .

ليس هو فتى روميًّا الآن ، ولكنه كهل قد بلغ الشيخوخة أو كاد يبلغها ! فما ينبغى أن يكون ذلك الصبى العربى صبيًّا كما كان حين رآه بحيرى وتحدث عنه بتلك الأعاجيب . لقد مضت الأيام وتبعتها الأيام ، وقد مرت السنون وتبعتها السنون ، ولقد صار هو كهلا ، فيجب أن يكون ذلك الصبى العربى قد صار فتى غض الشباب نضر الجسم ، قارح النفس ، بعيد الهمّ ، ذكىّ القلب ، كريم الخلق ، سَمْح الطبع ، معتدل المزاج .

من لهذا الكهل الرومى الغريب بأنباء ذلك الفتى العربى الذى يقيم فى واد بعيد من أودية الحجاز ؟ ماذا جدّ من أمره ؟ ماذا أحدثت له الأيام ؟ عمّ تكشف الغيب ؟ أتراه قد أنبئ ببعض ما خبئ له وما خبئ للناس على يديه ؟ أتراه قد أظهر أمره أو كاد يظهره ؟ إن هذا الحى من كلب بن وبرة ليضطرب فى جانب من الأرض العريضة ، يذهب فيه ذات اليمين وذات الشمال ، ويذهب فيه إلى أمام وإلى وراء ، ولكنه لا يبعد ولا يدنو من هذه الطرق التى تمر منها القوافل آتية من الحجاز أو عائدة إليه .

وما أكثر الذين ينزلون بهذا الحى من كلب بن وبرة من أفراد الناس وشذّاذ الآفاق ! فيدنو منهم هذا الكهل الرومى ، ويتصل بهم ، ويتوسل إليهم بالوسائل ، ويسألهم عن الحجاز ، فينبئونه عنه بما يعلمون وما لا يعلمون . ويسألهم عن هذا الفتى القرشى ويسميه لهم ، فينكرونه ولا يعرفون من أمره شيئاً ، ولكنهم يثنون على قريش ويُعجبون بمفاخرها ومآثرها ، ويثنون على رهطه الأدنين ويذكرون ما لهم من المآثر والمكرمات ،

ثم ينصرفون إلى غير وجه من هذه الأرض البعيدة العريضة التى لا يعرف الطرف لها مدى ، ولا تنتهى العين منها إلى حد .

مَن لهذا الكهل الرومى بشىء من أنباء السماء ؟ فقد كانت الأحاديث متصلة مستفيضة فى أديار الرهبان وصوامع الأحبار بأن أنباء السماء قريبة . أفتراها قد بلغت إلى الناس ؟ أفتراها تبلغه يوماً من الأيام ؟ أفتراه يستطيع أن يسعى إليها يوماً من الأيام ؟ ما إقامته بين هؤلاء القوم الكرام من كلب بن وبرة فى ناحية من نواحى الصحراء غير بعيد من الشام ، وإن همه لنى واد من أودية الحجاز ، وإن شفاءه لعند فتى من قريش يقال له محمد بن عبد الله ؟ !

ما أكثر ما كانت تخطر هذه الخواطر على كلكراتيس فتملأ نفسه ، وتُفعم قلبه ، وتشيع فيه شوقاً جديداً وحناناً عظيماً، وترسل من عينيه دموعاً غزاراً ، وتصعد من جوفه زفرات تكاد تحرّق قلبه تحريقاً ، وتغريه من حين إلى حين ببعض الأمر ، ولكنه لا يلبث أن يثوب إلى نفسه ، ويثوب إلى رشده ، ويذكر ذلك العهد الذى أشهد الله وضميره عليه حين كان موثقاً إلى تلك المطية التى كانت تسرع به فى الصحراء إسراعاً رفيقاً .

ليصبرنّ على المحنة ، وليثبتنّ للخطب ، وليقيمنّ على الوفاء لظالميه والباغين عليه حتى يبلغ الكتاب أجله ! فإن الله لم يَصُبّ عليه هذه التجارب ، ولم يمتحنه بهذه الخطوب إلا وله فى ذلك أرب وحكمة .

فليصبر على المحنة إذاً ، وليثبتْ للخطب حتى يبلغ الكتاب أجله . ولكن ألم يأنِ للكتاب أن يبلغ أجله بعد ؟ !

١٥

بلى ! قد أنى للكتاب أن يبلغ أجله ، وأن يبلغه فى وقت أقصر جدًّا مما كان يقدّر هذا الكهل الرومى الذى ما نزال نحتفظ له باسمه الرومى القديم كلكراتيس ، وإن كان سادته لا يعرفون له هذا الاسم ، وإن كان هو نفسه قد كاد ينسى هذا الاسم وما يتصل به من الذكرى ، وأصبح لا يذكر إلا اسمه العربى الجديد الذى اشتق من الساعة التى أسر فيها ، وهى مطلع الصبح فسمى « صبيحاً » .

أنى للكتاب أن يبلغ أجله فى وقت أقصر جدًّا مما كان يقدّر صبيح ، وعلى نحو أغرب جدًّا مما كان يقدّر أيضاً . وهل جرى أمر من أموره على نحو ما فكر أو قدّر ! ألم تكن حياته كلها ألواناً من الخطوب يتبع بعضها بعضاً على غير انتظار منه لها ولا ترقب منه لوقوعها؟! من كان يستطيع أن يتكهن له بأنه سيأوى مع صديقه الشيخ إلى الدير ، أو سيرحل مع رفيقه بحيرى إلى العراق ، أو سيقع أسيراً فى أيدى هذا الحى من أحياء العرب ، أو سيقضى أعواماً طوالا لا يسمع فيها صوتاً روميًّا ، ولا يتحدث فيها إلى رجل رومى ، ولا يقرأ فيها كتاباً من كتب الروم ، ولا يحاور فيها راهباً من رهبانهم ، ولا حبراً من أحبارهم ، ولا فيلسوفاً من فلاسفتهم ، وإنما يلتحف شملة الأعرابىّ ، ويتكلم لغة الأعراب ، ويروى أشعارهم كأحسن ما يرويها الأعراب الفصحاء ، ويُدْعى بهذا الاسم الغريب فيجيب ؟ !

ومن كان يستطيع أن يتكهن له بذلك أو ببعض ذلك ؟! ولكنه على بعده وغرابته قد وقع له وجرى عليه ! وهو جالس ذات يوم فى أعقاب النهار وقد امتلأت نفسه بهذه الخواطر التى صوّرناها آنفاً ، وهو مقسّم بين الاستسلام لها والاسترسال فيها ، وبين النهوض إلى إبله هذه المتفرقة ليجمعها وليدفعها أمامه إلى حظائر الحىّ . فقد تولى أكثر النهار ومنزل الحى بعيد . إنه لفى ذلك وإذ هو يسمع كلبه ينبح عن بعد ، فينبهه ذلك بعض الشىء ، وإذا أشخاص تُرْفع له لا يكاد يحققها أول الأمر ، ثم تدنو منه شيئاً فشيئاً ، فينظر فيرى رجلا شيخاً نبيل المنظر مهيباً ، قد أقبل على راحلته ، ومن حوله غلمان ثلاثة كأنهم أتباعه فى السفر وأعوانه على جهد الطريق .

فلما رأى « صبيح » ذلك نهض متثاقلا ، وسعى حتى دنا منه ، فيسأله الشيخ عن حيه من هم ؟ فيجيب صبيح . ثم يسأله الشيخ عن اسمه وعن موطنه الأول ، فيجيب صبيح فى أناة ووقار يشبهان الإعراض والفتور . ولكن الشيخ لا يكره ذلك ولا ينكره ، وكأنه استعذب صوت العبد واستلذ لغته ؛ فهو يطيل معه الحديث ، ويلح عليه فى السؤال . فإذا عرف أنه رومىّ الموطن ، تحدث إليه عن بلاد الروم حديث العالم بها ، الملمّ ببعض شؤونها وأخبارها . على نحو ما كان العرب فى ذلك الوقت يعرفون بلاد الروم ويفهمون ما يبلغهم من أنبائها .

ولكن حديث الشيخ يثير فى نفس صبيح شوقاً وحناناً ، ورغبة فى الاستطلاع وشغفاً بالتزيد من هذا الحديث ، وإذا صوته الفاتر

يستردّ شيئاً من نشاط ويشيع فيه شيء من حرارة . وإذا وجهه الذى لم يكن يظهر عليه اكتراث أو احتفال تظهر فيه آيات العناية بما يسمع من الشيخ والرغبة فى التزيد منه .

ويطول الحديث شيئاً بين الشيخ والعبد ، وقد شُغل كل منهما بصاحبه فلم يذكر الشيخ حاجته ، ولم يحفل العبد بواجبه . وتمضى لحظات غير قصار ، ثم يتنبه صبيح فيعتذر إلى الشيخ من تقصيره وينسبُه . فإذا انتسب الشيخ وجم العبد وجوماً شديداً ، وظهرت عليه آيات الذهول أو ما هو أكثر من الذهول . وامتلأت نفس الشيخ لذلك عجباً ! فقد انتسب الشيخ إلى قريش ، وتحدّث مالئاً فاه بأنه من أهل مكة وسكان الأباطح وجيران البيت الحرام ، وأن سادته لا يسمعون اسمه ، ولا يعرفون مكانه من قريش ومنزله من الحرم حتى يتلقّوه لقاء لا يتلقّونه أحداً آخر من غير هذا الحى من قريش ، جيران الله ، وسدنة بيته الكريم .

والشيخ يقول هذا كله مزهوًّا به ، ممعناً فيه ، مالئاً به ما بين شِدْقيه ، كأنه يمتلئ عزة وأنفة كلما أجرى منه على لسانه لفظاً . والعبد يسمع هذا مبهوراً مسحوراً قد ملك عليه أمره ، وكاد يذهب عنه عقله . ويظن الشيخ أن العبد مفتون باسم قريش وموطنها ؛ لكثرة ما سمع من ذكر قريش ، ولكثرة ما عرف من تقديس العرب لهذا الموطن الحرام . ولكن العبد يفجؤه بهذا السؤال : فأنت إذاً تعرف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟

قال الشيخ باسماً معتزًّا : نعم ! سيدنا وابن سيدنا . ومن ذا

الذى لا يعرف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ! ولكن ما علمك به ؟ وما ذكرُك له وأنت عبد رومىّ لا علم لك بمثل هذه الشؤون ؟ ! .

قال صبيح غير حافل بهذا السهم الذى وجهته إليه كبرياء هذا الشيخ العربى القرشى : متى آخر عهدك به ؟

قال الشيخ ضاحكاً : آخر عهدى به ! آخر عهدى به ثلاثة أعوام وبعض عام . ولكن ما علمك بمحمد ؟ وما سؤالك عنه ؟ .

قال صبيح : ثلاثة أعوام وبعض عام ! هذا كثير . ولعل كثيراً من الأحداث أن يكون قد طرأ فى هذا الرّدَح من الزمان .

قال الشيخ : أبنْ يا غلام ، ما علمك بهذا السيد من سادة قريش ؟ وما سؤالك عنه ؟ وما إلحاحك فى هذا السؤال ؟

قال صبيح : فكيف تركته حين فارقته ؟

قال الشيخ وقد أخذ يتميز غيظاً : تركته سيد قومه ، على خير ما يحبون له وعلى خير ما يحبون منه . ولكن ما أنت وذاك ؟ امض بنا إلى سادتك فقد أخرتنا عن القصد ، وصرفتنا عما نحن فى حاجة إليه .

قال صبيح ، وقد أخذت دموع هادئة تتساقط على وجهه ، وقد ازداد صوته عذوبة ، وحديثه رقة ، وقد أخذ بزمام الراحلة : على رسلك يا مولاى ! فإنى أنتظر هذا الحديث منذ أعوام طوال . وإنك لو تعلم شوقى إليه وكلفى به ، وما احتملت فى انتظاره من ألم ، وما تكلفت من جهد ، وما عانيت من لوعة ، لرفقت بى ، وأشفقت علىّ ، وتلطفت معى فى الحديث .

قال الشيخ : ما رأيت كاليوم غلاماً رومياً يعنى بأمر فتى من

قريش . ثم رقّ له وعطف عليه وقال : سلني من أمر محمد عما أحببت يا بنيّ ؛ فما أرى إلا أن لإلحاحك فى السؤال عنه شأناً !

قال صبيح : ألم يكن قد جهر بأمره حين تركته فى مكة ؟

قال الشيخ وقد أخذ يعجب مما يسمع ، وقد أخذت نفسه تتنبه وتثوب : جهر بأمره ! وأى أمر يا بنيّ ؟ وهل لمحمد أمر يسرّه ويريد أن يجهر به ؟

قال صبيح : فقد كان الغيب يحجب أمره إذاً حين تركته ؟

قال الشيخ : أبنْ يا بنيّ ! فإنى لا أفهم عنك منذ الآن . ما أمر محمد هذا الذى تسأل عنه ؟ فإنى لا أعرف لمحمد أمراً ، وإنما أعرفه فتى كريماً من قوم كرام ، قد امتاز من أترابه بما لم نألف : من طهارة النفس وشرفها ، ومن سماحة الخلق وكرمه ، ومن التنزه عن الصغائر والارتفاع عن الدنيات ، وإنا لنحب ذلك منه ونحبه له ، وتمتلئ قلوبنا إعجاباً به وعطفاً عليه ، وإنا لنضربه مثلا لشبابنا ، ونأخذهم بأن يتأثروه ويقتدوا به ، فلا نكاد نبلغ من ذلك أيسر ما نريد ؛ لأن هذا الفتى من فتيان قريش قد قدّر له حظ من الكمال لم نألفه قط ! فإنا لا نراه يوماً من أمره على خير إلا رأيناه من الغد وقد ارتقى إلى خير مما عرفنا . أبنْ يا بنى ! ما أمر محمد هذا الذى تسأل عنه ، وتنتظر أن يجهر به ؟ ثم أشار الشيخ إلى غلمانه أن أنيخوا الراحلة ، ففعلوا وأعانوه على النزول ، واتخذ مجلساً ، ودعا إليه صبيحاً فأجلسه قريباً منه ، ثم أشار إلى غلمانه فتنحوا شيئاً . فلما فرغ للعبد وفرغ العبد له قال : أفصحْ يا غلام عن أمرك !

فإن حديثك قد أهمّنى .

قال صبيح : فأفصحْ أنت يا سيدى عن أمرك ؛ فإن احتفاءك بحديثى وإصغاءك إلىّ ، ونزولك عن راحلتك ، وتنحية غلمانك ، وحرصك على أن تستقصى ما عندى ، كل ذلك يهمنى ويعنينى كما يهمك حديثى ويعنيك .

قال الشيخ : فتعلمْ يا بُنَى أنى رجل من قريش أنكرت من أمر قومى شيئاً كثيراً ، وهاجرت من أرضهم أطلب فى بلادك وعند قومك ما لم أجد فى بلادى وعند قومى . وقد طوّفت فى بلادك ثلاثة أعوام وبعض عام ! وهأنذا أعود منها يائساً مخيب الأمل ؛ لأنى لم أجد فيها ما كنت أبتغى ، ولأنى سأجد فى بلادى ما كنت أكره ، وسألقى من قومى ما كنت أنكر ، أو سأفارق هذه الحياة ولما أظفر بما أريد .

قال صبيح وقد أخذ منه الشوق مأخذه : ماذا أنكرت من قومك ؟ وماذا ابتغيت عند قومى ؟

قال الشيخ : أنكرت من قومى دينهم هذا الجافى الغليظ . وابتغيت عند قومك دين إبراهيم فلم أجده . وهأنذا أعود إلى بلادى وفى نفسى حسرة الحرمان واليأس ، وشىء ضئيل من أمل مع ذلك .

قال صبيح متلهفاً : شىء ضئيل من أمل !

قال الشيخ : نعم ! فقد زعم لى راهب من رهبانكم فى البلقاء منذ ثلاثة أعوام أن هذا الدين الحنيف الذى أطلبه لا يوجد فى بلاد الروم ، ولا ينتظر أن يظهر عند النصارى أو اليهود .

قال صبيح : وإنما يرْجى أن يظهر فى مكة حيث كنت تقيم !

قال الشيخ : وما علمك بذلك ، فقد أنبأنى به راهب البلقاء ؟

قال صبيح : نعم ! ويُرْجى أن يظهر على يد محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب هذا الذى كنت أسألك عنه وعن أنبائه .

قال الشيخ وقد ملكه العجب ، وكاد يطير شغفاً بأن يعلم ما عند صبيح : من أنبأك بهذا ؟ ومن أظهرك عليه ؟

قال صبيح : فإنى يا سيدى رجل من الروم ، قد أنكرت ما عند قومى ، وخرجت مثلك أبتغى خيراً مما عندهم ، فعرفت كثيراً ، ثم هممت أن أستقصى النبأ ، وأبلغ الغاية ، وأنتهى إلى الحجاز ، وأرى هذا الفتى القرشى الذى تظاهرت أنباء الأحبار والرهبان وأخبار الكتب والنبوات على أنه النبى الذى أظلنا زمانه ، فحلّ بى ما ترى ، وأصبحت راعياً للإبل فى حىّ من كلب بن وبرة !

واتصل الحديث بين الشيخ وصبيح وقتاً طويلا ، حتى أنكر الحى غيبته ، وأشفقوا أن يكون قد أغار عليه وعلى إبله بعض المغيرين . ولكنهم رأوه مقبلا يسعى ، وينبئهم بأن شيخاً من سادة قريش الأباطح قد ألمّ بهم يسمى زيد بن عمرو .

وقد احتفى القوم بضيفهم الكريم ، وقَرَوْه كأحسن ما يكون القِرَى ، وأنزلوه منهم أحسن منزل . ولكنهم عجبوا من أمره إذ رأوه حين يتقدّم الليل وهمّوا أن يتفرقوا عنه يدعو إليه صبيحاً ذلك العبد الرومى ، ويتقدّم إليه فى أن ينفق معه ما بقى من الليل . لم يفهم الكلبيون من هذا السيد القرشى كَلَفَهُ بهذا العبد ، وشغفه به وحرصه على صحبته ! ولعلهم أن يكونوا قد أحسوا فى نفوسهم بعض المَوْجِدة !

فقد كان هذا الشيخ القرشي خليقاً أن يستعين على أرق الليل بالتحدّث إلى الأكفاء والنظراء من سادات كلب وأشراف العرب ، ولكنه يؤثر بالحديث عبداً روميًّا لا يعرف من هو ، ولا من أى موطن جاء . على أنهم لم يظهروا من موجدتهم هذه شيئاً ، ومضوا فى إكرام ضيفهم إلى ما أحب . قال بعضهم لبعض : شيخ مقبل من بلاد الروم ، فلا بأس أن يصطفى هذا العبد الرومى ليتحدّث إليه ببعض ما رأى ، ويسأله عن بعض ما لم يفهم .

وأنفق صبيح مع زيد بن عمرو ليلة لم تعرف النوم ، وإنما عرفت أحاديث متصلة مختلفة ، ذكر فيها كل منهما لصاحبه ما عرف وما أنكر ، وما بحث وما استقصى ، وما اهتدى إليه من علم ، وما هو منتظر من جلية الأمر . فلما أسفر الصبح وتقدّمت سادات كلب إلى ضيفهم بما أحب من القرى ، وهمّ زيد بن عمرو أن يرتحل عنهم ، رغب إليهم فى شىء لم يسمعوه حتى ازداد عجبهم له وإنكارهم إياه . قال زيد بن عمرو : يا معشر بنى كلب ! إن لى عندكم حاجة ما أظنكم تردّونني عنها أو تأبونها علىّ ! فما رأيت منكم إلا خيراً ! وما عرفت منكم إلا كرماً ونبلا .

قال قائلهم : ما تشاء يا سيد قريش ؟

قال : عبدكم هذا الرومىّ هبوه لى أو بيعوه منى ! فإنى على صحبته حريص . وما ضاع العرْف بين قريش الأباطح وبين حىّ من أحياء العرب ، قريب منها أو بعيد عنها .

قالوا : لقد طلبت يسيراً ، وابتغيت سهلا قريباً ، وإن كنا

لنؤثر هذا العبد الرومىّ ونحب ما بلونا من أخلاقه ، وما عرفنا من سيرته ، وأمانته فى أموالنا وأسرارنا ، فهو لك .

قال زيد بن عمرو : يد محفوظة يا معشر بنى كلب . فأما وقد وهبتم لى هذا العبد فأصبح ملك يمينى وطوع يدى ، فاشهدوا أنى أعتقته ، وملكته أمر نفسه من فورى . وهو بعد ذلك حرٌّ فى أن يذهب إلى أى وجه من وجوه الأرض شاء .

قال الكلبيون : لقد وفت ذمتك يا شيخ قريش . ونحن جيران لهذا الرجل وأدلاء له حتّى يبلغ مأمنه .

قال صبيح وقد أقبل على زيد بن عمرو يقبله ويبارك عليه وإن دموعه لتنهلّ على خديه غزاراً : وفتْ ذمتكم يا معشر العرب . والله ما كرهت جواركم ، ولا شنأت الإقامة فيكم ، ولا رغبت نفسى عن ودكم . ولو خيرت لما عدلت بصحبتكم شيئاً ، ولكنه أمر يراد . وما أنا بعائد إلى بلاد الروم ولا رغبة لى فيها ، ولا أرب لى عند أهلها ، وإن كنت قد خلفت فيها من الصديق والخليل ما لا تزال تؤثره نفسى بالحب والحنان ، ولكنى ماض مع هذا الشيخ من سادة قريش ، مقيم معه فى الحرم ، وفى جوار بيتهم هذا الكريم ، فإن له ولى لشأناً عجباً .

١٦

وانصرف زيد بن عمرو وصاحبه الرومىّ حين زالت الشمس يقصدان الحجاز ، وليس لهما حديث إلا هذا الفتى القرشىّ اليتيم ، وما أراد الله به من كرامة ، وما قدّر الله على يده للناس من نجاة ؛ وإن زيداً ليقص على صديقه الرومى بدء حيرته فى مكة مع نفر ثلاثة من أصحابه : وَرَقَة بن نوْفل وعبيد الله بن جحش ، وعثمان ابن الحُوَيْرث ، يقول لصاحبه وإن فمه ليملؤه الضحك ، وإن وجهه ليغمره البشر : لقد أرانى مع أصحابى ذات يوم نشارك قومنا من قريش فى عيد من أعيادنا مسرورين محبورين ، تهتز أعطافنا أريحية وكرماً ، ونريد أن ننتهز فرصة هذا العيد لنذيع فى فقرائنا وذوى الحاجة من قومنا ما نستطيع أن نذيع فيهم من الخير والمعروف ، فنرى قومنا يطيفون بوثن من أوثانهم يكرمونه ويُكبرونه ، ويلثمونه بشفاههم ، ويمسحونه متهيبين بأيديهم ، وينحرون عنده الإبل والشاء ، فننظر وننظر ، ونهمّ أن نفعل ، ولكننا نرَدّ عما هممنا ، ونجدد العزم على أن نشارك قومنا ، ولكننا نرَدّ عن ذلك مرة أخرى ردّاً عنيفاً . وإذا بعضنا ينظر إلى بعض ، وإذا بعضنا يفهم عن بعض ، وإذا نحن نخلص نجيًّا . وإذا نحن نضحك حتى ما نملك أنفسنا من الضحك ، ونحزن حتى ما نملك أنفسنا من الحزن . نضحك حين نرى سادة قريش وأشراف العرب يطيفون بحجر من هذه الأحجار

التى تطؤها الأقدام ، وتعمل فيها الفؤوس ، وتسخر فى أغراض الناس وحاجاتهم ، وهم يُكبرونه ويعظمون أمره ، ويتقدمون إليه بالعبادة والطاعة . ونحزن حين نرى هذه الأحلام قد استحالت إلى سفه لا يشبهه سفه ، وحين نرى ما صار إليه أمر قريش من هذه الجهالة الجهلاء ، ومن هذه الضلالة العمياء ، وفيهم مع ذلك بيت الله ، ومقام أبيهم إبراهيم ، وقد ورثوا مع ذلك دينه فأضاعوه ولم يحفظوا منه شيئاً .

نعم ! ضحكنا حتى كاد يقتلنا الضحك ، وحزنا حتى كاد يملكنا الحزن ، وانصرفنا إلى رحالنا وقد أزمعنا أن نلتمس لأنفسنا الخير ما وجدنا إلى الخير سبيلا .

فأما ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وأنا فقد ارتحلنا عن مكة بعد خطوب وألوان من الجهد ، نلتمس الدين عند أهل الكتاب من يهود ، وعند أهل الكتاب من نصارى الروم .

وأما عبيد الله بن جحش فقد أقام فى مكة حائراً ينتظر . ولم ندر إذاً ماذا كان ينتظر . ولكنى قد علمت الآن أنه كان ينتظر أن يهبط دين إبراهيم من السماء على مقام إبراهيم فى الأرض ، من طريق فتى من فتيان قريش . إنى لأذكره الآن وأتمثله وأراه وكأنى أسمع له . لم يشاركنا فى عيدنا ذاك ، وما رأيته قط يشاركنا فى عيد من أعيادنا تلك التى كنا نقيمها حول الأوثان . لقد فهمت الآن ، لقد كنت أراه يعتزلنا إذا عكفنا على أصنامنا . ولقد كنت أعجب من أمره . ولقد هممت غير مرة أن أسأله ما باله لا يأخذ مع قومه فيما

يأخذون فيه ؟ وما باله لا يطوف بالكعبة إلا فرداً ؟ ولكنى كنت أرَدّ عنه ردّاً كلما هممت بسؤاله . وكثيراً ما سألت نفسى : ما الذى يصرفنى عنه حين كنت أقبل عليه ؟

لقد فهمت الآن ! ما كان الله ليختار لرسالته رجلا عكف على صنم ، أو تقرّب إلى وثن ، أو شارك قومه فى بعض الإثم .

لقد كان محمد منزهاً عن حب الأصنام والقرب منها ، وعن عبادة الأوثان والعكوف عليها ، وعن مشاركة قومه فيما كانوا يغرَقون فيه من الآثام . ولقد كان محمد يعيش وحده ، وإن كنا نرى أنه كان يعيش معنا ! لقد فهمت الآن !

ثم يُطرق زيد بن عمرو إطراقاً طويلا ، ثم يرفع رأسه إلى صاحبه قائلا : ولكنى لم أتم لك الحديث . لقد ارتحلنا من مكة إلى بلاد الروم ، فجعلنا نسأل اليهود عن دين إبراهيم ، فيعرضون علينا ما عندهم ، فلا نرضاه ولا نطمئن إليه . ثم عدلنا عنهم إلى رهبان النصارى وأحبارهم ، فما يكادون يقرءون علينا كتبهم ويظهروننا على بعض ما عندهم من العلم حتى يؤمن صاحباى وتطمئن قلوبهما إلى النصرانية . فأما ورقة ابن نوفل فقد أخذ منها بحظه ، ثم عاد إلى وطنه على أن يقيم فيه على عبادة الله وإكبار المسيح .

وأما عثمان بن الحويرث فلم تعجبه النصرانية وحدها ، ولكن أعجبته بلادك فهام بها ، وفتن بحضارتها ، ومضى إلى قسطنطينية ليعيش فيها عيشة الروم ، ويموت فيها ميتة الروم . وأما أنا فلم يعجبنى أمر النصارى كما لم يعجبنى أمر يهود . رأيت فى هذا وذاك أشياء لم

أفهمها ولم أذقها ، ولم أحس ملاءمتها لقلب هذا العربى الساذج السمح اليسير . وما شككت فى أن اليهود والنصارى قد عقّدوا أمورهم تعقيداً ، وأخرجوها عن طبيعتها السمحة ويسرها الأوّل . فجعلت أطوف على أدياركم فى الجزيرة والشام ، حتى لم أدع منها ديراً إلا طرقته ، وسألت من فيه من الأحبار والرهبان . فلم أجد عند أحد منهم شيئاً ، وإنما هو كلام أسمعه ولا أفهمه ، وعلم أحفظه ولا أحصّله ، وألغاز لا أهتدى إلى حلها ، وأسرار يعجزنى كشفها ، حتى أنتهىَ إلى صومعة فى البلقاء ، يقيم فيها راهب فذٌّ لا يعايشه أحد ؟ فأسأله عن دين إبراهيم ، فينبئنى بما أنبأتك به من أن دين إبراهيم ليس فى بلاد الروم ، ولكنه سيهبط على بلاد العرب ، وقد آن أوان ظهوره فيها . فأعود إلى وطنى ، وألقاك فى بعض الطريق ، وإذ أنت تعلم من الأمر ما أعلم ، وتنتظر منه ما أنتظر ، بل أنت تعلم أكثر مما أعلم ، وتنتظر أكثر مما أنتظر .

قال صبيح وقد بهره ما سمع : فإنك قد علمت من أمرى ما علمت ، ورأيت أن حيرتك فى بلادك لا يشبهها إلا حيرتى فى بلادى . وإنى قد طوّفت فى الأرض كما طوّفت أنت فيها ، وانتهيت من الأمر إلى مثل ما انتهيت أنت إليه . وما أرى إلا أن الله قد استنقذنا من الحيرة ، وردّ إلى قلوبنا الثقة والاطمئنان . ولئن بلغنا الحجاز وانتهينا إلى هذا الفتى القرشى لنكونن أسعد الناس به ، وأحرص الناس على اتباعه .

قال زيد بن عمرو : ولنمنحنّه ما نملك من نصر وتأييد ،

ولنعيننه على إظهار أمره وتبليغ رسالته إلى الناس ، وليعلمن الخطاب ابن نفيل عمي الذي كان يؤذيني ويغري بي السفهاء من شباب قريش أني لم أكن واهماً ولا متكلفاً .

قال صبيح : نعم ! ولكن متى نبلغ الحجاز ؟ ومتى ننتهي إلى سيد قريش ؟

قال الشيخ : ليس الأمد بيننا وبين مكة بعيداً ، وإنما هي أيام وليال ، ننفق أكثرها في هذا الحديث الذي يعيننا على السفر ، ويحمينا من أنصابه وأوصابه ، ويجدد عزيمتنا ، ويثبت قلوبنا ، ثم ننتهي إلى ما نحب ، ونظفر بما نريد .

ولكنهما لم ينتهيا إلى ما أحبا ، ولم يظفرا بما أرادا ، وإنما مرّا بأرض بني لخم ، فطمع اللخميون فيهما ، وظنوا أن عندهما مالا وثراء ، فيعدون عليهما فيقتلونهما .

ويُصرَع الحنيف العربي ، والفيلسوف الرومي ، وإن لسانيهما ليذكران محمداً ، وإن قلبيهما ليطمئنان إلى ذكره ، وإن عموداً من نور ليهبط من السماء حتى يبلغهما ، ثم ينفصل منهما مصعداً في الجو وقد حمل بين ثناياه نفسين كريمتين .

قال ابن إسحاق : وحدثت أن سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل وعمر بن الخطاب — وهو ابن عمه — قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : استغفر لزيد بن عمرو . قال : « نعم ! فإنه يبعث أمة وحده » .

رَاعِي الغَنَم

١

قالت خديجة لنسائها في صوت المروّعة المأخوذة : « أقبلن فانظرن ! فإني أرى شيئاً ما رأى الناس مثله قط » . وأقبل نساؤها ، فلما نظرن أكبرن ، ثم ارتعن فتراجعن ، ثم عدن فجددن النظر ، وقد ذهبت بهن الحيرة كل مذهب ! فقلن لخديجة مبهورات مسحورات : « ما ينبغي أن يكون هذا رجلا من الناس » . قالت خديجة وقد امتلأ صوتها حناناً وحبًّا ، وإعجاباً وإكباراً : « إنه والله لرجل من الناس قد عرفت أمه وأباه وشهدت مولده ، وسمعت أحاديث الناس عنه وآراءهم فيه ، وقد طالما رغّبتُنَّني عنه وحوّلتُنَّني عما كنت أريد منه . فأما الآن فلن تبلغن مما حاولتنّ شيئاً » .

وما كادت تتم حديثها حتى كان محمد بن عبد الله قد دخل عليها فأنبأها في لفظ عذب سريع بما كان من رحلته إلى الشام ، وبما عاد به إليها من ربح مضاعف لم تكن ترجوه ، ولم تعد بمثله إليها العير منذ تعوّدت أن ترسل تجارتها إلى الشام مع العير . وقد أتم محمد حديثه دون أن تعرف خديجة كيف تردّ عليه هذا الحديث ، أو تشكر له هذا الصنيع ، أو تكافئه على ماساق الله إليها على يديه من خير . كانت مأخوذة بمنظره قبل أن يدخل عليها ، ثم أخذتْ بمنظره ولفظه حين تحدّث إليها . وكانت في حاجة إلى الوقت لتسترد نفسها ، وتستنقذ صوابها ، وتخرج إلى الإفاقة من هذا الذهول . ولكن محمداً

لم يمهلها ، وإنما قال لها ما قال ، وانصرف عنها مسرعاً كأنما أدّى إليها نبأً لم يكن يرغب فى تأديته ، ولم يكن مع ذلك يجد بدّاً من أن يؤديه . فلما ألقى هذا العبء عن عاتقه انصرف خفيف الجسم ، نشيط الحركة ؛ وما هى إلا أن يركب بعيره وينطلق إلى بيوت بنى هاشم . ولكن خديجة قد عادت مسرعة وعاد معها نساؤها مسرعات إلى حيث كن ينظرن ، فرأين مرة أخرى ذلك المنظر العجيب الذى راعهن وروّعهن منذ حين ، وعدن إلى خديجة يقلن : « ما ينبغى أن يكون هذا رجلا من الناس ! » .

قالت : « ويحكن ! لقد رأيتُنَّه وسمعتُنَّه ، وعلمتنّ أنه محمد ابن عبد الله ذلك الذى كان يرعى لقومه الغنم بالقراريط فى أجياد» .

قلن : « لقد رأينا محمداً غير مرة وهو يدفع الغنم أمامه ماضياً بها إلى مراعيها ، ورأيناه غير مرة وهو يدفع الغنم أمامه عائداً بها إلى حظائرها ، فما رأيناه قط على مثل هذه الحال . لقد كان منظره يعجب ، ولقد كان محضره يخلب . ولقد كان كل شىء يحبب فيه ويدعو إليه . ولقد كانت أحاديث قومه عنه وآراء قومه فيه تصبى إليه النفوس ، وتعطف عليه القلوب . ولكنه كان على كل حال فتى فقيراً معدماً يرعى الغنم لقومه بأجياد . وكنا نرى أن ليس من النصح لك ، ولا من الإخلاص فى مودتك ، والوفاء بما لك علينا من حق ، أن نعينك على ما كنت تجدين من حب له ، وميل إليه ، ورغبة فى أن تتخذيه لك زوجاً ، وأنت من تعلمين مكانةً فى قومك ، وارتفاعاً فى نسبك ، وضخامة فى المال ، وسعة فى الثروة ، وسلطاناً على نفوس الكهول

والشباب من سادة قريش وأشراف مضر . كلهم سعى إليك . وكلهم رغب فيك ، وكلهم خطبك وتمنى أن تكونى له زوجاً ، فما صبوت إلى واحد منهم ، وما حفلت بما أضمر لك من حب ، وما أظهر لك من ود ، وما قدّم إليك من مال » .

قالت خديجة : « لئن كنت رفيعة المكانة فى قومى فما مكانة محمد من قريش دون مكانتى ، وإنا لننتهى جميعاً إلى قصىّ . ولئن كنت كثيرة المال ضخمة الثروة ، فما عرفت قط أن المال يزن إلى جانب الحب شيئاً . ولقد رددت من خطبنى من أشراف قومى وسادتهم ؛ لأنى لم أشعر قط بالميل إلى أحد منهم ، ولم أفكر فى أن أمرى يصلح للزواج أو يستقيم عليه ، ولم أر قط أن بين هؤلاء السادة والأشراف من شباب قريش وكهولها من يستطيع أن يستعلى بعقله ورأيه على عقلى ورأيى . ولكن ما رأيت محمداً قط إلا صبتْ إليه نفسى ، ومال إليه قلبى ، وأذعنت لسلطانه العظيم علىّ كل الإذعان » .

قلن : « كان ذلك قبل أن ترى ما رأيت الآن . فأما بعد هذا المنظر العجيب الذى لم يرَ الناس مثله قط فما ندرى ما أنت فاعلة ! » .

قالت : « سترين ما أنا فاعلة ، ولكنّ أن تعرفن أو تنكرن ، وأن ترضين أو تغضبن » .

قلن : « ما ينبغى لنا أن ننكر أو نغضب وقد رأينا ما رأينا . وإنك لأسعد امرأة من قريش إن ظفرت بأن يكون محمد لك زوجاً » .

وكان اليوم من أيام مكة الثقيلة البغيضة التى تلح عليها حين يشتد القيظ فترسل عليها من أشعة الشمس ناراً محرقة ، تسكن لها

الحركة ، وتخفت لها الأصوات ، ويهدأ لها كل شيء ، ويكاد يصيح من لذعها أديم الأرض ، وتشكو من حرها هذه الصخور التي تتوهج وتتلظى فتملأ الجو لهيباً وسعيراً .

وكان البشير قد أقبل مع الصبح ، فمضى في المدينة من أعلاها إلى أسفلها يبعث صيحاته الحلوة الجميلة التي تتلقفها الأسماع وتطمئن لها القلوب ، والتي تنبئ قريشاً بأن العير قد أقبلت من الشام سالمة غانمة موفورة ، فترد إلى رجال قريش ونسائها هذه النفوس التي كانت مشرّدة تتبع الأبناء والإخوة والأزواج والآباء في هذه الطرق الملتوية المخوفة بين أودية تهامة وبلاد الروم ، وتثير في القلوب ألواناً من الفرح مختلفة متباينة : فقوم يفرحون لعودة ذويهم إليهم موفورين ، وقوم يفرحون لعودة ثروتهم إليهم رابحة نامية ، وقوم يفرحون لما حمل إليهم ذووهم من هذه الأمتعة والعروض التي كانوا يكلفون بها ويرغبون فيها وقد يتحرقون إليها تحرقاً . وقوم يفرحون باجتماع الشمل بعد تفرّقه ، وبعودة الحياة إلى طبيعتها الهادئة الآمنة المطمئنة البريئة من الخوف على الأنفس والأموال .

وكانت قريش كلها تتهيأ لاستقبال العير إذا كفت عنها الشمس هذه النار المحرقة ، وأتاحت لها البروز إلى ظاهر المدينة تلقى فيها الأحبة وما يجلبون من الثروة والغنى ، وما يحملون من أسباب اللذة والمتاع .

وكانت خديجة تنتظر مقدم العير أشد ما تكون شوقاً إليه ، ووجداً به ، وتلهفاً عليه ! لا لأن العير كانت تحمل لها تجارة واسعة إلى الشام ، فكانت خديجة تريد أن تعرف ما كان من أمر تجارتها ،

وما أتيح لها من ربح ، أو كتب عليها من كساد ! فما كانت هذه أول مرة فصلت فيها العير عن مكة بتجارة خديجة الواسعة ، وما كانت هذه أول مرة عادت فيها العير إلى مكة بتجارة خديجة نافقة أو كاسدة ! فما أكثر ما أرسلت خديجة تجارتها فى العير إلى الشام ! وما أكثر ما انتظرت خديجة عودة العير هادئة وادعة ، لا يخرجها الربح عن وقارها إلى هذا الفرح غير المنتظم الذى كان يخرج إليه رجال قريش ونساؤها ، ولا يردّها الكساد عن وقارها إلى هذا الحزن العميق الذى كانت ترتد إليه رجال قريش ونساؤها حين تتعرض تجارة مكة لبعض الشر ، أو يلمّ بها بعض المكروه . وإنما كانت خديجة سيدة جلدة حازمة ، صبوراً وقوراً ، متزنة النفس ، معتدلة المزاج ، ترضى فلا يخرجها الرضا عن طورها ، وتسخط فلا يغير السخط من شأنها شيئاً ، ويراها الناس راضية وساخطة ، وهادئة مطمئنة فى الحالين ، فتمتلئ قلوبهم إعجاباً بها وإكباراً لها ، ويشهدون بأن قريشاً لم تعرف قط أحداً أملك لنفسه وأضبط لأمره وأقدر على عواطفه من هذه السيدة الجميلة الوضيئة الرزينة التى كادت تبلغ من سنها الأربعين .

كلا ! لم تكن خديجة مشغولة النفس بأمر العير حرصاً على تجارتها ، أو شوقاً إلى أن تعرف ما صارت إليه من نفاق أو كساد ، وإنما كانت مشغولة النفس بابن عمها هذا الشاب الذى أرسلته فى تجارتها إلى الشام ، فسافر راضى النفس ، آمن القلب ، وإن لطريق لمخوفة ، وإن الخطوب لكثيرة ، ولا سيما لو علم الناس من مر هذا الشاب ما كانت تعلم ، وعرفوا من حياته ما كانت تعرف .

لقد تذكر خديجة أن عمه الشيخ سافر به إلى الشام صبياً فلم يلبث أن عاد به إلى مكة مسرعاً ، شديد الحذر ، عظيم الاحتياط لما خاف عليه من مكر النصارى وكيد يهود . تحدث الشيخ بذلك إلى أصفيائه وخاصته ورهطه الأدنين ، فسمعوا له وابتسموا ، ثم انصرفوا مشفقين عليه معجبين ، يقول بعضهم لبعض : ما نرى إلا أن أبا طالب مسرف فى حب ابن أخيه . وما نرى إلا أن هذا الإسراف يكلفه شططاً ، ويرهقه من أمره عسراً .

ولكن حديث الشيخ انتهى إلى خديجة ، فتلقته فى شىء من العجب، ثم أقرّته فى ثنى من أثناء نفسها الطاهرة ، وفى ناحية من نواحى قلبها الكريم ، وأخذت تنظر إلى هذا الصبىّ اليتيم نظرة فيها الرفق والعطف ، وأخذت ترقب هذا الصبى اليتيم فى شىء كثير من الحب والبر والحنان ، ترعى فيه حق القرابة وتلك المودة التى كانت بينها وبين أمه آمنة ، حين كانت هى فتاة غضة ناشئة ، وحين كانت آمنة أرأف الناس بها ، وأحبهم لها ، وأشدهم بها برًّا وعليها حنوًّا .

وما أكثر ما فكرت خديجة فى أمر هذا الصبى اليتيم ! وما أكثر ما همّت أن تبرّ به ، وتصنع له المعروف وتسدى إليه الجميل ، وترفه عليه وعلى أهله بعض ما كانوا يحتملون من آلام الحياة ويلقون من ضيق العيش . ولكنها لم تكن تجد السبيل إلى ذلك ميسورة ولا ممهدة ؛ ففى بنى عمها إباء وعزة وارتفاع عن مثل ما كانت تريده لهم من الخير والبر . وفى هذا الصبى اليتيم أنفة وكرامة ، وشىء لا تستطيع أن تصوّره ولا أن تحققه ، ولكنه يملأ قلوب الناظرين

إليه هيبة له ، ويردّهم عن أن يفكروا فى أن ينالوه بما تعوّدوا أن ينالوا به الفقراء واليتامى من البر والإحسان .

وما أكثر ما كانت خديجة تسأل عن هذا الصبى ، وتتّبعُ فى حب وبر وحنان نموه وتقدم السن به ، واضطرابه فى كسب القوت ، واحتماله لأثقال الحياة ! ولقد أشفقت خديجة على هذا الصبى أشد الإشفاق حين علمت ذات يوم أنه خرج مع عمومته إلى عكاظَ ، فشهد معهم حرب الفجار ، وما أشد ما كان إعجابها به ، وما أعظم ما كان اغتباطها حين علمت أنه عاد مع عمومته من حرب الفجار سالماً آمناً موفوراً ، لم يمسسه أذى ، ولم ينله مكروه !

وكانت أنباء تبلغ خديجة عن هذا الصبى ، أو قل عن هذا الفتى ، فتملأ نفسها عجباً ، وتدفعها إلى كثير من المساءلة والتفكير . فقد كان يقال لها إن هذا الفتى على حداثة سنه شديد الميل إلى العزلة ، لا يشارك أترابه من فتيان قريش فيما يأخذون فيه من فرح أو مرح ، وفيما يدفعون إليه من عبث أو مجون ! وإنما يلقى الناس بوجه مشرق دائماً ، مبتهج دائماً ، ولكنه هادئ مطمئن ، ما يزدهيه رضا ، ولا يخرجه عن طوره سخط . وكان يقال لها إنه لم يشهد أحد قط هذا الفتى حيث يشهد فتيان قريش جميعاً بين حين وحين آخذين فى هذه اللذات التى كان يكلفُ بها الشباب القرشيون ، حتى إذا رشدوا وبلغوا سن الوقار ترفعوا عنها ، وضنوا بأنفسهم عليها ، ورأوها لا تلائم أحلامهم الراجحة ومكانتهم الممتازة . ولم يصرفوا عنها مع ذلك أبناءهم الناشئين ، كأنهم يرونها شرًّا ليس منه بدّ ، وتجربة

ليس على الشباب بأس أن يصلْوا نارها ، وأن يلذعهم لهيبها بعض الشيء .

وكان الناس يعجبون من اعتزال هذا الفتى أترابه إذا أقبلوا على لذّاتهم تلك ويتساءلون فيما بينهم : ما بال هذا الفتى يمتاز من لذاته ، ويسير على حداثة سنه ونضرة شبابه سيرة الكهول الذين ترفعهم رجاحة أحلامهم وسماحة طباعهم عن مثل هذه الصغائر والدنيات ؟

وكان يقال لخديجة إن لهذا الفتى شأناً عظيماً يحس الناس ظواهره ولكنهم لا يفهمونه ، ولا يتبينون حقيقته ولا جلية الأمر فيه .

لقد كان شائعاً فى مكة متواتراً بين أهلها أن عمه الشيخ رجل سيئ الحال ، ضيق ذات اليد ، مقتّر عليه فى الرزق مع كثرة العيال ، وأنه مع ذلك لا يشكو بؤساً ، ولا يظهر تحرّجاً بهذه الشدة التى يعانيها ؛ لا لأنه رجل من بنى هاشم يمتاز بما يمتاز به بنو هاشم من الصبر والكرامة والقناعة وحسن الاحتمال للمكاره والمشقات فحسب ، بل لأن فى حياته سرًّا غريباً ! فإن ابن أخيه هذا اليتيم « فتى مبارك » كما يقول الشيخ إذا ذكره أو تحدّث عنه . ولم يجلس قط مع أبناء عمه إلى طعام إلا شبعوا وأفضلوا من طعامهم مهما يكن قليلا ، ولم يجلس بنو عمه من دونه إلى طعام إلا قاموا وهم جياع . وكان أبو طالب يتحدث بأنه إذا رأى أبناءه يقبلون على طعامهم كفهم عنه وقال : كما أنتم حتى يأتى ابنى ، فينتظرون حتى يأتى الفتى ، وهنالك يخلى الشيخ بينهم وبين الطعام فيقبلون عليه ، ثم يرفعون أيديهم عنه وكلهم قد شبعوا ، وإن فى طعامهم لفضلا .

وكانت خديجة تسمع هذه الأنباء كما كان يسمعها غيرها من

رجال قريش ونسائها ، فتعجب لها كما كان يعجب لها غيرها من رجال قريش ونسائها. ولكنها لم تكن تنساها كما كان ينساها غيرها من قريش ، وإنما كانت تضيفها إلى ما كانت تحفظه من أمر الفتى فى ثنى من أثناء نفسها الطاهرة ، وناحية من نواحى قلبها الكريم .

ثم يبلغ خديجة ذات يوم أن جماعة من شيوخ قريش وسادتها وأصحاب الأحلام الراجحة والبصائر النافذة فيها ، قد اجتمعوا فيما بينهم فاستعرضوا من أمر الناس ما استعرضوا ، وأنكروا من سيرة الناس ما أنكروا ، ورأوا أن يلتمسوا لأنفسهم ولقومهم الخير ، وأن يجتمعوا فيحدثوا بينهم حلفاً على أن يتعاونوا على الخير والمعروف ، وإنصاف المظلوم مهما يكن ضعيفاً ، من ظالمه مهما يكن قويًّا ، وأن يبذلوا فى ذلك ما يملكون من جهد ، وأن يدوموا على ذلك ما بلّ بحر صوفةً ، وأن قريشاً قد أعجبت بهذا الحلف أشد الإعجاب ، وأكبرت المجتمعين عليه والمشتركين فيه أشد الإكبار ، وسمّته « حلفَ الفضول » .

ولكن الغريب الذى دهشت له قريش كلها والذى حفظته خديجة فأضافته إلى ذلك الكنز الذى حفظته فى ثنى من أثناء نفسها الطاهرة ، وحنو من أحناء قلبها الكريم أن فتى حدَثاً من فتيان قريش لم تتجاوز به سنه العشرين قد كان مع هؤلاء السادة من شيوخ قريش ، وقد عرف معهم ما عرفوا ، وأنكر معهم ما أنكروا ، وعاهدهم على ما تعاهدوا عليه . وقد كان فى ذلك كله كأرجحهم حلماً ، وأذكاهم قلباً ، وأكرمهم نفساً ، وأحرصهم على الخير والبر ، وأسبقهم بالمعروف ،

وأعطفهم على البائس والضعيف . فعل هذا الفتى ذلك كله ، وإن أترابه من شباب قريش لمنصرفون إلى لذّاتهم على اختلافها وتباينها . ولم يكن هذا الفتى إلا محمد بن عبد الله ذلك اليتيم الذى أصبح حديث قريش كلها ، تعجب به ، وتتحدّث عنه ، وتضرب به لشبابها مثلا .

وما أشدّ ما كانت خديجة تألم حين تعرف أن خير قريش كلها يحتاج إلى أن يرعى الغنم لقومه بأجياد ، وإلى أن يكسب فى ذلك القراريط من حين إلى حين ، يستعين بها على ما يقيم أوده ، ويفضل منها على أبناء عمه الشيخ ، وإنه لأحرى قريش كلها بأضخم ما فى مكة من ثروة ، وأعرض ما فى مكة من غنى ، وأرقّ ما فى مكة من نعيم .

هنالك أحست خديجة فى قلبها حبًّا لهذا الفتى لم تعرف كيف تصفه ولا كيف تسميه ، ولكنها كانت تجد من نفسها الطاهرة نزاعاً شديداً إلى أن تراه وتسمع منه وتتحدّث إليه ، ولم يكن ذلك يتاح لها ولا يهون عليها . فأين هى مع ثروتها الضخمة ، ومالها الكثير ، ومكانتها الممتازة من هذا الفتى اليتيم الذى ينفق أكثر أيامه خارج مكة يرعى الغنم ، فإذا عاد إلى مكة اعتزل الناس ، أو كان كالمعتزل لهم ، فلم يعرض لخديجة ، ولم تستطع خديجة أن تعرض له . ومع ذلك فقد كانت نفسها تتبعه ، وقد كان شخصه لا يفارق قلبها . وكثيراً ما تحدثت عنه إلى نسائها فسمعن منها ، ثم قصصن عليها من أمره الأعاجيب . وإن قريشاً كلها لمجتمعة على حبه وإيثاره ، والإعجاب بسيرته وأخلاقه . . . وإنها لا تسميه محمداً ، وإنما تسميه الأمين .

وإن من الناس قوماً يتحدثون عنه بأعاجيب لا يطمئن إليها العقل ، ولا تجرى بها عادة الناس . فمنهم من يزعم أنه رآه ذات يوم وقد اشتدت الهاجرة ، وإن سحابة لتقيه الشمس . ومنهم من يزعم أنه رآه ذات يوم قد أوى إلى ظل شجرة فإذا الشجرة تحنو عليه حنوّ الأم ، وإذا هو يسمع الشجرة تتلقاه بالتحية والسلام .

وكانت خديجة تسمع هذا كله فتقبل منه ما تقبل ، وتردّ منه ما تردّ ، ولكنها تشعر بأن حبها له يزداد ، وميلها إليه يعظم ، حتى لم تملك نفسها أن أظهرت لنسائها هذا الحب ، وتحدّثت إليهن بهذا الميل ، ولمحت لهن بأنها تود لو أصبح هذا الشابّ لها زوجاً ، لا يمنعها من الجهر بذلك والسعى إليه إلا أنها أكبر من الفتى سنّاً ، وأنها لا ترى نفسها له كفئاً .

فلما رأى نساؤها منها ذلك أنكرنه عليها أشد الإنكار ، ورددنها عنه أشد الردّ ، وصوّرن لها فقر الفتى وبؤسه ، وما هى فيه من ثروة ونعيم ، وذكرن لها تنافس الأشراف والسادة فيها ، وحرصهم جميعاً على أن يبلغوا منها هذه المنزلة التى تؤثر بها هذا الفتى اليتيم . فأحست خديجة أن نساءها لم يفهمن عنها شيئاً ، وأنهن لن يفهمن عنها شيئاً ، وردّت سرّها العزيز إلى مكانه الأمين من نفسها الطاهرة وقلبها الكريم . وانتظرت حتى تهيأت العير فى عام من الأعوام للرحلة فى التجارة إلى بلاد الروم ، وجعلت خديجة تهيئ تجارتها ، وجعل الناس من فقراء قريش يعرضون أنفسهم عليها ليرحلوا فى تجارتها إلى الشام كما تعوّدوا أن يفعلوا من قبل . ولكن خديجة لم تسمح لأحد

منهم ، ولم تقف عند أحد منهم ، وإنما ألقى فى نفسها — دون أن تعرف كيف ألقى فى نفسها — أن محمداً سيكون هذه المرة صاحب تجارتها إلى الشام . فلا تسأل نساءها عن شىء ، ولا تحدّث نساءها فى شىء ، وإنما ترسل إلى الشيخ دسيساً يعرض عليه الأمر ، ويهوّن عليه ما كان يستصعب منه ، ويصوّر أن الفتى قد أصبح رجلا لا بأس عليه من مشقة السفر ، ولا خوف عليه من مكر النصارى ، وهو بعدُ سيكون فى طائفة من قومه يحمون العير بالعدد والعدّة ، ويزين له أن خديجة قد تعودت أن تأجُر المسافرين فى تجارتها بـكْرين ، وأنها لا ترضى بهذا الأجر لابن عمها الأمين ، فهى تأجره أربعة أبكر .

وما كان أبو طالب ليرضى هذا العرض أو يقبله لولا أن قد كان لله فى ذلك حكمة ، ولولا أن الله قد ألقى فى قلبه الرضا بهذا العرض لأمر يراد . فقد كان أبو طالب شفيقاً على أبن أخيه رفيقاً به ، يكلؤه ويرعاه ، ويحوطه ويحميه ، يخشى عليه العوادى ، ويضنّ به على المكروه ، ولم ينس قط ما كان من تحذير بحيرَى له وإلحاحه عليه فى أن يحوط ابن أخيه من مكر النصارى وكيد يهود . ما أكثر ما فصَلت العيرُ عن مكة منذ عاد الشيخ بابن أخيه إليها ، فلم يرسله أبو طالب مع العير ، بل لم يفصل أبو طالب مع العير متجراً ، وإنما أبقى ابن أخيه فى مكة ، وأقام معه فيها حامياً له ، ذائداً عنه . فلما عرض عليه رسولُ خديجة ما عرض ، همّ أن يرفض ، ولكن الله ألقى فى نفسه القبول ، فقال للرسول : « سأعرض هذا على

ابن أخى » . ثم يلقى ابن أخيه فيعرض عليه الأمر مرغباً له ، مشجعاً إياه .

وما كان الفتى فى حاجة إلى ترغيب أو تشجيع ؛ فإن الذى قد ألقى فى نفس خديجة اختياره لتجارتها هذا العام ، وألقى فى نفس أبى طالب قبول هذا الاختيار حين عرضه رسول خديجة عليه ، قد ألقى فى نفس الفتى قبول هذا الاختيار حين تحدث إليه عمه فيه .

وهذه العير تتهيأ للخروج من مكة ، وهذا الفتى يتهيأ للخروج معها فى قومه من قريش ، وقد ألحقت به خديجة غلامها ميسرة ، وهؤلاء عمومة الفتى يوصون به رفاقه من قريش ، ويغلون فى هذه التوصية ، فلا يسمعون من أصحاب العير إلا هذا الرد الجميل يلقونه إليهم باسمين : « ما إيصاؤكم إلينا بالأمين ، وما منا إلا من يبذل حياته فداء للأمين !! » .

٢

ولم تكد العير تفصل من مكة وتُمعن فى طريقها إلى الشام حتى شقى بذلك فى مكة شخصان أشدّ الشقاء ، ولقيا منه أثقل الجهد وأعظم العناء ، وحتى نغصت عليهما حياة النهار ، وصُرِفَ عنهما نوم الليل ، وفارقت كل واحد منهما نفسه ، فتبعت تلك العير التى كانت ماضية نحو الشمال . وقد عرفتَ بالطبع هذين الشخصين . فأما أحدهما فهو أبو طالب ، وأما الآخر فهو خديجة .

والغريب أن الخواطر التى كانت تملأ نفسيهما همًّا وحزناً وتفعم قلبيهما خوفاً وقلقاً ، هى بعينها تلك الخواطر التى كانت تملأ نفس عبد المطلب بن هاشم وآمنة بنت وهب، وتشغل قلبيهما منذ خمسة وعشرين عاماً حين سافر عبد الله مع العير إلى الشام فى التجارة لأول مرة ولآخر مرة أيضاً .

وكان ذلك يزيد فى خوف أبى طالب ، وقلق خديجة ، ويضيف إلى إشفاقهما شيئاً غير قليل من الندم اللاذع ، والأسف الذى لا يغنى ولا يفيد . كان أبو طالب يلوم نفسه أشد اللوم ، ويؤنبها أعنف التأنيب ! لما فرط فى ذات ابن أخيه ، وقد كان حريصاً على ألا يفارقه ولا يخلى بينه وبين غوائل الدهر وعاديات الأيام . وهو يعلم بعد هذا كله أن قد كانت للأسرة من بنى هاشم فى هذا النوع من المحن سابقة ، وأنه كان خليقاً أن يتعظ بما مضى ، وأن يضنّ

بمحمد على ما تعرّض له عبد الله .

وكان يقول لنفسه إن عبد المطلب حين أغرى ابنه بالرحيل وحثه عليه ، لم يكن إلا رجلا من قريش ، يأخذ ابنه بحياة قريش وما تعودت من الاضطراب فى الأرض ، والتماس الرزق طوراً فى الشام ، وطوراً فى اليمن . ولم تكن الأيام قد وعظت عبد المطلب ، ولا قدمت بين يديه من النذر ما كان خليقاً أن يحمله على التردد ويغريه بالاحتياط . فأما هو فقد وعظته الأيام وتقدمت إليه النذر .

وعظته الأيام بما وقع لعبد الله ، ذلك الذى فجع به بنو هاشم على حداثة السن ونضرة الشباب ، فكان خليقاً أن يتعظ ، وكان خليقاً ألا يعرّض النبى لما تعرّض له أبوه . وتقدمت إليه النذر ؛ فما أكثر ما سمع ، وما أكثر ما شهد ، وما أكثر ما فكر فى أن ابن أخيه خليق بالعناية المطردة والحماية المتصلة ، والاحتياط الذى لا يغفل ولا ينام ! . . . وإن فى آخر تلك النذُر لما كان خليقاً أن يمنعه من التخلية بين ابن أخيه وبين الرحيل ، فضلا عن أن يغريه به ويدفعه إليه . وإنه ليذكر حديث بحيرى وإشفاقه وتحذيره إياه من مكر النصارى وكيد يهود . وإنه ليذكر كيف ارتدّ بابن أخيه الصبى إلى مكة ، دون أن يقضى حاجته من الشام ، ودون أن يقوم على ما كان فى يده من التجارة بالبيع والشراء ، وإنما وكل بذلك من وكل من قومه متعمداً ردّ الصبىّ إلى وطنه ، وحفظه من الغوائل والعاديات .

وإنه ليذكر إعراضه منذ سمع ذلك النذير عن الرحلة ، ولزومه مكة ، وإصراره على ألا يفارق ابن أخيه ، وألا يطيل بينه وبينه الأمد .

فما الذى غير رأيه فى هذا كله ؟ وما الذى دفعه إلى أن يحمل ابن أخيه على هذه الرحلة التى لا يأمن عواقبها ؟ وأخذ الشيخ يتحدّث إلى نفسه بمثل ما كان يتحدث به عبد المطلب إلى نفسه . وأخذ الشيخ يسأل نفسه عن هذا الذى ألقى فى رُوعه قبول ما عرضت خديجة : أكان ناصحاً له أم ما كراً به ؟ أكان إلهاماً من الله أم غروراً من الشيطان ؟

وجعلت هذه الخواطر تفسد على الشيخ أمره ، وكان يزيدها شدة عليه وإيلاماً له أن الشيخ كان يستعرض حاله السيئة وفقره المدقع ، وما كان يلقى من الجهد فى قوت عياله ، وكان يشعر فى أعماق نفسه بشىء من الخوف الأليم أن يكون قد عرّض ابن أخيه لبعض الخطر إيثاراً لنفسه ولبنيه بالخير .

وما له لم يُغر بهذه الرحلة ابنه طالباً أو ابنه عقيلا ، وإنما أغرى بها هذا الفتى اليتيم الذى فقدأمه وامتحنَ فى أبيه بمثل ما يُمتحنُ به الآن ! ! وكثيراً ما جعل الشيخ يردّ هذا الخاطر عن نفسه بأن خديجة لم تعرض عليه استئجار أحد أبنائه ، وإنما عرضت عليه استئجار ابن أخيه ، فما كان يستطيع أن يعرض عليها طالبا أو عقيلا . ولأمر ما رغبت خديجة هذا العام عمن كانت تكل إليهم تجارتها فى الأعوام الماضية ، ولم تختر إلا هذا الفتى ، ولم تعرض عليه ما كانت تدفعه إلى غيره من الأجر ، وإنما أضعفت له الأجر إضعافاً .

ولكن هذه المعاذير لم تكن تسلى الشيخ عن زلته ، ولا تقيله عن عثرته ، ولا تخفف عليه حزناً ، ولا تردّ عنه ألماً ، وإنما كان

ندمه يزداد وينمو حتى يكاد يخرجه عن طوره ، ويتجاوز ما ألف من نفسه وما عرف الناس فيه من الرزانة والوقار . ولقد حدّثته نفسه غير مرة أن يشدّ راحلته ، ويلحق بابن أخيه ، فإما ردّه عن هذه الرحلة ، وإما رافقه فيها . ولكنه كان يستحي أن تقول قريش : ضعف أبو طالب ، وجزع على فتى قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره . كان يستحي من ذلك لنفسه ، وكان يستحي من ذلك لابن أخيه . وما رأيك في رجل لم يكن يعدل بحسن رأى الناس فيه وحديثهم عنه شيئاً ؟!

وضاق أبو طالب بهذا الأمر أشد الضيق ، فلم يستطع كتمانه على شدة ما حاول من ذلك ، وإنما تحدّث به إلى بنيه وإخوته ، ولمح لهم على استحياء بأن من الخير أن يلحق به منهم لاحق ، يتكلف ذلك ، ويظهر حاجته إلى الرحلة ، وندمه على التخلف عن القافلة . ولكن إخوته وبنيه نظروا إليه باسمين ، وأجابوه مشفقين ، وقالوا له : « تالله إنك لمسرف في الإشفاق على هذا الفتى ، مغرق في الخوف عليه من كل شيء ، حتى تحدّث الناس عنك بذلك ، فاتهموك بالضعف ، وأنكروا عليك هذا الغلو في الخوف، وإنا لنعرف رعايتك لهذا اليتيم ، وحدبك عليه ! ولكن من الحب ما يؤذى ، والإسراف في الإشفاق والرعاية قد يسوء هذا الفتى . فخل بينه وبين الحياة ، ودعه يضطرب في الأرض ليكسب قوته . فما أنت بباق له آخر الدهر ، وما ينبغى له أن يقنع بهذا العيش الضيق الذى هو فيه .

وكذلك عاش أبو طالب مقسّما بين الخوف والرجاء ، وبين اليأس والأمل ، وبين الثقة والشك ، وبين اللوم لنفسه والاعتذار عنها . وما أظن أنه شقىَ قط فى حياته كما شقى فى هذه الأيام التى فرّقت بينه وبين ابن أخيه .

ولم يكن أمر خديجة بأيسر من أمر عبد المطلب ، ولم يكن خوفها بأهون من خوفه ، ولم يكن إشفاقها بأقل من إشفاقه . ولكن خواطرها كانت من طراز آخر ، ومن طبيعة أخرى ! فهى لم تكن مؤتمنة على الفتى ، ولا كافلة له ، ولا موكلة بحمايته ولا حياطته والقيام دونه . ولكنها كانت شيئاً آخر لعله أقوى من هذا كله ، كانت تحب هذا الفتى . وحسبك بالحب مثيراً للخوف والقلق ، وباعثاً للجزع والفزع ، وحائلا بين القلوب وبين ما تحتاج إليه من الهدوء والاطمئنان .

لقد أحبت خديجة هذا الفتى منذ كان صبيًّا ، وجعلت ترعاه من بعيد ، وترقب من أمره ما تستطيع أن ترقبه ، وتتبع نموه واكتماله . وكلما نما الفتى نما حبها له وكلفها به . أفحين بلغ الفتى أشدّه وأصبح خليقاً أن يحقق أملها فيه ، يخطر لها هذا الخاطر الغريب ، فإذا هى تدفعه إلى الرحلة ، وتقذف به إلى أرض الروم ؟! ومن الحق أنه لم يكن لها زوجاً ، ولكن كانت تتمناه لنفسها زوجاً . وربما كان الخوف على الأمانى أشد على النفس وأوقع فى القلب من الخوف على الحقائق الواقعة والشىء الذى ظفرت به بعد أن طال تمنيك له وألحّتْ رغبتك فيه . وكانت خديجة تذكر آمنة ، وتذكر نفسها ، فترى أن آمنة لم تدفع زوجها إلى الرحلة ، وإنما أذعنت فى ذلك لقوانين

الحياة التى تقضى على فتيان قريش بالاضطراب فى الأرض والإبعاد فى الأسفار . ولو قد خيرت آمنة لاستبقت زوجها . ولو قد أتيح لقلبها أن ينطق لألحّ على زوجها فى البقاء .

فأما هى فلم تكرّه على فراق الفتى ، وإنما سعت إليه ورغبت فيه ، وأغرت به الفتى إغراء ، ودفعته إليه دفعاً ، ودست فيه الرسل إلى عمه الشيخ ، وأضعفت أجره أضعافاً . أمحبة هى لهذا الفتى أم مبغضة له ؟ أراغبة هى عن هذا الفتى أم راغبة فيه ؟ أحريصة هى على جوار هذا الفتى أم على فراقه ؟ إن أمرها لعجب مهما تقلبه على وجوهه . ولكن ألمها شديد ، وحزنها موجع ، وقلقها مضن . وقد تذكر أنها لم ترسله وحده إلى الشام ، ولم تعرّضه وحده للأخطار ، وإنما أرسلت معه غلامها القوى الفتىّ الأمين الناصح ، وهو خليق أن يحوطه ويرعاه ، وأن يلقى الموت فى سبيل حياطته ورعايته . ولكن غوائل الدهر وعوادى الأيام جائرة غاشمة ، وهى أقوى من غلامها ميسرة مهما يكن قويًّا ، وأجرأ منه مهما يكن جريئاً ، وأمضى إلى المكر والكيد منه إلى الحياطة والحماية والنصح .

وكذلك جعل هذان الشخصان يعيشان مع هذا الخوف الذى يفسد عليهما اليقظة والنوم ، دون أن يستطيع أحدهما أن يفضى إلى صاحبه بما يجد أو ببعض ما يجد . فلا غرابة أن يطمئن قلباهما حين سمعا صيحة البشير بمقدم العير . ولا غرابة أن يحس كل منهما كأن نفسه تنحرق شوقاً إلى لقاء هذا الفتى . فأما أبو طالب فقد همّ أن يخرج من مكة مع الضحى للقاء ابن أخيه ، ولكن إخوته وبنيه صدّوه

عن ذلك ، ولاموه فيه ، وخوّفوه حر الشمس وشدة الهاجرة ، وخوفوه قبل كل شيء حديث قريش هذه التي استبشرت بمقدم العير ، ولكنها استقرت في أماكنها ، لم تهمّ بالخروج للقاء الأبناء والإخوان قبل إبان الخروج .

وأما خديجة فما كان لها أن تخرج للقاء الفتى ، ولا أن تفكر في الخروج للقائه ؛ فليس هذا من شأن النساء ، ولا هو مما يليق بحرائر قريش . ولكن نساءها أنكرن منها اضطراباً منذ سمعت صوت البشير ، وتحدثن فيما بينهن بكثرة ترددها على النافذة ونظرها إلى الطريق . وكان بعضهن يتحدث في ذلك إلى بعض حين دعتهن خديجة قائلة : « أقبلن فانظرن ؛ فإني أرى شيئاً لم ير الناس مثله قط » . وقد أقبلن ، فنظرن ، فرأين شيئاً لم ير الناس مثله قط : رأين فتى مشرق الوجه ، واضح الجبين ، مهيب الطلعة ، يسعى به بعيره تحت هذه الهاجرة المحرقة ، ويخوض به لهيب هذه النار المضطرمة ، وإن عن يمينه وشماله لشخصين تحسهما العين ولا تحققهما ، تراهما من غير شك ولكنها لا تميزهما . ترى أنهما لا يمشيان على الأرض ، وإنما يسعيان في الهواء سعياً رفيقاً ، وهما يظللان هذا الفتى ذا الوجه المشرق ، والطلعة المهيبة ، ويحميان حرّ وجهه الجميل من هذه الشمس المحرقة .

ينظرن ، فيرين ، ويقلن : « ما ينبغي أن يكون هذا رجلا من الناس » .

ومتى رأى الناس رجلا يظلله شخصان لا يمشيان على الأرض ، وإنما يسعيان في الهواء ؟!

٣

وأقبل ميسرة على خديجة حين أدبر النهار . فلما رأته تمالكت فى شىء من الجهد غير قليل حتى كبحت عواطفها الثائرة ، وضبطت خواطرها الجامحة ، وردّت نفسها ووجهها من الهدوء والسكون إلى ما تعودت أن تلقى به خادمها الوفىّ ومولاها الأمين . ثم سألته عن تجارتها كما تعوّدت أن تسأله كلما آب إليها من رحلة الشام أو من رحلة اليمن . ولكنه كان فى هذه المرة يقص عليها أنباء الرحلة فى شىء من الاضطراب لم تعهده ، ويعرض عليها أمر البيع والشراء فى شىء من الذهول لم تألفه . وكثيراً ما تلبث فى حديثه ليستحضر رقماً غاب عنه ، أو يرد خاطراً ندّ ، أو يدعو فكرة شردتْ . وكانت خديجة تسمع له ، معنية بما ترى من ذهوله وشرود خواطره ، أكثر من عنايتها بما كان يعرض عليها من الأرقام ، ويقص عليها من أنباء البيع والشراء .

وقد ترددت خديجة فطال ترددها ، حين فرغ مولاها من حديث التجارة . ترددت فى أن تسأله عن غير هذا الحديث من أمر هذه الرحلة. وليس من شك فى أن العبد كان متردداً مثلها ، مطيلا للتردد فى أن يقص عليها شيئاً آخر من أنباء هذه الرحلة لا صلة بينه وبين البيع والشراء . وآية ذلك أن خديجة أطرقت فأطالت الإطراق ، حتى نسيت العبد وحديثه ، ومضت تفكر فى شىء آخر غير العبد

والحديث . فلما رفعت رأسها بعد ساعة رأته قائماً أمامها لم يزُلْ عن مكانه ، ولم يتحول عن موضعه ، وقد أرسل عينه أمامه فى هذه الغرفة المتوسطة بين السعة والضيق . فعينه حائرة تنظر ولا ترى ، وكأنها تبحث عن شىء لا تحققه لأنها لا تعرف ما هو . فلما رأته أمامها على هذه الحال قالت فى شىء من الدهش : « ما زلت قائماً أمامى ؟ ! أتريد أن تحدثنى بشىء ؟ أفاتك من أمر التجارة شىء لم تنبئنى به ولم تقصصه على ؟ » .

قال ميسرة وقد دعاه صوت مولاته من بعد فهو حائر مرتبك : « كلا يا مولاتى ! لقد قصصت عليك من أمر التجارة كل شىء ، وما أرى أنى حدّثتك منه بجديد ! فقد سبقنى إليك محمد وجه النهار ، فأنبأك بما أتاح الله لتجارتك على يده من الربح والنماء » .

قالت خديجة : « هو ذاك ! فما قيامك إذاً فى مكانك ؟ وما اضطراب عينيك وما شرود خواطرك ؟ وما منظرك هذا الحائر الذى لم أشهده منك قط ، وما أكثر ما رحلت بتجارتى ، وما أكثر ما عدت إلى رابحاً حيناً ، خاسراً حيناً ! » .

قال ميسرة : « فإن لهذه الرحلة أنباء أخرى ما أدرى أيهمّ مولاتى أن تعرفها ! وما أدرى أينبغى لى أن أخفيها عليها أو أكتمها إياها ! وما أدرى أأستطيع إخفاءها أو أقدر على كتمانها ، وما أرى إلا أنى إن خرجت دون أن أقص على مولاتى جليتها فلن أستريح ! ولن أطمئن ولن أطعم النوم حتى أتحدّث بها إلى أحد غيرى من الناس » .

قالت خديجة وهى تشعر بشىء من الغبطة ، ولكنها تخفيه

وتكتمه ، وتظهر لمولاها السذاجة والاستهانة بما سيقص عليها من الأنباء : « وما ذاك ؟ » .

قال ميسرة : « هو أمر ابن عمك هذا الذى وكلت إليه تجارتك ، وأنبته عنك فى مالك ، وأمرتنى أن أكون له خادماً ، وعليه حفيظاً » .

قالت خديجة : « فما باله ؟ » .

قال ميسرة : « إنك لتسألين عن ذلك فى هدوء لا أستطيع أن أجيبك بمثله يا مولاتى . وإنى لأخشى أن تسمعى جوابى فتظنى بى الظنون ، وتتهميني بالجنون ، كما ظن بى غيرك الظنون ، وكما اتهمنى غيرك بالجنون . ولولا أن الأمر لم يبق بينى وبين نفسى ، وإنما شاركنى فيه من آمنه وأطمئن إليه ، لظننت بنفسى الظنون التى ظنوها بى ، ولاتهمت نفسى بالجنون الذى اتهمونى به ، ولكنى رأيت ولم يروا ، وشهدت ولم يشهدوا ، فلا بأس عليهم أن يسوء ظنهم بى ويقبح رأيهم فىّ ، ولا بأس علىّ إن أكدت لك أنى لست مجنوناً ولا مأفوناً ولا ذاهب العقل ، ولا مِضيع الصواب » .

قالت خديجة : « قد أطلت ! فأفض إلى بحديثك ، ولا تسرف فى هذا الكلام الذى لا يغنى » .

قال ميسرة : « فإنى لا أدرى كيف أبدأ معك هذا الحديث ؛ لأنى لا أعرف له بدءاً ولا أعرف له آخراً ؛ فقد اختلط أمره علىّ اختلاطاً . وأقسم لولا أنى قصصت أمره على من لا أتهم ، لما شككت فى أنى مضيع العقل ، مفرّق اللب » .

قالت خديجة : « حسبك ! فابدأ حديثك من حيث شئت أن

تبدأه ، ولكن امض فى غير هذا اللغو ؛ فقد عرفت أنك عاقل غير مجنون ، وأنت مستكمل عقلك وصوابك كله ؛ فلا تُضعْ على نفسك وعلىّ من الوقت والجهد ما نحن فى حاجة إليه » .

قال ميسرة وقد أطرق مستحيياً كأنه يجمع آراءه ويستحضر خواطره ، ثم رفع رأسه فأظهر لمولاته وجهاً يبعث الضحك والإشفاق معاً ! لكثرة ما يظهر عليه من إجهاد النفس وتعنية الضمير : « الآن قد عرفت ! » . ثم أخذ يتحدث إلى مولاته فى بطء كأنه يرى حقائق ما يقص على سيدته من الأنباء — قال ميسرة : «كان بدء ذلك يا مولاتى فى أول ليلة قضيناها بعد أن فصلت العير من مكة . فقد استقبلنا الليل فرحين مبتهجين ، لم يفارقنا النشاط ، ولم تدن منا شياطين السأم والملل . ولعلنا لم نكن نحب هذا الليل الذى وقفنا تقدّمه عن السير ، واضطرنا إلى النزول لنأخذ بحظ من راحة وهجوع . ولعلنا كنا نتعجل انقضاءه ، ونتمنى أن يسفر لنا الصبح لنستأنف الرحيل . وقد كنا نقول لأنفسنا وكان بعضنا يقول لبعض : لننتفع بهذا النشاط الذى نجده فى أول الرحلة ، فلن نمضى أياماً قليلة ولن نمعن فى السفر حتى يسعى إلينا الملال ، ويأخذ فينا الكلال ، وحتى نتلفت إلى وراء أكثر مما ننظر إلى أمام . ولكنا أذعنا لحكم الليل ، ونزلنا عن رواحلنا ، وجعل كل منا يهيئ لنفسه مضجعاً يأوى إليه . وما هى إلا ساعة حتى هدأ القوم ، وخفت الصوت ، وسكن كل شىء ، وما كنا نرى إلا ضوء القمر هذا الذى كان يغمرنا رفيقاً رقيقاً . وما كنا نسمع إلا أطيط الإبل ، وأزيز هذه

الحشرات المنبثة على سفوح الجبال من حولنا .

وأسهر أنا على محمد كما أوصيتني ، فأهيئ له مضجعه ، وأسعى إليه مرة ومرة ، لأدعوه إلى الراحة وأحرّضه على النوم ، ولكني أراه جالساً مكانه لا يريم ولا يتحوّل ، وقد رفع وجهه إلى السماء ، وأغرق فى صمت متصل كأنما كان يفكر فى أمر عظيم ، أو يدبر فى نفسه شؤوناً ذات بال . وكنت كلما دنوت منه ورأيته على هذه الحال لم أجرؤ على أن أحدثه أو أقطع عليه صمته وتفكيره . فلما طال به مجلسه ، وتكرر منى السعى إليه ، لم أجد بدًّا من أن أتكلف شيئاً من الجهد فأسأله : " أليس فى حاجة إلى أن يستريح ؟ ! " . ولكنه يجيبنى فى رفق أنه سيلتمس الراحة متى أحس الحاجة إليها ، وأنى أستطيع أن أشغل بنفسى عنه الآن ! فأنصرف عنه وأحاول النوم دون أن تطمئن نفسى إلى الإغراق فى النوم » .

ثم يسكت ميسرة لحظة ، ثم يستأنف الحديث وقد ظهرت على وجهه آيات العجب والحيرة والإشفاق أن تظن به مولاته الظنون ، فيقول : « ويخيل إلىّ يا مولاتى أنى قد أخذت أسعى إلى النوم أو أخذ النوم يسعى إلىّ . وإنى لفى هذه الحال الحلوة الغريبة التى لا يعرف صاحبها أنائم هو أم يقظان ، وإذا أنا أرى كأنى أسمع حواراً غريباً ما سمعت مثله قط ، وما قدرت قط أنى سأسمع مثله ، وما كان ينبغى لى ولا لأحد غيرى أن يقدّر ذلك أو يفكر فيه أو يُخطره لنفسه على بال ! فقد كان الحوار بين هذا القمر المضىء وهذه الأرض المظلمة الساكنة » .

ثم ينظر إلى مولاته فإذا هى تصغى إليه معنية بحديثه أشد العناية، لا يظهر على وجهها إنكار ولا سخرية . فيبتهج العبد بما يرى ، ويجد فى إصغاء مولاته إليه وعنايتها به مشجعاً على الحديث ، فيقول : « هذه أول مرة أقص فيها هذا النبأ فلا أسمع ضحكاً ولا استهزاء ، ولا أرى آيات السخرية وعلامات الإعراض . سمعت إذاً هذا الحوار الغريب القصير يا مولاتى ، فاستويت جالساً ، ولم أذق النوم من ليلتى ! لأن نفسى قد امتلأت عجباً لما سمعت ، وإكباراً لهذا الحلم الشاذ » .

قالت خديجة : « وما ذاك ؟ ماذا سمعت ؟ » .

قال : « سمعت كأن القمر يقول للأرض : " وددت لو استطعت أن أمهد له من أشعتى هذه المشرقة اللينة الرطبة وطاء وثيراً ؛ فإنى أخشى عليه أديمك الصلب ومسك الغليظ " . وسمعت الأرض تجيب القمر قائلة : " إن يكن أديمى صلباً ومسّى غليظاً فإنى أعرف كيف ألين له ، وأرفق به وهو سيد من مشى علىّ منذ كنت . ولكن قل لأختك الشمس ترفق به إذا كانت الظهيرة ورمت أشعتها باللهيب " . وأسمع صوتاً ثالثاً يقول : " لا عليكما ! فإن الذى آثره بالكرامة ، وفضله على الخلق كله ، خليق أن يحميه من كل شىء ، ويعصمه من كل ضر ، ويردّ عنه الأذى مهما يكن مصدره " .

« وأستوى يا مولاتى جالساً ، قد امتلأ قلبى رعباً وعجباً لما رأيت وما سمعت . ومن الحق أنى لم أسمع ذكر محمد ، ولكنى لم أشك فى أنه كان المعنىّ بهذا الحوار . وإنى — كما تعلمين — رجل ساذج

جاهل ، لم أقرأ الكتب ، ولم أسمع للعلماء ! ولكنى على ذلك أنكرت ما رأيت وما سمعت ، وقدّرت أن أمرك لى وإلحاحك علىّ فى أن أعنى بابن عمك ، وأن أهوّن عليه مشقة السفر ، وأردّ عنه عواديه وأذاته ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، هما اللذان شغلانى به ، ووقفا تفكيرى عليه .

« فأقبلت على النوم وإنى لأشفق عليه برد الليل وحر النهار فى هذه الصحراء ، ولم أحدث أحداً بما رأيت وما سمعت . وفيم أحدث الناس به وقد عرفت أصله ورددته إلى مصدره ؟! ولكنى أقوم الليل كله غير بعيد من ابن عمك هذا الذى لا يبرح مجلسه ولا يتحول عنه ، ولا يذوق من النوم إلا إغفاءة لا تطول . فلما أسفر الصبح استأنفنا الرحيل ، وإذا ابن عمك أعظمنا قوة ، وأشدنا نشاطاً ، لا يظهر عليه جهد السفر ، ولا مشقة هذا السهر المتصل .

« ونمضى فى طريقنا تندفع بنا الإبل هادئة سريعة ، ونشغل أنفسنا بالحديث عما تركنا وراءنا ، وعما نحن مقبلون عليه ، وقد ارتفع الضحى ، وزالت الشمس ، وكانت الهاجرة ، واشتد الحر ، وخمدت له النفوس ، وخفتت له الأصوات ، وسكن له من حولنا كل شىء ، وأنا مشفق على ابن عمك من هذه الهاجرة ، أفكر فى أن أسعى إليه وفى أن أحتال لعلى أظله فأقيه بعض هذا الحر ، فأحث بعيرى حتى أدنو منه ، ولا أكاد أنظر إليه حتى يكاد يصعقنى العجب لروعة ما رأيت ! فقد رأيت ابن عمك يسعى به بعيره ، وإن عن يمينه وشماله لشخصين ما أتبينهما وما أحقق صورتهما ،

ولكنهما يظللان عليه وهو باسم الثغر ، مشرق الوجه ، وضاء الجبين ، لا يظهر عليه جهد ولا تبدو عليه آية ملال أو كلال ، إنما هو هادئ مطمئن مغرق فى الصمت والتفكير .

« وما قضيت العجب يا سيدتى مما رأيت ، ولكنى جعلت أنظر وأنظر ، ثم أسأل من حولى من الناس : ألا ترون محمداً ؟ فيقولون : بلى ! إنا لنراه وما نرى بأساً . فأقول : أما ترون حوله شيئاً ؟ فيقولون : كلا ! ما نرى حوله شيئاً . فأقول : أما ترون إليه لا يظهر عليه جهد ولا أين ؟ فيقولون : حديث عهد بالرحلة ، مكتمل القوة ، موفور النشاط ، وسيبلغ منه الجهد والأين بعد حين ، ولكنى أدنو منه فأسأله : ألا يجد جهداً ؟ ألا يحس مشقة ؟ ألا يحتاج إلى شىء ؟ ولكنه يجيبنى فى هدوء ورفق بأنه على خير ما يحب . وما أزال أنظر إليه وإلى هذين الشخصين يظللان عليه ، وما أشك فى أنى أراهما وحدى ، ولا يراهما أحد غيرى . وما أدرى أكان محمد يحس مكانهما منه وعنايتهما به ، أم كان عن ذلك منصرفاً مشغولا . حتى إذا خفت حرارة الشمس وأقبل نسيم الأصيل ، نظرت إلى محمد فإذا هو يسعى به بعيره كغيره من الناس لا يحف به هذان الشخصان اللذان كنت أراهما منذ حين ، وهو كعهدى به باسم الثغر ، مشرق الوجه ، مطمئن ، مغرق فى الصمت والتفكير .

« وأتهم نفسى بشىء من اضطراب العقل وذهاب اللب ، فأكتم أمرى ، ولا أظهر أحداً عليه . حتى إذا كان الغد لاحظت محمداً

كما لاحظته أمس ، فإذا هو كعهدى به أعظمنا قوة ، وأشدنا نشاطاً ، لا يظهر عليه جهد ولا أين . وأنتظر مقدم الهاجرة وارتفاع الظهيرة ، فما نكاد نعود إلى مثل ما كنا فيه من الإذعان الأليم لهذا القيظ المحرق ، حتى أرى ابن عمك كما رأيته أمس يسعى به بعيره بين هذين الشخصين اللذين كانا يظللان عليه . وما أطيق لهذا الأمر احتمالا ، وما أستطيع عليه صبراً ، فأتحدث به إلى من حولى وألفتهم إلى ابن عمك ، فينظرون إليه ، ثم يضحكون منى ، ثم يقولون : لقد عبثت بك شياطين الصحراء ، ومع ذلك فليس هذا أول عهدك بالطريق . فإذا لفتهم إلى نشاط محمد وإشراق وجهه ، وهدوء نفسه وجسمه ، وإلى ثغره الباسم وجبينه الواضح ، نظروا إليه فملئوا عيونهم منه ، ثم قالوا إنه الأمين ، وإن أمر الأمين ليدعو إلى العجب ، ويملأ القلوب له إعظاماً وإكباراً . وأغرب الأمر يا مولاتى أنى كنت أرى ذلك ولا أستطيع أن أسأل محمداً عنه أو أتحدث إليه فيه . وكثيراً ما هممت بذلك فحثثت مطيتى حتى دنوت منه ، ولكنى أحس لسانى ينعقد كلما حاولت أن ألقى عليه سؤالا ، أو أسوق إليه حديثاً .

« ولم يكن هذا شأنى وحدى ، وإنما كان شأن الذين رافقونا فى هذه الرحلة ؛ فقد كانوا يسمعون لى ويعرضون عنى ضاحكين حيناً ، باسمين حيناً آخر . ويتحدث به بعضهم إلى بعض يسخرون منى ، ولم يخطر لواحد منهم ، أو لم يستطع واحد منهم أن يسعى ببعض هذا الحديث إلى محمد فيسأله عنه أو يحاوره فيه . وما أقل ما كنا نتحدث إلى محمد فى أى شىء من الأشياء ! فقد كانت قلوبنا

تمتلىء هيبة له حتى ما ترتفع إليه أبصارنا وما ترقى إليه أصواتنا إلا أن يبدأنا هو بالنظر والحديث فنجيبه ، وإن أصواتنا وأبصارنا لتمتلىء حبًّا له وعطفاً عليه .

« وكذلك أنفقنا أيام الرحلة إلى الشام ، ما ارتفعت الظهيرة قط إلا رأيت هذين الشخصين الغريبين يسايران ابن عمك فى الهواء حافين به ، مظللين عليه ، حتى إذا بلغنا بصرَى وأردنا أن نعرض تجارتنا فى سوقها ، سألت محمداً أن يأذن لى فى أن أزور راهباً تقوم صومعته غير بعيدة من السوق . وكنت قد تعودت ألا آتى بصرَى إلا ألممت به قبل أن أعرض تجارتى ! لأنى أجد من قلبى إليه ميلا ، وأنتظر من زيارته بركة وخيراً ، وأنا رجل نصرانى كما تعلمين يا سيدتى ، أحب الرهبان ، وأكبر الأحبار . فيأذن لى محمد فى أن ألم بصومعة صاحبى ، وينتظرنى فى ظل شجرة قريبة من الصومعة . وما أخفى عليك يا مولاتى أنى كنت أريد أن أسأل " نسطور " الحبر عما رأيت من أمر محمد هذا ! فقد كنت أخشى على نفسى الجنون ، وأخاف أن يكون قد مسها طائف من الشيطان . وكنت أريد أن أستعين ببركة هذا الشيخ على البراءة من هذه العلة الطارئة والمحنة العارضة . ولكنى لا ألبث أن أستبشر ويمتلىء قلبى غبطة وحبوراً . فما أكاد ألقى " نسطور " وأبدؤه بالتحية حتى يسألنى عن صاحبى هذا الذى جلس فى ظل تلك الشجرة : من هو ؟ فما أكاد أذكر اسمه حتى يسألنى : أفى عينيه حمرة لا تفارقها ؟ فما أكاد أجيبه أن نعم ، حتى ينظر إلىّ مشرق الوجه ويقول لى

مبتهجاً لا يكاد يملك نفسه من الفرح : " إنه لنبي هذه الأمة ؛ فما جلس قط تحت هذه الشجرة إلا نبيّ " .

« ومهما أكن ساذجاً ، ومهما أكن قليل العلم ، فإن حديث " نسطور " لم يملك عليّ نفسي ولم يقنعني ! فأنا أسأله ضاحكاً : ما علمك بذلك ؟ شجرة قائمة منذ عهد قريب أو بعيد قد امتدّت غصونها ، فأظلت جانباً من الأرض . فما أكثر الذين يأوون إليها ، ويستظلون بها إذا اشتدت حرارة الشمس !

« قال نسطور باسماً وقد وضع يده على كتفي : " أتذكر أنك رأيت هذه الشجرة عام أول ؟ " .

« قلت : " ما أدرى ، وما أكثر ما رأيت من الشجر ، وما أنا بقادر على أن أحصى منها كل ما رأيت " .

« قال نسطور : " أتذكر أنك رأيتها حين أقبلت على بصرى مع الصباح ؟ " .

« قلت : " ما أدرى ! ولكني رأيتها حين أوى إليها سيدى " .

« قال نسطور : " فإذا انطلقت مع سيدك إلى السوق لتعرضا تجارتكما فتخلف عنه وعد إلى مكان هذه الشجرة ؛ فإن رأيتها حيث تراها الآن فاعلم أني لم أصدقك الحديث ، وإن لم ترها فهذا تأويل ما قلت لك " .

« ثم اتسعت ابتسامة نسطور على ثغره ، وقال : " ومع ذلك فما لك لاتسأل رفاقك من أصحاب العير عن هذه الشجرة ! فما رآها منهم أحد ، وما يراها الآن منهم أحد " .

« قلت : " لا والله ، لا أسألهم عن شيء بعد الذى لقيته منهم فى أثناء الطريق " .

« قال نسطور وهو يضحك : " والذى ستلقاه منهم فى أثناء القفول . إن لصاحبك هذا لشخصين موكلين به يظللان عليه إذا اشتدت الهاجرة " .

« قلت : " وتعلم ذلك ؟ " .

« قال : " لم أستكشفه يا بنىّ ، ولكنى أجده عندنا فى الكتب ، وقد سمعته من أحبارنا ورهباننا . فارْعَ سيدك ، وأخلص له الحب ، واصْدُقْ فى العناية به ؛ فإنى لأوَدّ لو أن لى أن أقوم منه مقامك . ولكن لله حكمة بالغة ، والله يدبر الأمر ويجريه كما يريد لا كما نريد " .

« قلت : وقد كدت أطير فرحاً : " لأسرعنّ إلى محمد فلأنبئنه بما تقول " .

« قال : وهو يضحك فى شيء من الحزن الهادئ العميق : " حاول من ذلك ما شئت ! فلن تستطيع ، ولن يستطيع أحد أن يتحدث إلى محمد منه بشيء . إن الله يدبر الأمور ويجريها كما يريد لا كما نريد . ولن ينبئ محمداً بما كتب الله له من كرامة ، وما خبأ له الغيب من عظائم الأمور أحد من الناس ، وإنما الله وحده هو الذى ينبئه بذلك متى أراد وكيف أراد " .

«؛ وأنصرف عن "نسطور" يا سيدتى ، وفى نفسى أن أتحدث إلى محمد بما رأيت وما سمعت على رغم ما زعم لى "نسطور". ولكنى لا أكاد

أبلغه حتى يتصل بينه وبينى حديث التجارة دون غيره من الأحاديث . ونمضى إلى السوق ، وأخالف عن محمد حيناً فأعود إلى الصومعة لأنظر إلى الشجرة فلا أرى شجرة ولا شيئاً يشبه الشجر ، وإنما أرى " نسطور " قائماً أمام صومعته ينظر إلىّ ويضحك لى ، ثم يتولى إلى صومعته وعلى وجهه بعض الكآبة والحزن . وأسرع الى محمد فأبلغه فى السوق ، وإن بينه وبين أحد النصارى لخصومة واختلافاً فى بعض الأمر ، والنصرانى يسأل محمداً أن يقسم باللات والعزى ، فإذا محمد يجيبه فى صوت هادئ ما سمعت قط شيئاً يشبهه عذوبة وليناً : " ما حلفت بهما قط ، وإنى لأمرّ بهما فأعرض عنهما " . فيقول النصرانى له : " القول قولك " . ثم يتحول إلىّ فيهمس فى أذنى قائلا : " هذا والله نبىٌّ تجده أحبارنا منعوتاً فى كتبهم " .

« وقد علمت يا سيدتى ما أتاح الله لتجارتك من ربح ، ولمالك من نماء .

« وقد قفلنا إلى مكة فأرى من محمد فى أثناء القفول ما رأيت فى أثناء الشخوص . ولكنى أنعم بذلك ولا أعجب له ، وأكتم ذلك فى نفسى ، ولا أفضى به إلى أحد ، وقد اطمأنت إلى عقلى ، ووثقت بصوابى . حتى إذا بلغنا مرّ الظهران قلت لمحمد : تقدم فاسبقنى إلى خديجة ؛ فأنبئها بما أتاح الله لها من الخير على يديك ! فإنها تعرف لك ذلك » .

ولم يقع فى نفس خديجة قبل ذلك اليوم حديث موقع ذلك الحديث . ولم يحس قلب خديجة قبل ذلك اليوم سروراً مثل هذا

السرور الذى تجده . ولم يشرق وجه خديجة قبل ذلك اليوم كهذا الإشراق الذى يشهده ميسرة فيمتلئ قلبه به إعجاباً يوشك أن يكون فتوناً .

ولكن خديجة تملك نفسها وتضبط أمرها ، وتقول لمولاها فى هدوء وحزم : « لقد رأيتُ بعض ما رأيت ، وأبصرتُ هذين الشخصين يظللان على محمد حين أقبل علىّ منذ حين . ولقد أنبأنى بربح تجارتى ونماء مالى ، فسمعت منه وأثنيت عليه ، ولكنى لم أعرف له ذلك كما قدّرت . اذهب إلى ابن عمى ورَقة بن نوفل ، فأنبئه بأنى أودّ لو أراه ، ثم أخرج للفقراء والبائسين حقهم من هذا المال الذى رجعت به من الشام » .

٤

وكان ورقة بن نوفل حازماً عازماً رجلَ صدْق ! قد شهد مواطن قريش ، وشارك فى مفاخرها ومآثرها . ولكنه أنكر فى نفر من قومه أولى حزم وعزم ، وأصحاب فقه وبصر بالأمور ، ما كانت عليه قريش من باطل وجهل ، وما كانت تمعن فيه من عبادة هذه الأوثان التى لا تملك لها نفعاً ولا ضرًّا ، ولا تغنى عنها من الله شيئاً . وكان قد أجمع مع أصحابه أن يُعرضوا عن غىّ قريش وباطلها ، وأن يلتمسوا الخير لأنفسهم ما وجدوا إليه سبيلاً . وكان قد رحل مع صديقيه زيد بن عمرو وعثمان بن الحويرث إلى بلاد الروم يلتمسون فيها الدين الصحيح ، ويبغون فيها لأنفسهم خيراً .

فلما تحدثوا إلى الأحبار والرهبان وسمعوا منهم ، مال ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث إلى دين المسيح فآمنا ، وشكّ زيد بن عمرو .

ولكن ورقة بن نوفل إن أحب النصرانية وأمعن فيها فقد كان لقومه محبًّا ، ولوطنه مؤثراً ، وعلى ما ألف من عاداته المحمودة وسننه الكريمة حريصاً ؛ فلم يمعن مع صاحبه عثمان بن الحويرث فى بلاد الروم ، ولم يذهب إلى قسطنطينية ، وإنما حفظ من النصرانية ما حفظ ، ووعى من علم الأحبار والرهبان ما شاء الله أن يعى ، ثم عاد بهذا كله إلى مكة ، فأقام فيها آمناً وادعاً ، فارغاً لدينه ونفسه ، لا يعرض لأحد ، ولا يحب أن يعرض له أحد . وعرفت قريش ذلك فأحبته

وآثرته بالكرامة ، واستشارته فيما كان يحزبها من أمر ، وأطاعته فيما كان يعرض عليها من رأى . وكان أصفياؤه وذوو خاصته يقدرونه ويُكبرونه ، ولا يكادون يصْدُرون فى تدبير أمورهم إلا عن مشورته .

فلا غرابة فى أن تفكر ابنة عمه خديجة فى أن تسأله عما رأت وما سمعت من هذه الأحداث العظام والآيات الكبار ، وهو الذى انتهى إليه علم أهل الكتاب فى مكة . ولعل خديجة كانت تريد أن تسأله فى أكثر من ذلك لو أنها تعمقت دخيلة نفسها الطاهرة ، وعرفت أسرار قلبها الكريم ! ولكنها حين أرسلت تستزيره لم تكن تريد إلا أن تعلم منه علم هذه الآيات .

وقد أقبل عليها ورقة مع الليل معتذراً من إبطائه عليها بما كانت تعلم من اشتغال قريش بعودة العير ، وانصراف أهل مكة إلى ما كانوا ينصرفون إليه فى هذا اليوم من ألوان الفرح والمرح والابتهاج ، وما كان يجب على المقيمين فى مكة من الإلمام بالعائدين إليها .

فلما استقر المجلس بورقة قالت له خديجة : « إن عندى أنباء قد أهمّنى أمرها ، وما أرى إلا أنه يهمك كما أهمنى ، ولعله يعنيك أكثر مما عنانى » .

قال ورقة : « وما ذاك ؟ » .

قالت : « فإنك تعلم أنى أرسلت فى تجارتى هذا العام محمد ابن عبد الله » .

قال ورقة : « نعم ! وقد يظهر أن شؤوناً غريبة عرضت له فى بعض الطريق » .

قالت خديجة : « أوَ علمت ؟ » .

قال ورقة : « سمعت من ذلك أطرافاً ؛ فقد كان رفاقه يتحدّثون بأمر ميسرة وبما كان يزعم لهم ؛ ومنهم من يظهر العجب لذلك ، ومنهم من يمعن فى إنكاره . وقد سألت ميسرة ، فأفضى إلىّ بحديثه كله ، وقص علىّ ما سمع من نسطور » .

قالت خديجة : « فإن أنبأتك بأنى رأيت مثل ما رأى ميسرة ، وبأن نسائى رأين مثل ما رأيت ؟ » .

قال ورقة : « فإنى أصَدقك وأصدق نساءك ، كما صدّقت ميسرة حين سمعت منه هذه الأنباء » .

قالت خديجة ، وقد ظهر على وجهها العجب والرضا معاً : « تصدّقنا ولم تر مثل ما رأينا ؟ » .

قال : « نعم ! لأنى أنتظر مثل هذه الآيات من عهد بعيد . وما رأيت راهباً ولا حبراً من الذين انتهى إليهم علم الكتاب فيما جبت من بلاد الروم إلا تحدّث إلىّ بأن هذه القرية مبعث نبى يخرج من أهلها ، وبأن زمانه قد أظلنا ، وبأن بشائره قد أخذت تظهر ويقفو بعضها إثر بعض . وهم قد أقرءونى ذلك فى كتبهم ، وهم قد حدثونى بذلك عن شيوخهم وأساتذتهم . وما أخفى عليك يا ابنة عم أنى قد أمعنت فى النصرانية إمعاناً شديداً ، وأن قلبى قد تحدّث إلىّ فى بعض أوقاته ببعض الأمل ، ولكنى لم ألبث أن رجعت إلى الحزم والعزم والبصيرة ! فإن لهذا الرجل الذى يبعث من هذه القرية علامات وآيات ، منها ما يلزمه ولا يفارقه ، ومنها ما يسعى بين يديه .

وليس لى من هذه العلامات والآيات حظ ، فأنا أنتظر كما ينتظر غيرى من علماء أهل الكتاب . ولو أن ميسرة لم يحدثنى إلا بما رأى لكنت خليقاً أن أصدقه وأن آمنه على هذا الحديث . فقلبه أدنى إلى السذاجة ، وعقله أدنى إلى السماحة ، وطبعه أقرب إلى السهولة واليسر من أن يتكلف الكذب ، أو ينتحل الحديث ، أو يدبر المكر تدبيراً . ولكنه لم يحدثنى وحده بهذا الذى رأى ، وإنما حدثتنى أنت به أيضاً ! فقد رأيت ورأت نساؤك . على أن ميسرة قد حدثنى بحديث نسطور . وإنى لأعرف من أمر نسطور ما أعرف : وهو رجل صالح صادق ، عالم بما يأتى وما يدع ، لا يقول إلا عن علم ، ولا يصدر إلا عن رأى وثقة » .

قالت خديجة : « فأنت إذاً ترى لمحمد شأناً ؟ » .

قال : « ما أشك فى ذلك . ولكنى لا أدرى متى يكون هذا الشأن ، وإنى لأنتظره ، وإنى لأتعجله ، وإنى لأريد أن أتحدث إلى محمد فيه ، فلا أجد إلى ذلك سبيلا ما لقيته قط . فما هممت بالتحدث إليه فى أمر الدين إلا انعقد لسانى عن الحديث ، وانصرفت نفسى عما كنت أريد أن ألقى إليه » .

قالت خديجة : « وما ذاك ؟ وكيف تؤوّله » .

قال : « تأويله يا ابنة عم أن الله يريد أن يستأثر بإنباء محمد بما كتب له من كرامة ، وما هيأ له من أمر عظيم . وهو لا يريد أن ينبئه بذلك إلا حين يبلغ الكتاب أجله ، وينتهى الأمر إلى إبانه » .

قالت خديجة : « فإنى لا أفهم ظهور هذه البشائر والآيات

لبعض الناس دون بعض ، وانجلاء هذه الحقائق والمعجزات لبعض القلوب دون بعض » .

قال ورقة : « لو شاء الله لأظهر هذه الآيات للناس جميعاً ، ولو شاء الله لما أظهر من هذه الآيات شيئاً لأحد من الناس . أترين أن الله لم يكن قادراً على أن يقى محمداً حر الهاجرة دون أن يرسل إليه هذين الملكين يظللان عليه ؟! أترين أن الله لم يكن قادراً أن يحجب هذه الآية عن ميسرة كما حجبها عن رفاقه الذين كانوا يسايرونه فى العير ، كما حجبها عن محمد نفسه فى أكبر الظن ؟! كلا يا ابنة عم ! إن قدرة الله لأوسع من ذلك وأشمل ، وإنه ليظهر من آياته ما يشاء ، كما يشاء ، لمن يشاء ؛ لأن له فى ذلك حكمة بالغة ، وأرباً قد تعجز عقولنا عن فهمه وتعيا معرفتنا عن تأويله . وانظرى من حولك يا ابنة عم ، فما أكثر ما يتغير من الأشياء ! وما أكثر ما نرى من الأمر فننكره ونعجب له ! ولكننا لا نستطيع له رفضاً ولا ردًّا ! لأنه الحق الواقع الذى لا نستطيع أن نمارى فيه .

« إنك لتعرفين من أمر عبد المطلب ما تعرفين ، وما أرى أنك نسيت قصص عبد الله . وما أشك فى أن ما يحيط بمحمد من غريب الأمر قد انتهى إليك كله أو أكثره . أفرأيت أسرة من قريش قد اجتمع لها مثل ما اجتمع لآل عبد المطلب ، وألمّ بها ما ألمّ بآل عبد المطلب ؟ » .

قالت خديجة : « لا ! وإنى فى ذلك لكثيرة التفكير ، أعجب ببعضه ، وأرثى لبعضه ، وأقف من بعضه حائرة بين الإعجاب والرثاء » .

قال ورقة : « وكذلك أكثر الناس يا ابنة عم ، يرون ويعجبون ، ثم ينسى أكثرهم ، ولا يذكر منهم إلا الأقلون » .

ثم أطرق ورقة إطراقاً طويلا حتى خيل إلى خديجة أنه قد نسى مكانه منها ومجلسه عندها ؛ ولكنه رفع إليها وجهاً قد تحدّرت عليه بعض الدموع ، وقال فى صوت متهدج : « فلنر كما يرى الناس ، ولنعجب كما يعجبون ، ولكن لنجتهد فى ألا ننسى ؛ فإن الذكرى قد تنفع فى يوم من الأيام ، وهى بعدُ الخصْلةُ التى تميز القلب الكريم » .

وهمّ أن ينهض ، ولكن خديجة استبقته قائلة : « أقم فإن حديثى لما ينته » .

قال ورقة : « أقدمى يا ابنة عم على ما تُديرين فى نفسك ، لا تحجمى ولا تترددى ! فأنت أسعد نساء قريش ، بل أسعد نساء الأرض إن أتم الله لك ما تتمنين » .

قالت خديجة دهشة : « وقد علمتَ هذا أيضاً ؟ ! » .

قال ورقة وهو ينهض : « عمى مساءً يا ابنة عم ، وتلطفى فى تدبير أمرك ! فإن أحسست التوفيق لما تحبين فآذنينى بذلك ! فإنى أتمنى أن تكون لى يد ما فى هذا الزواج الذى سيكون له فى حياة الناس أسعد الأثر وأبقاه » .

٥

تحدّث ابن سعد بإسناده[١] : أن نفيسة بنت منية قالت : « كانت خديجة بنت خويلد بن عبد العزّى بن قصيّ امرأةً حازمة جلدة شريفة ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى يومئذ أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالا ، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدَر على ذلك ، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال . فأرسلتنى دسيساً إلى محمد بعد أن رجع فى عيرها من الشام . فقلت : يا محمد ، ما يمنعك أن تزوّج ؟ فقال : ما بيدى ما أتزوّج به . قلت : فإن كفيتَ ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : فمن هى ؟ قلت خديجة . قال : وكيف لى بذلك ؟ قلت علىّ . قال : فأنا أفعل . فذهبت فأخبرتها ، فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا ، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوّجها ، فحضر ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمومته ، فزوّجه أحدهم » .

وشهد هذا الحفل اليسير العظيم أبو طالب الذى كان يقوم دون محمد ويرعاه ، وورقة بن نوفل الذى كان ينصح خديجة ويخلص لها الوفاء .

فلما أصبح الملأ من قريش غدوا إلى مجالسهم وأنديتهم من

(١) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٨٤ طبعة ليدن .

المسجد ، وأخذوا فى أحاديثهم . فقال قائل منهم : « ألم يبلغكم النبأ يا معشر قريش ؟ »

قالوا : « وما ذاك ؟ »

قال : « فإن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ذلك الذى كان يرعى لنا الغنم بالقراريط إلى وقت قريب ، قد تزوّج من خديجة بنت خويلد بن أسد » .

قال شيخ من شيوخ قريش : « ويحك يا ابن أخى ! إنه لابن عبد المطلب ، وإنه للأمين . وأى قريش أكفأ لخديجة من ابن عبد المطلب ! وأىّ قريش يستطيع أن يسامى الأمين !! » .

حَدیث باخوم

١

أخذ القوم يرفعون أيديهم عن الطعام ، وجعلوا كلما تحوّل واحد منهم عن المائدة ممتلئاً ثقيلا سعى هادئاً رفيقاً ، لا تكاد قدماه تحملانه ، كأنما أثقله ما ازدرد من الطعام والشراب ، حتى إذا تخطى عتبة الدار اتخذ مجلسه أو ألقى نفسه إلقاء فى هذا الميدان الفسيح الذى كان يمتد فيه البصر إلى غير مدى ، والذى كان ينحدر فى يسر وأناة حتى يبلغ النيل . وما هى إلا ساعة حتى كان القوم جميعاً قد أخذوا أماكنهم أمام الدار ، وبدءوا حديثاً خافتاً بطيئاً متقطعاً أول الأمر ، ولكنه يرتفع ويسرع ويتصل ، ويزداد حظه من الارتفاع والسرعة والاتصال ، كأنما كان ذلك يقدّر بما يكون من استقرار الطعام والشراب فى أجوافهم شيئاً فشيئاً ، وتوفر معداتهم على الهضم قليلا قليلا .

وليس من شك فى أن هذا النسيم العليل الذى كان يهب عليهم من الشمال رفيقاً رطباً ، قد أعانهم على هضم ما ازدردوا ، وردّ عليهم شيئاً من النشاط الذى كانوا فى حاجة إليه ، ليتصل بهم المجلس شطراً من الليل ، وليأخذوا فى أسمارهم كما تعودوا أن يفعلوا كلما دعاهم صديقهم « يوحنا » إلى الطعام .

وكان « يوحنا » أكثر أهل القرية مالا ، وأعظمهم ثراء ، وأوسعهم أرضاً ، يعمل فى زراعته الفقراء من شباب القرية الذين لا يملكون أرضاً ، يفرغون لها ، ويقفون جهودهم عليها . وربما احتاج

فى بعض المواسم والأوقات إلى عدد أكثر من هؤلاء الذين كانوا يجدهم فى قريته ، فيجلب العمال والفلاحين من القرى المجاورة . وقد كان بعضهم يسمع بثروة « يوحنا » وكرمه ورفقه بالعاملين فى أرضه وسخائه عليهم ، فيقصد إلى هذه القرية من بعيد ، ليعمل عند هذا الرجل الذى لم يكن يشبه الكثير من أغنياء الإقليم وأصحاب الثروة فيه .

وكان « يوحنا » قد عوّد نفسه البر بأهل قريته ، والتوسعة عليهم بين حين وحين ، لا يعرف أن أحداً منهم قد مسه الضر ، أو اشتدت عليه الحال ، إلا أعانه وأغاثه وأنجده ، يكتم ذلك ما وسعه الكتمان ! كأنما كان يستحيي من أن يعرف الناس عنه بره وكرمه ، ولكن الناس كانوا يعلمون منه ذلك ويتسامعون به . وكان صنائعه يرون من شكر الصنيعة ومعرفة الجميل أن يذيعوا إحسانه إليهم ، وأياديه فيهم .

وكان « يوحنا » على ذلك لا يكتفى بهذا البر المكتوم يبذله لأهل قريته كلما احتاجوا إليه ، وإنما كان يدعوهم من حين إلى حين إلى طعام عام يقدمه إليهم فى أيام كانوا يرونها أعياداً ، وكانوا يستجيبون لدعوته ولا يتخلفون عنها ، سواء فى ذلك الميسور والمقتّر عليه فى الرزق ، يرون ذلك نعمة منه عليهم ، وحقّاً له فى أعناقهم . وكانوا إذا أخذوا حظهم من الطعام والشراب فرغوا للأحاديث والأسمار فقضوا فيها شطراً غير قصير من الليل ، ثم تفرقوا موفورين محبورين ، تخفق قلوبهم بالحب له ، وتنطلق ألسنتهم بالثناء عليه .

وكانوا فى هذه المرة فى مساء يوم من أيام الآحاد ، لم يجهدهم العمل ، ولم يضنهم الكدّ ، وإنما قضوا يومهم فارغين ، قد خلصوا

لحياتهم الخاصة ، وانتظروا هذه الوليمة التى كانوا يترقبونها منذ أيام ، وألموا بكنيستهم المتواضعة فأدوا صلاتهم ، واستمعوا لوعظ القسيس . وكان قسيسهم شيخاً متهالكاً قد تقدّمت به السن ، وثقلت عليه الحياة ، وأدرك عقله شيء يسير من ضعف كان ربما دفعه إلى بعض التخليط ، وأغراه إلى أن يتحدث إليهم بغير الصواب . وكانوا على ذلك يحبونه ويكرمونه ، ويرعون له طول عهده بهم ، واتصال إقامته فيهم ، وكثرة ما صنع بهم من معروف ، وما أحسن الوساطة بينهم وبين الله . فكانوا إذا سمعوا منه بعض التخليط ابتسموا مشفقين عليه رفيقين به . وربما قسا عليه شبابهم من حين إلى حين ، فأظهر شيئاً من سخرية ، وأعلن شيئاً من اعتراض . وكان القسيس يلقى من أهل القرية حباً بحب ، ووفاء بوفاء . وما له لا يفعل وشيوخ القرية إخوته الصغار ، وشباب القرية أبناؤه الذين شهد مولدهم ، وقدس زواجهم ، وتلقى أبناءهم على اختلاف أسنانهم ، منهم من لا يزال فى المهد ، ومنهم من جعل يدرج ! ومنهم من أخذ يختلف إلى الحقول . ولم تكن قسوة الشباب عليه تؤذيه أو تبلغ نفسه الطيبة وقلبه الحليم ، وإنما كان يلقاها بكثير من العفو والإسماح . وربما مكر بالشباب مكراً فدفعهم إلى أن يعبثوا به ويقسوا عليه بعض الشيء ؛ يرى فى ذلك دعابة تسرّه وتسر من حوله من أبنائه وأحبائه .

فلما أخذ القوم فى حديثهم تلك الليلة بعد العشاء انبرى شاب من شباب القرية كان معروفاً بالدعابة وخفة الروح ، فقال للقسيس فى هزل يشبه الجد : « لقد روّعتنا يا أبانا منذ اليوم بما قصصت

علينا من حديث الشيطان وما عرضت علينا من صوره الغريبة البشعة ! فما قدّرتُ قط أن للشيطان هاتين الأذنين الطويلتين ، وهذين القرنين المحددين ، وهذه الأرجل الثمان التي قسمت بين ظهره وبطنه ، والتي تتيح له أن يسعى مرة ووجهه إلى الأرض وأن يسعى مرة أخرى ووجهه إلى السماء » .

قال فتى آخر من فتيان القرية : « فقد كان ينبغي أن تكون له أرجل ثمان أخرى : أربع منها عن يمين ، وأربع منها عن شمال ! ليستطيع أن يسعى على أي جنبيه شاء ، كما يستطيع أن يسعى على بطنه حيناً ، وعلى ظهره حيناً آخر » .

قال فتى ثالث : « وقد ينبغي أن يتاح للشيطان أن يسعى على قرنيه مرة وعلى ذنبه مرة أخرى » .

قال فتى رابع : « فأنتم تريدون أن يكون الشيطان كله أرجلا إذاً ! فهلا تركتم من جسمه موضعاً للجناحين ! فقد ينبغي أن يكون له أجنحة يطير بها في الهواء، لينقل الشر بها في أقصر وقت وأيسره من قطر من أقطار الأرض إلى قطر ، ومن جيل من أجيال الناس إلى جيل » .

وتضاحك القوم جميعاً ، فأغرقوا في الضحك ، ولم يكن قسيسهم الشيخ أقلهم ضحكا . ولكن الفتى الأول اتجه إلى أبيه القسيس الشيخ وقال في صوت غليظ وضحك عريض : « أرأيت الشيطان قط يا أبانا ؟ وعلى أي شكل من هذه الأشكال رأيته ؟ »

قال القسيس الشيخ في صوت هادئ نحيف يبطئ به الكبر ، ويكاد يهدّه الضحك هدّاً : « لم أر الشيطان قط يا بني ، وما ينبغي

لمثلى أن يراه ، وأعوذ بالله لكم من أن نراه . وما حدثتكم من أمره إلا بما قرأت فى الكتب ، وسمعت من الأساتذة والمعلمين ، وسمعت من أحاديث الناس أيضاً . ومهما نصوّر من بشاعة الشيطان وقبح منظره فلن نبلغ منهما شيئاً ! فهو أبشع من كل ما نظن ، وأقبح من كل ما نصوّر ، لا فى شكله وخلقه فحسب ، بل فى رأيه وعمله أيضاً ، وفى مشورته وما يوسوس به إلى الناس بنوع خاص » .

وهنا تكلم « باخوم » فخفتت الأصوات ، وأنصت الناس .

وكان « باخوم » شيخاً من شيوخ القرية ، قد عرف بطول الصمت خارج الكنيسة ، وكثرة الصلاة إذا كان فيها ، كما عُرف بالوقار والأناة إذا تحرك أو تكلم ، وكما عرف بهذه الهيبة التى كانت تفيض على وجهه ، وهذه المحبة التى كانت تجذب إليه الناس .

وكان « باخوم » رجلا قد طوّف فى الأرض أول شبابه فأكثر التطويف ، ولم يكن يلمّ بقريته إلا ليمكث فيها العام أو بعض العام ، ثم يرتحل عنها فيغيب عنها الأشهر حيناً ، والعام حيناً آخر ، وربما امتدت غيبته فبلغت العامين ، ولكنه كان ينتهى دائماً بالعودة إلى قريته والإقامة فيها حيناً . . . وكان لا يعود إلا ومعه فضل من مال يبرّ به خاصته وذوى قرباه ، ويحسن به إلى الفقراء والبائسين ، وشىء من الطرف النادرة يتحف به الأغنياء وأصحاب اليسار .

وكان قد نشأ عاملا يرافق البنائين حتى تعلم صناعتهم ، وأحسن من فنونهم ما يحسن أهل القرى . وكأن ذلك لم يكفه ولم يغنه ، فارتحل إلى المدن فجوّد فنه شيئاً ، ثم أخذ يتنقل بفنه من مدينة إلى مدينة ،

ومن إقليم إلى إقليم حتى جاب أرض مصر كلها . وكان كلما أحسن من فنه شيئاً طمع فى أن يضيف إحساناً إلى إحسان ، ويرقى بفنه من طور إلى طور ، حتى تسامع الناس به ، ودعاه الأغنياء وأصحاب الثراء ، فى إقليمه وفى غير إقليمه ! ليشرف على ما كانوا يريدون أن يشيدوا من الدور والقصور . وكأنه قد عرف ما كان عند المصريين من فن البناء ، وحذق من ذلك ما كانوا يحذقون . ثم لم يكفه ما عرف ، ولم يرضه ما أتقن ، فأبعد فى الرحلة ، وتجاوز مصر إلى غيرها من البلاد المجاورة ، ولكنه استبقى عادته وحفظ لقريته عهدها ، فكان يبعد فى الرحلة ويطيل الغيبة ، حتى يستيئس أهل القرية من عودته ، ويظنوا أنه قد هلك فى بعض الطريق ، أو عدت إليه عاديات الدهر فى بعض أقطار الأرض . ولكنهم يرونه ذات يوم وقد أقبل عليهم مع الصباح أو مع المساء ، هادئ النفس دائماً ، وقوراً فى حركاته وكلامه دائماً ، طويل الصمت خارج الكنيسة ، كثير الصلاة إذا كان فيها ، يحمل فضلا من مال يبرّ به الفقراء والبائسين ، وشيئاً من الطرف يتحف به الأغنياء والموسرين . وقد كان أول أمره يحب الفن ويتكلفُ بالعمارة والبناء ، ولكن إلحاحه فى السفر وتجوبيه للآفاق قد أضافا إلى هذا الحب الفنى شيئاً آخر ، هو حب الرحلة فى نفسها والكلف بزيارة البلاد المختلفة ، والإلمام بالأجيال المتباينة من الناس . فكان يرتحل للبناء أول الأمر ، ثم أصبح يرتحل لا لشىء إلا لأن نفسه لا تستطيع أن تسلو عن الرحيل . وكان فى أول أمره ينتهز الفرص ويتلمس العلل والمعاذير لما كان يزمع من رحلة ، أو يعتزم من سفر ؛

فكان يصحب القوافل إلى هذا الوجه أو ذاك من وجوه الأرض . ولكنه انتهى آخر الأمر إلى أن يستقل بتدبير أمره ويهيء أسفاره ، لا يلتمس لذلك علة ، ولا ينتحل له معذرة ، ولا يصحب هذه القافلة أو تلك ، وإنما يعود من رحلة إلى بلد ، فلا يكاد يستقر فى قريته حتى ينبئ الناس بأنه مرتحل إلى بلد آخر ، يسميه لهم تسمية العالم به ، الملم من أمره بما لا يعرفون .

وقد عاد إليهم ذات مرة من بعض أسفاره فى بلاد الروم . فلما أقام فيهم شهراً أو بعض شهر أنبأهم بأنه يريد أن يركب هذا البحر الذى لا يركبه الناس إلا قليلا ، وأن يرى ما ينبثّ على سواحله من المدن ، ومن يعيش حوله من أجيال الناس . وقد سمع من أمر هذه الأجيال وتلك المدن أعاجيب ، منها ما يقبله العقل ، ومنها ما لا يستطيع الإنسان له تصديقاً . وهو يعلم على كل حال أن شرقىّ هذا البحر ، وغير بعيد من ساحله ، تقوم مدينة قديمة ، يسكنها قوم صالحون يعرفون المسيح ، ويؤمنون به ، ويُخلصون لدينه . وقد امتحنوا فى دينهم بأعظم الشر وأشنع النكر ، فصبروا على المحنة ، وثبتوا للخطب ، واصطلوا النار التى حرّقهم بها اليهود تحريقاً . وهو يعلم أن قيصر قد رقّ لهؤلاء الناس ، وغضب لما أصابهم من الشر ، فأنجدهم وأغاثهم وثأر لهم من اليهود . وهو يريد أن يزور هذه المدينة ، ويرى هؤلاء الناس الصالحين الذين عذّبوا فى الدين ، ويودّ لو استطاع أن يقيم لهم كنيسةً ، ويترك فى مدينتهم تلك أثراً يتقرّب به إلى الله .

وكان أهل القرية يسمعون حديثه ، فمنهم من يزين له المضىّ

فيما عزم عليه ، ومنهم من يصده عن ذلك ويرغبه فى لين العيش واستقرار الحياة . ولكنه كان يسمع لأولئك وهؤلاء ، ولا يرد على أولئك ولا على هؤلاء رجع الحديث ، وإنما كان يمضى فى تدبير أمره كما قدر هو ، أو كما قدر الله له ، لا كما أراده الناس عليه .

وأصبح القوم ذات يوم فإذا « باخوم » قد تهيأ للرحلة كما تعوّد أن يفعل ، وإذا هو يفارقهم ، فتتصل غيبته وتتصل ، وتمضى الأعوام دون أن يسمعوا من أمره شيئاً ، حتى يستيئسوا من عودته ، ثم تمضى الأعوام وقد تسلوا عنه وكادوا ينسونه ، وجعلوا لا يتحدثون عنه إلا قليلا ، وجعلوا إذا ذكروه رقت أحاديثهم عنه ، وحسن ذكرهم له ، وكثر إشفاقهم عليه ، كدأب الناس حين يذكرون فقيداً كريماً كانوا يحبونه ويؤثرونه ، ثم حالت بينهم وبينه الخطوب ، فأخذوا يتعزّون عنه ويذكرونه ذكراً جميلا .

ثم يتسامع أهل القرية ذات يوم بأن « باخوم » قد عاد إليهم بعد أن غاب عنهم عشر سنين ، فينكرون أول الأمر ، ثم يعرفون بعد أن يروا صاحبهم كعهدهم به ، إلا أن السن قد تقدّمت به ، وظهر أثر ذلك فى هذا الشيب الذى جلل رأسه ، وفى هذا الهدوء الذى عظم حظه منه ، وفى هذا الصمت الذى اشتد إمعانه فيه ، وفى شىء آخر جديد لم يكونوا ينتظرونه منه ، وهو إعلانه إليهم أنه لن يرحل عن قريته بعد هذه المرة ! بل سيظل بينهم يشاركهم فى الحياة حتى يقضى الله فيه بما يشاء .

٢

وكان أهل القرية يكلفون بحديث « باخوم » ويشغفون بالاستماع له . وليس من شك فى أن أولى الجدّ منهم كانوا ينتظرون أن تنقضى هذه الدعابة بين الفتيان وأبيهم القسيس الشيخ ليطلبوا إلى « باخوم » أن يطرفهم بشيء من أنباء رحلته الطويلة الأخيرة ! فإنه لم يقصّ عليهم منها شيئاً .

ولم يطمئن أهل القرية قط إلى محدّث أو قاصّ كما اطمأنوا إلى هذا الرحالة من أبناء قريتهم ! فقد كانوا يعرفون فيه الصدق والأمانة والتواضع والاعتدال ، ولم يعرفوا قط أنه تزيّد أو تكثّر أو اعتزّ بما رأى — وما كان أكثر ما رأى ! — وبما شهد ، وما كان أكثر ما شهد ! فلما سمع أهل القرية صوته تدانوا منه ، وأصغوا إليه ، وكفّ الفتيان عن دعابتهم ، وردّوا ضحكهم إلى صدورهم ولم يتموه .

وكان « باخوم » يتكلم بصوت هادئ ، غليظ بعض الشيء ، عميق أشد العمق ، كأنه يأتى من أقصى ضميره ، فكانت الكلمات التى يحملها هذا الصوت الرزين العميق إلى آذانهم لا تكاد تبلغ آذان القوم حتى تنفذ منها مسرعة إلى قلوبهم ، وتستقر فيها وتملؤها عجباً وإعجاباً .

قال باخوم : « أما أنا فقد رأيت الشيطان ، ما أشك فى ذلك ولا أرتاب . ورأيته فى قصة غريبة وقعت لى فى رحلتى هذه الأخيرة

منذ عامين » . ثم سكت قليلا . ثم استأنف حديثه قائلا : « نعم ! منذ عامين ، وقد امتلأت بها نفسى حتى كأنها لم تقع إلا بالأمس ، وقد اتصل بها قلبى فطمع فى تجددها أشد الطمع ، ورجا تكررها أشد الرجاء ، حتى كأنها ستكون غداً . وهى آخر ما رأيت من أسفارى من عجيب الأمر . وما أرى إلا أنها آخر ما سأرى فى حياتى من عجيب الأمر ، إلا أن تمتد بى الأيام إلى أكثر مما أقدّر وما يقدّر أمثالى لأنفسهم من السن .

« وما أشد ما أتمنى ذلك ! وما أشدّ ما أحرص عليه ! لا لأنى أحب الحياة أكثر مما يحبها الناس ، أو أرغب فى البقاء أكثر مما يرغب فيه الناس ، بل لأنى موقن بأن لهذه القصة شأناً ، وبأنها قد أنبأت عن شىء سيكون . وما أشد شوقى إلى أن أشهد تحقيق هذا النبأ ، وظهور هذا الحدث العظيم ! » .

وتصور أيها القارئ أثر هذه الجمل التى كانت تصدر عن « باخوم » ملتهبة ، فتحرق قلوب المستمعين له تحريقاً . تصور أثر هذه الجمل فى تشويق أهل القرية إلى هذه القصة التى سيطرفهم بها هذا الشيخ . وإنهم ليريدون أن يتعجلوه ، ولكنه مطرق مغرق فى الصمت ، وقد اتصلت أبصارهم به ، وتعلقت قلوبهم بشفتيه . ولبث هو على صمته حيناً ، وقد سكن الليل وسكت النسيم ، كأنما تريد الأرض والسماء ، وهذه النجوم المتألقة ، وهذا النيل الذى يسعى هادئاً من بعيد ، أن تسمع له وتستمتع بحديثه ، كما يستمتع له الفلاحون فى قرية من قرى الصعيد .

قال باخوم بعد ساعة : « كان ذلك منذ عامين حين انتهت بى الأسفار إلى مكة ! تلك القرية التى تسمعون ذكرها أحياناً حين تفد علينا قوافل قريش تحمل إلى مصر تجارة اليمن والهند . فقد ألممت بها ، وإن لى من أهلها لبعض الصديق ، وكنت أريد أن أقضى فيها أشهراً ، ثم أرحل مع قافلتهم إلى اليمن لأبلغ تلك المدينة الصالحة التى يسكنها قوم صالحون قد فتنوا فى المسيح ، فصبروا على الفتنة ، وكنت أريد أن أقيم لهم كنيسة وأترك فيها أثراً باقياً .

« فما أقضى فى مكة شهراً وبعض شهر حتى يتوسل إلىّ بعض الصديق من قريش فى أن أبنى له داراً ، فلا أمتنع عليه ، وإنما أجيبه إلى ما أراد ، وفاءً ببعض ما بيننا من المودة ، وأداءً لبعض ما لهؤلاء الناس علىّ من حق . وقد صحبتهم فى سفر شاق بعيد ، فحمونى وحاطونى ورفقوا بى ووفوا لى بذمتهم ، وأكدوا لى صادقين أنهم سيبلغوننى نجرانَ إذا ارتحلوا إلى اليمن ، وسيردّوننى إلى مأمنى إذا عادوا إلى بلاد الروم . فلم يكن بدٌّ إذاً من أن أستجيب لصديقى ، فأقيم له داره التى أراد أن يبنيها . وما هو إلا أن يكون التنافس بين القوم ! فهؤلاء نفر من سراتهم وعظمائهم يتوسلون إلىّ فى مثل ما توسل إلىّ ذلك الصديق فيه . وكلهم يعظم لى الأجر ، ويُهدى إلىّ ما استطاع من الخير . وإنى لفى ذلك أجيب منهم من أستطيع إجابته راضياً مسروراً بإرضاء هؤلاء القوم الكرام ، وبمعاودة المهنة بعد أن طال إهمالى لها وإعراضى عنها ، وإذا خاطر يخطر للملأ من قريش ذات ليلة وهم يسمرون ، فيفكرون فيه ثم يفكرون ،

ثم يستأنون به ، ثم يعودون إليه ، ثم يؤخرونه ، ثم يستأنفون النظر فيه ، ثم يُفضون إلىّ به على أنه شيء يريدونه وتتمناه قلوبهم ، ولكنهم لا يجرؤن عليه . يُشفقون أن يكون فى الإقدام عليه ما يغضب آلهتهم ، ويجر عليهم ما يكرهون . رأوا بيتهم ذاك الذى يقدّسونه ويعبدون ربهم فيه قد طال عليه العهد ، وبعدت به الأيام ، وظهر عليه الوهن ، وتعرّض لأخطار السيل ، واجترأ عليه اللصوص فسرقوا بعض ما فيه من متاع ، فتساءلوا : ألا يكون من الخير أن يهدموا بناءه هذا القديم ، ويقيموا لربهم بيتاً جديداً فخماً متيناً ، يلائم مكانته فى قلوبهم ، ويلائم ثروتهم هذه التى تزداد من يوم إلى يوم ، ويلائم هذه الدور التى أخذوا يقيمونها لأنفسهم فخمة متينة ، قد يُسرتْ لهم فيها أسباب الترف والنعيم ؟ ولكنهم يفكرون ولا يعزمون ، يخشون ألا يرضى ربهم عما لا بدّ لهم منه من هدم البيت إن أرادوا له تجديداً . وكان يزيد خوفهم وإشفاقهم ويملأ قلوبهم فزعاً وهلعاً كلما همّوا بالإقدام أنّ حية كانت تظهر كل يوم ، فتسعى على جدران البيت صاعدة هابطة دائرة من حوله ، وكان منظرها بشعاً مخيفاً ، وكانت إذا دنا منها دان اتخذت شكلا رهيباً ، لا يراه من يدنو منها حتى يرتد عنها مذعوراً . فكانوا يخشون أن تكون هذه الحية حارساً لهذا البناء ، وكانوا يقدرون أنهم إن أتموا رأيهم وأنفذوه لم يدنوا من البيت ليأخذوا فى الهدم حتى تردّهم عنه مدحورين . وإنهم لفى أنديتهم حول البيت ذات يوم وإذا الحية قد خرجت من مخبئها ، وجعلت تزحف كدأبها ، وجعلوا هم ينظرون إليها مروّعين ،

وإذا عقابٌ تهوى من السماء فتأخذ الحية من ذنبها ، ثم ترتفع بها فى السماء وهم ينظرون ويعجبون ، وقد غابت عنهم العقاب . فما يشكون فى أن ربهم قد أذن لهم فى أن ينفذوا ما عزموا عليه . وقد أحسوا بعد هذا الحادث شجاعة وإقداماً ، وجعلوا يديرون أمرهم بينهم ، ويدبرون ما لا بدّ من تدبيره لبناء هذا البيت .

« وإنهم لفى ذلك وإذا الأنباء تصل إليهم ذات صباح بأن سفينة من سفن الروم قد طغى عليها البحر ، وعبث بها الموج ، وقصفت بها الريح ثم دفعتها إلى الساحل القريب . فيسرعون إلى البحر ، وأسرع معهم ، ويرون السفينة وقد عطبت ، واضطر أهلها من الروم والمصريين إلى أشد الخوف وأعظم الهلع ؛ لأنهم دُفعوا إلى غير مأمن ، ووقعوا إلى أرض ليس لهم فيها جار . ولكن قريشاً يلقون أصحاب السفينة أحسن لقاء ، ويؤمنونهم على أنفسهم وأموالهم ، ولا يرضون حتى يشتروا منهم هذه السفينة التى أدركها العطب ، ويقولون لى : ” فإنا نستطيع أن نتخذ من خشب هذه السفينة لبيت ربنا سقفاً “ . ولم يرتابوا بعد ذلك فى أن ربهم قد أذن لهم بهدم البيت وتجديده . ألم يرسل العقاب إلى تلك الحية فتخطفها ! ألم يرسل إليهم هذه السفينة ليتخذوا منها للبيت سقفاً ! ألم يرسلنى أنا إليهم لأبنى لهم هذا البيت كما نقيم البناء فى مدن الروم !

« وكذلك تمت كلمتهم على إنفاذ ما دبروا . ولم أتردد أنا فى أن أكون من بناء البيت عند ما يحبون . وكنت أنظر إليهم وإلى ما كانوا يرون ويقدّرون فى شىء من العطف عليهم والابتسام لهم ؛ فهم

أصحاب سذاجة لم يألفوا من الحضارة ما ألفنا ، ولم يبلوا من خطوب الأيام ما بلونا . فأيسر شيء يدفعهم إلى التفاؤل ، وأيسر شيء يردّهم إلى التشاؤم ، وأيسر شيء يدعوهم إلى الإقدام ، وأيسر شيء يضطرهم إلى الإحجام . ولكنى لم ألبث أن أحسست ما يحسون من روع ، وشاركتهم فيما كان يملك قلوبهم من تردد واضطراب . حضرتهم ذات يوم وقد أطافوا ببيتهم ، وجعل بعضهم يؤكد لبعض تقادم العهد به ، وإلحاح الزمان عليه ، وحاجته إلى التجديد ، ويسعى شيخ من شيوخهم حتى يمسّ حجراً من أحجار البيت ناتئاً بعض الشيء ، فيجذبه بيديه فينجذب ، وقد بعد الشيخ بهذا الحجر عن البيت شيئاً وهو يحمله فى يده . ولكن ماذا نرى ؟ نرى هذا الحجر يفصل عن يد الشيخ ، ويمضي وحده فى الهواء حتى يرتد إلى مكانه من البيت كأحسن ما يمكن أن يستقرّ فى موضعه . ولست أخفى عليكم أنى لم أكن أقل القوم ارتياعاً واضطراباً حين رأيت هذا المنظر البديع ، بل ما أشك فى أنى كنت أشدهم ارتياعاً واضطراباً ، وأعظمهم حيرة ، وأعجزهم عن الفهم والتأويل . ذلك أن هذا الحدث قد روّعهم شيئاً ، ولكنه لم يذهب بصوابهم ، ولم يخرجهم عن أطوارهم . وما أسرع ما فهموا ، وما أحسن ما أوّلوا ! فقد قال قائلهم : « يا معشر قريش أقدموا على أمركم ، ولكن احذروا أن تنفقوا فى هذا البناء مالا حراماً ، لا تدخلوا فيه من كسبكم إلا طيباً . لا تدخلوا فيه مهر بغيّ ، ولا بيع رباً ، ولا مظلمة أحد من الناس » .

« ثم غدوا إلى البيت يريدون هدمه ، وقد صمموا على ذلك

ولكنهم على تصميمهم لا يجرؤن ، فينتدبون شيخاً منهم فيرقى إلى البيت ، ويبدأ فى الهدم وهو يقول فى لهجة ساذجة كان لها فى نفسى أبلغ الأثر وأبعده : " اللهم لا ترع ، إنما نريد الخير " . وكان القوم ينظرون إليه معجبين به ، مشفقين عليه من إقدامه دون أن يشاركوه فيما أخذ فيه ، وإنما أجمعوا أمرهم بينهم أن ينتظروا ليلتهم حتى إذا أصبحوا رأوا ! فإن كان قد نزل بالشيخ مكروه أو ألمّ به خطب ، علموا أن ربهم غاضب ، فأصلحوا ما هدم الشيخ وتركوا البيت على حاله ، وإن غدا عليهم سالماً موفوراً علموا أن ربهم راض ، فمضوا فى الهدم وأقاموا البناء .

« وأصبح الشيخ سليماً معافىّ ، فغدا على عمله وغدوا معه ، حتى هدموا البيت . ثم جعلوا يجمعون الأحجار يسعون فى جمعها بأنفسهم لا يستأجرون لذلك أحداً ، ولا يكلون ذلك إلى رقيق ، يرون النهوض بذلك حقاً عليهم وشرفاً يبقى لهم فى أعقابهم . وأخذت أنا أبنى لهم البيت أقيمه على أسسه القديمة التى لم يمسّوها .

« ولهم فى هذا البيت حجر يعظمونه ويكرمونه ، ويرونه هبة لهم من ربهم . فلما بلغ البناء إلى حيث يجب أن يوضع هذا الحجر اختلف القوم بينهم : أيهم يضعه موضعه ! فكلهم ابتغى لنفسه هذه المأثرة ، وكلهم حرص عليها أشد الحرص ! وإذا اختلافهم يستحيل إلى خصومة ، وإذا خصومتهم تبلغ من الشر إلى أقصاه ، وإذا هم يتلاحوْن ويتنادرون ، ويؤذن بعضهم بعضاً بالحرب ، وقد وقف البناء ، وفسد الأمر بين القوم فساداً عظيماً . وأقاموا على ذلك أياماً

وليالى ، وتحالف بعضهم على الشرّ ، فجاءوا بجفنة قد ملئوها بالدم وغمسوا فيها أيديهم وهم يقسمون . ليستأثرُنّ بهذا الشرف أو ليموتنّ من دونه . ثم يجتمع الملأ منهم صباح يوم فيتناهوْن ويتناصحون ، ثم يشير عليهم شيخ منهم بأن يحكّموا فى هذه الخصومة أوّل داخل عليهم من باب من أبواب المسجد ، يسمونه باب بنى شيبة . فلا يلبثون أن يدخل عليهم من الباب رجل شابّ لم يروا أجمل منه طلعة ، ولا أعظم منه هيبة ، ولا أحسن منه سيرة فى قومه . سمعت من أنبائه الشيء الكثير ، ولكنى استيقنت أنه رجل عظيم الخطر حين رأيتهم ينظرون إلى مقدمه مبتهجين ويصيحون : " هذا الأمين ، قد رضينا . هذا محمد ، قد سلمنا " . ثم يعرضون عليه الخصومة ، فما رأيت وقاراً كوقاره ، وما رأيت أناة كأناته ، وما رأيت هدوءاً كهدوء نفسه ، وما رأيت رجلا أرفق منه بقومه ، وأعطف منه عليهم ، وآثر منه لهم بالخير . وانظروا إلى قضائه فيهم ، فسترون كما أرى أنه لم ينتج عن تفكير إنسان ، وإنما كان إلهاماً من الله .

" نزع الأمين رداءه فألقاه على الأرض ، ثم وضع الحجر فى وسطه ، ثم قال لقومه : " لينتدب من كل ربع من أرباع قريش رجل " . فلما اجتمع أربعة نفر يمثلون قومه كلهم ، قال : " ليأخذ كل واحد منكم بزاوية من زوايا الرداء " ، ففعلوا واشتركت قريش كلها فى رفع الحجر ، وتقسمت قريش كلها هذا الشرف العظيم قسمةً سواءً عدلا ، حتى إذا انتهوا إلى البناء آثره ربه بخلاصة هذا الشرف وخير ما فى هذه المكرمة ، فيأخذ الحجر بيده ، ويضعه

فى موضعه ، والقوم راضون فرحون ، قد اطمأنت قلوبهم إلى هذا العدل ، واستبشروا بما كفّ عنهم من الشر ، وبما عصم لهم من الأنفس وحقن لهم من الدماء . وهنا استيقنت أنى رأيت رجلا هو أحب خلق الله إلى الله ، وأكرمهم عليه . ولكنى لم ألبث أن رأيت شخصاً يجب أن يكون أبغض خلق الله إلى الله ، وشرهم عنده مكانة . كان رجلا شيخاً حسن الطلعة ، جميل المنظر ، عليه وقار ، وله سمة ، ولم أكن قد رأيته فى القوم قط ، وما كان شكله ملائماً لأشكالهم ، ولا زيه مشاكلا لأزيائهم . ولكنى رأيته فجاءة لا أدرى من أين جاء ، أنجمَ من الأرض أم هبط من السماء .

« أقبل هذا الشيخ النجدىّ يناول الأمين حجراً يثبت به الركن الأسود فى موضعه ، فيقبل رجل من عمومة الأمين ، فيأبى على هذا النجدىّ وينحيه ويدفع إلى الأمين الحجر الذى يشدّ به البناء . هنالك غضب الشيخ النجدى ، فقال له الأمين : " إنه ليس يبنى معنا فى البيت إلا من كان منا " . فجعل النجدى يقول : " يا عجباً لقوم أهل شرف وعقول ، وسن وأموال ، عمدوا إلى أصغرهم سنًّا ، وأقلهم مالا ، فرأسوه عليهم فى مكرمتهم وحرزهم ، كأنهم خدم له . أما والله ليفوتنهم سبقاً ، وليقسمن بينهم حظوظا وجدوداً " .

« وتسمع قريش حديث النجدى فتسخط عليه وتثور به ، وتريد أن تلحق به الأذى ، ولكنا ننظر فلا نجد أحداً ، ونبحث فما نعرف إلى أين ذهب ، كما لم نعرف من أين جاء .

« ويقول قائلنا حين استيأسنا منه : " هذا والله إبليس ، أراد أن

تكون له فى بيت ربنا يد ، فرد عن ذلك مدحوراً " » .

ثم سكت « باخوم » ، وأطرق فأطال الإطراق ، كأنه يستعيد فى نفسه هذه القصة التى سحر بها قلوب سامعيه وألبابهم . ولكن القسيس الشيخ يسأل « باخوم » فى صوته الهادئ المحطم : « ونجرانُ يا بنىّ أذهبتَ إليها ؟ أأقمت فيها الكنيسة التى كنت تريد أن تقيمها ؟ » .

قام باخوم : « لا يا أبانا ، قنعت ببناء هذا البيت لهذا الحى من قريش . وما أدرى لماذا استيقنتْ نفسى منذ ذلك اليوم بأن سيكون لهذا البيت ولهذا الأمين شأن » .

قال القسيس : « فإنك تسمى هذا الأمين محمداً ؟ » .

قال باخوم : « نعم ! يسميه قومه محمداً ، ويسمونه أحمد ، ويكنونه أبا القاسم ، ويتحدثون عنه بالأعاجيب » .

قال القسيس فى شىء من الحيرة والذهول : « أحمد ! أحمد !! أليس يمكن أن يكون هذا النبى الذى بشر به المسيح ! » .

وتفرّق القوم من ليلتهم ، وإن فى قلب كل واحد منهم لأثراً قويًّا باقياً لهذا الحديث .

قال محدثى : والعجب أن أكثر المصريين يجهلون أن لهم فى بناء الكعبة يداً ، وأنهم قد اشتركوا فيه ، واشتركوا فيه مع الأمين الذى أصبح بعدُ سراجاً منيراً ، أخرج الله به الناس من الظلمة إلى النور .

صَاحِبُ الحَانْ

١

أنكر شباب قريش من صاحب الحان إعراضه عنهم ، وما ظهر من انقباض وجهه وتقطب جبينه ، وما أحسوا وراء ذلك من فتور النفس ، وجمود القلب ، وشرود الخاطر ، واشتغال البال .

وكان هؤلاء الفتيان المترَفون من شباب قريش قد تعوّدوا من صديقهم هذا الرومى نشاطاً للشراب إذا نشطوا له ، وإقبالا على اللهو إذا أقبلوا عليه ، ومشاركة فى اللذة إذا أخذوا فيها ، قد مُحيت بينهم وبينه الفروق ، ورفعت بينهم وبينه الحجب ، وأصبحت الأمور بينهم وبينه ميسرة هينة ، تجرى على المودة والإلف ، وعلى السذاجة والإسماح ، كما تجرى بينهم وبين أنفسهم ، أو خيراً مما تجرى بينهم وبين أنفسهم . يقبلون عليه مصْبحين ، ويقبلون عليه مُمسين ، ويقبلون عليه فى أى ساعة من ساعات النهار والليل ، فلا يرون منه إلا نشاطاً وانبساطاً ، وإلا إقبالا عليهم وإيناساً لهم . فإذا أخذوا فى شرابهم ، وأقبلوا على لذّاتهم ، واستمعوا لأولئك المغنيات الروميات اللاتى كنّ يفتنهم بالصوت واللحظ ، وبغير الصوت واللحظ من أسباب الفتنة وألوان الإغراء ، أقبل الخمارُ الرومى معهم على هذا كله ، لا إقبال التاجر الذى يُغرى بتجارته ويرغب فيها ، بل إقبال المخلص فى حب اللهو ، المسرف فى إيثار اللذة ، المتهالك على أن يأخذ نصيبه من الدنيا قبل أن يدفعه الموت إلى تلك الطريق التى

يعرف أوّلها ثم يجهل من أمرها بعد ذلك كل شيء .

وكانت الكلفة قد ارتفعت بين هذا الرومىّ وبين زوّاره من فتيان قريش هؤلاء ، فكانوا يشربون ويطربون ، ويؤدّون إليه ثمن لذاتهم إن حضرهم المال ، فإذا لم يحضرهم لم يجدوا بذلك بأساً ، ولم يمنعهم ضيق ذات أيديهم أن يمضوا فيما يحبون من عبث ولهو . ولم يُظهر لهم صديقهم الرومىّ تجهماً ولا تلكؤاً ، ولم يبطىء عليهم فى شيء مما كانوا يريدون ، لا لأنه كان واثقاً بأن حقوقه ستؤدى إليه كاملة فحسب ، بل لأنه كان قد أحب هؤلاء الفتيان وأنس إليهم . ولولا بقية من أصله الرومى كانت تضبط أموره وتردّه إلى الصواب والحزم ، لا ندفع مع هذا الحب إلى غير حدّ ، ولألغى بينه وبين هؤلاء الفتيان من أشراف قريش كل حساب .

فلما أقبلوا عليه من ليلتهم تلك لم ينشط لما كانوا ينشطون له ، ولم يلقهم بما تعوّدوا أن يلقاهم به من البشر وطلاقة الوجه ، وإنما استقبلهم فى شيء من الفتور لم يلبثوا أن أحسوه وشعروا به ، ولكنهم لم يُظهروا مما أحسوا شيئاً . وخلى الرومى بينهم وبين ما أحبوا من شراب ولذة ، ومن مجون وعبث ، واندفعت المغنيات الثلاث يرددن عليهم أصواتهن الغريبة العذبة ، ويُوقعن لهم ألحانهن الشجية الحلوة . وجعلوا يسمعون ويعجبون ، ويُفتنون ولا يَفهمون ، وجعلوا يستعينون على هذا كله بالإغراق فى الشراب ، والاستباق إلى الإكثار منه ، مسرفين فى المزاح ، متهالكين على الدعابة ، يقول بعضهم لبعض : لن يتأخر قدوم العير بما تقدّم إليها الحمار فى أن تحمل إليه من نبيذ الشام

وفلسطين ، فلا ينبغى أن ننصرف عنه الليلة حتى نستنفد ما عنده من نبيذ قديم . وكانوا يلمحون له بدعابتهم ، ويلحون عليه بمزاحهم ، ويحرّضونه على مشاركتهم ، فلا يجدون منه إصغاء إليهم ولا انتباهاً لهم ، فيمضون فى أمرهم متكلفين أن يلقوا إعراضاً بإعراض ، وجفاء بجفاء . ولكنهم لا يلبثون أن يحسوا كأن شيئاً ينقصهم ، وكأن اللهو لا يستقيم لهم ، وكأن نفوسهم لا تستجيب لهذه اللذات التى تدعوها فتلح فى الدعاء . ولا يشكون فى أن انقباض هذا الرجل الرومى عما ينبسطون له هو مصدر ما يجدون من حرج وضيق ، ومبعث هذا الفتور الذى أخذ يسعى إليهم شيئاً فشيئاً ، فيلهيهم عن الألحان وأصوات الغناء ، ويكاد يصرفهم عما بين أيديهم من هذه الأقداح التى لم تتعوّد الانتظار .

هنالك يُقبلون على صديقهم الرومىّ لائمين أوّل الأمر ، ثم ملحين فى اللوم . فإذا لم يجدوا منه عناية بهم أو استماعاً لهم رقّوا له ورفقوا به ، وتحولوا إليه عن شرابهم وغنائهم ، وجعلوا يسألونه سؤال الصديق عما عرض له من أمر ، وما نزل به من خطب ، وما ألمّ به من مكروه . ويبلغ رفقهم هذا الحلو قلب الرومى فيتأثر به ويلين له ، ويتصل بين هؤلاء الفتيان من أشراف قريش وسادتها وبين هذا الخمار الرومى حديث غريب لا ينقضى إلا وقد كاد الليل ينجلى عما كان قد غمر من الأودية والبطاح .

٢

قال الخمار الرومى لأصدقائه من شباب قريش : « عزيز على أن ألقاكم بما لقيتكم به من الفتور ، وقد عودتكم أن أكون لكم مكرماً ، وبكم حفيّاً . وعزيز علىّ أن أقصر عما تقدمون عليه من هذه اللذات التى كنت أسابقكم إليها فأسبقكم ، وأنازعكم الاستمتاع بها فأكون أوفركم منه حظّاً وأعظمكم منه نصيباً . وعزيز علىّ أن يُعديكم هذه الفتور ويبلغكم هذا القصور ، فتَصُدّون عما تحبون ، وتُصْرَفون عما تألفون . ولكن ثقوا أنى لم أقدم على ذلك راغباً فيه ، وإنما دفعت إليه مكرهاً عليه » .

قال صفوان بن أمية : « فإنا ما نشكّ فى أنك لم تلقنا بهذا الإعراض والفتور إلا وقد عرض لك من الأمر ما اضطرك إلى ذلك . وقد عودناك أن نفضى إليك بأسرارنا وجلية أمورنا ، لا نخفى عليك منها شيئاً . فأفض إلينا بدخيلة نفسك وجلية أمرك ! فلعلنا أن نكون عند ما تحب من المعونة لك والترفيه عليك » .

قال صاحب الحان : « فإنى أخشى أشد الخشية ألا تملكوا لى من هذا الأمر الطارئ شيئاً » .

قال صفوان : « إنك ضيفنا وجارنا وصديقنا ، وصاحب لذتنا وشريكنا فى هذه اللذه . فلسنا لقريش إذاً إن بخلنا عليك بالمعونة ، أو آثرنا أنفسنا بالأمن والراحة والنعيم من دونك . وإنك لتعرف من

قريش قراها للضيف ، ووفاءها للجار ، وبرها بالصديق ، وأداءها للحقوق » .

قال صاحب الخان : « فإن هذا الأمر الطارئ ليس مما تظنون في شيء ، وإني لا أدري كيف أباديكم به وأتحدث إليكم فيه ، ولو أن الذي عرض لي كان مما تعودتم أن تردّوه عن الضيف والجار والصديق لما أبطأت في إنبائكم به وإظهاركم عليه . ولكنه لون آخر من الأمر لم تتعودوا أن تروه ، وضرب آخر من الخطب لم تتعودوا أن تشهدوه . وما أدري أتفهمون عني إن تحدثت إليكم بما عرض لي ! وما أدري أترضون إن فهمتم ما ألقي إليكم من الحديث أم تسخطون ! فإنه أمر غريب حقًّا ! غريب حقًّا ! » . ثم أطرق الرومي وترك هؤلاء الفتيان من شباب قريش وقد أخذهم شيء يسير من الوجوم بهذا الحديث الغريب ، وجعلوا يتقارضون فيما بينهم ألحاظاً قصاراً سراعاً . ثم رفع الرومي إليهم رأسه ، فلما رآهم على هذه الحال ابتسم لهم رفيقاً بهم ، وقال في صوت هادئ بعيد : « ما أحب لكم أن تُصرفوا عن أمر لذتكم إلى هذا الأمر الذي ما أراه يعنيكم من قريب أو بعيد ، فعودوا إلى ما كنتم فيه موفورين . ولو استطعت لشاركتكم في اللهو ، ولأعنتكم عليه ، ولكن نفسي محزونة منذ الليلة حقًّا ! » .

قال صفوان : « فإنا لن نتحول عنك إلى لذتنا ، ولن ننصرف عنك إلى بيوتنا حتى نعلم علمك ، وحتى نرى أقادرون نحن على أن نعينك أم عاجزون عن أن نبلغ من ذلك بعض ما نريد . فاقصص علينا أمرك ولا تبطئ ! فإنك قد شوقتنا إلى حديثك هذا الذي تخفيه فتمعن في إخفائه وتلتوي به علينا أشد الالتواء » .

قال الرومى : « إنى لا أخفى عليكم شيئاً ، ولا ألتوى عليكم بشىء ، ولكنى أدير هذا الأمر فى نفسى ولا أعرف كيف أباديكم به » .

قال صفوان وهو يتكلف الضحك : « فبادنا به كيف شئت وعلى أى وجه أحببت ! فإنى أخشى إن طال بك هذا الصمت وألح عليك هذا الالتواء أن نشقّ عن صدرك لنرى ما يضطرب فيه من عاطفة ، ونشجّ رأسك لنظهر على ما تدير فيه من رأى وما تجيل فيه من حديث » .

قال الرومىّ وهو يبتسم : « ما أوفاكم إذاً للجار ، وأرعاكم إذاً للصديق ! » .

قال صفوان : « فإنك مظهرنا على أمرك طائعاً أو كارهاً ! فقد طال منك الصمت ، وطال منا الإلحاح ، وقد تقدم الليل ، وإنا خليقون أن نبقى حولك حتى يدركنا الصبح نسألك ونلح عليك ؛ فأرحْ نفسك وأرحنا من السؤال والإلحاح » .

قال الرومى وهو يظهر تردداً شديداً ، ويأخذ نفسه بالعنف لأنه يُقدم على أمر عظيم : « فإن الأمر الذى أهمنى لا يتصل بى وإنما يتصل بكم » .

قال صفوان : « فذلك أجدى أن تبادينا به وتظهرنا عليه ! » .

قال الرومى : « فإنه لا يتصل بحياتكم حين تأوون إلى بيوتكم ، أو تهرعون إلى هذا الحانوت أو تضطربون فى الأرض ، وإنما يتصل بآلهتكم » .

ولم يكد هؤلاء الفتيان من قريش يسمعون هذه الجملة حتى اندفعوا إلى ضحك غليظ متصل ، ثم سكت عنهم الضحك بعد

حين ، فجعل بعضهم ينظر إلى بعض نظر المنكر لما سمع ، الساخر منه ، فى شىء غريب من الفرح والمرح ، وفى إشارة إلى الغلام أن يملأ لهم أقداحهم . ثم نظر صفوان إلى صديقه الرومى نظرة لا تخلو من استهزاء يشوبه الإشفاق وقال : « قد كنا نحسب أن التفكير فى الآلهة والحديث عنهم أمر مقصور على نفر من قريش تقدّمت بهم السن وتقلبت عليهم الحياة ، وفرغوا لهذا العبث ، فجعلوا يخوضون فيما ليس للناس أن يخوضوا فيه . ولكن الأمر قد تجاوز هؤلاء الشيوخ من قريش إلى جيراننا من الروم . أوَمسّتك العدوى إذاً ؟ أوَ جعلت تصبو إلى ما يصبو إليه هؤلاء النفر من شيوخنا ، وتحرص على أن تمتاز بما يمتازون به من التحرج والتكلف ، وإنفاق الجهد فيما لا ينبغى أن ينفق فيه الجهد ؟ ! لقد جفّت حلوقنا يا غلام ، فأسرع إلى هذه الأقداح فاملأها ، وأسرع إلى مولاك بشىء من شراب ، فما نرى إلا أن نفسه قد ظمئت ، وما نرى إلا أن ظمأ نفسه قد اضطرها إلى هذا الحديث » .

قال الرومى : « أما إنك قد قلت الحق وأنت لا تدرى ! فإن نفسى لظمئة ، وإن ظمأها لأشدّ مما تظن » .

قال صفوان : « تظمأ وعندك أكرم ما جادت به بَيْسان من نبيذ ! » .

قال الرومى : « ما صدفت نفسى قط عن الخمر كما تصدف عنها الآن . إنى لشديد الظمأ ولكن إلى شىء آخر ما أرى أنكم تفقهونه أو تفطنون له » .

قال صفوان وهو مغرق فى الضحك : « إنك لظمىء إلى ما كانت

تظمأ إليه نفس زيد بن عمرو! فقد طلبته جاهدة فلم تظفر به، ولم ترو ظمأها باليقين، وإنما روّته بهذا الدم الزكى الذى لم نثأر له بعد، والذى لا بد من الثأر له. وإنك لظمىء إلى ما كانت تظمأ له نفس ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث! فإن ورقة بن نوفل ليقيم منك غير بعيد فتحولْ إليه واستمعْ له! فقد يُروى نفسك بما وعى من علم النصارى، وما حفظ من سخف الروم. ولكن لا تنس أن تخلى بيننا وبين ما بقى لك من خمر، وأن تحكمنا فيما ستقدمُ عليك به العير بعد أيام». ثم تضاحك القوم ورفعوا الأقداح إلى أفواههم، ثم ردوها ولم يذروا فيها شيئاً.

قال الرومى: «فأما وأنتم تفقهون أمر هؤلاء النفر من قريش، فما أشك فى أنكم ستفهمون عنى إن حدّثتكم بما يضطرب فى نفسى من الأمر. ولقد أسأت بكم الظن فمعذرة إليكم. لقد رأيتكم لا تحفلون إلا بما يحفل به أترابكم من اللهو، ولا تقبلون إلا على ما يقبل عليه لداتكم من اللذة والنعيم».

قال صفوان: «فإن لنا على ذلك عقولا تستطيع أن ترقى إلى حكمتك العليا. ولكن ما رأيك فى أنها زاهدة فى هذه الحكمة، راغبة عنها!! فإنا لم نأتك لتتحدث إلينا عن الآلهة، وما ينبغى لغير قريش أن يتحدث عن آلهة قريش. ولقد أطلت فينا المقام، فكنت خليقاً أن تعرف من أمرنا أكثر مما عرفت. وما نظنك إلا أدركت شيئاً مما لقى زيد بن عمرو، وقد كان أوسطنا نسباً، وأرفعنا حسباً! فخذ فى حديث آخر غير حديث الآلهة. فما كنا لنكره ذلك من شيخ

قرشى ثم نرضاه من رومىّ غريب أقبل علينا ليسقينا الخمر ويُسمعنا الغناء » .

قال الرومىّ وقد ظهر عليه بعض الحزن : « ألم أقل لكم إنى كنت مشفقاً أن يسوءكم حديثى ، وإنى كنت راغباً عن أن أوذيكم ! » .

قال فتى من القوم : « فإنك لم تؤذنا وإن حديثك لم يسؤنا ، وإنك لم تظهرنا بعدُ على هذا الحديث . ولكن فى صفوان حدة وسرعة إلى الغضب ولا سيما حين يثقل عليه الشراب ، فامض فى حديثك راشداً ، وأشركنا فى هذا الهم الذى غيّر سيرتك منذ الليلة » .

قال صفوان : « ما أدرى ماذا عرض لى ؛ فإن حديثك لم يسؤنى ولم يؤذنى ، وإنما أخذت فى الدعابة حين سمعتك تتحدث عن الآلهة ، فما أسرع ما استحالت الدعابة إلى جدّ مرّ ، فامض فى حديثك وخلاكَ ذمّ » .

قال الرومىّ : « أقبلو على شأنكم ، وخذوا فى لهوكم ، أو تفرّقوا إلى بيوتكم فقد تقدّم الليل » .

وأحس القوم أن نفس الرومىّ مقسمة بين الغضب والخوف ، فعادوا إلى الرفق به والتلطف له ، حتى ردّوه إلى الأمن والهدوء ، ثم مضوا يسألونه عن حديثه ، ويلحون عليه فى أن يتمه .

قال الرومى : « أتعرفون أنى نصرانى ؟ » .

قال صفوان : « نعرف أنك نصرانى كغيرك من الروم ، لكنا لم نر منك قط إقبالا على الدين ، ولا إمعاناً فى النسك » .

قال الرومىّ : « فاعلموا أنى لست نصرانيًّا ، أو اعلموا أنى لم

أخلص للنصرانية قط ، وأنى لم أقدم على بلدكم هذا النائى البعيد من بلاد الروم لأسقيكم الخمر وأسمعكم الغناء ، وإنما أقبلت إليكم مهاجراً بهذه الوثنية التى كنت أخفيها فى بلادى من أرض الروم ، وأجد فى إخفائها جهداً لا يحتمل ، وعناء لا يطاق » . فلما سمع القوم من حديث الرومى عجبوا له ، وشغفت نفوسهم بالقصة فأصغوا أشد الإصغاء .

قال الرومىّ « إنكم لا تعرفون من أمرنا نحن الروم إلا أقله وأيسره . وإنكم لتجهلون وثنيتنا القديمة كما تجهلون نصرانيتنا الحديثة . ولو قد علمتم من أمرنا أكثر مما تعلمون لكان فهمكم عنى أعمق وأصدق . إن وثنيتنا القديمة ليست من اليسر والسذاجة بحيث ترون ما أنتم عليه من دين ؛ فإن لآلهتنا القدماء أخباراً طوالا ، وأنباء غريبة ، تكلف بها النفوس ، وتألفها القلوب ، وتصبو إليها الطباع . وقد كان آلهتنا القدماء أشدّ اختلاطاً بنا ، ومعاشرة لنا ، واشتراكاً معنا فى جد الحياة وهزلها من آلهتكم . فلا جرم تمكّن حبها فى قلوبنا ، واختلط بنفوسنا ، وجرى مع دمائنا ، وكانت حاجتنا إليهم كحاجتنا إلى الهواء الذى نتنفسه ، وإلى الطعام الذى نقيم به أودنا ، وإلى الشراب الذى ننقع به الغلة ونبلّ الصدى ، وإلى المعرفة التى نغذو بها عقولنا ، ونرقّى بها قلوبنا ، وننقى بها طباعنا من الأوضار والآثام . فلما جاء الدين الجديد ، ضقنا به أشد الضيق ، ونفرنا منه أشد النفور ، وقاومناه أعنف المقاومة وأقساها ، وضحينا فى سبيل آلهتنا القدماء بكثير جداً من النفوس والدماء والأموال أكثر مما تستطيعون أن

تتصوروا . ولكن الإله الجديد كان أقوى من آلهتنا وأعظم سلطاناً ؛ فلم تثبت له الآلهة ، وإنما انهزمت أمامه وفرّت من معابدها وهيا كلها ، وأذعن أكثرها لهذا الإله الجديد ، ووَفى أقلنا لأولئك الآلهة المشرّدين . وقد نشأتُ فى أسرة من هذه الأسر التى توارثت الوفاء لأولئك الآلهة ، والتى كانت تؤدّى النصرانية لقيصر كما تؤدى له الضريبة التى يفرضها على الأموال ، فإذا خلت إلى نفسها وفتْ لآلهتها ، وأخلصت لها الدين محتاطة متحرجة ، بالغة من التحرج والاحتياط أقصى ما كانت تستطيع أن تتحمل . ولكن قيصر قد اشتد فى دينه . ولم يكتف من رعيته بالطاعة الظاهرة ، وإنما أراد أن يخلص إلى دخائل النفوس وضمائر القلوب ، وأن يحاسب الناس على آرائهم كما يحاسبهم على أعمالهم . فلقينا من ذلك جهداً أشد الجهد ، وعنتاً أعظم العنت ، حتى تحوّل كثير منا عما كان يضمر من حب آلهتنا . وإنا لفى ذلك العناء وإذا أنا أسمع حديثاً عن بلدكم هذا يغرينى به ويدفعنى إليه ، ويخيل إلىّ أن آلهتنا قد هاجروا من بلاد الروم إلى العرب ، فأقاموا فيها ، وفرغوا لأهلها يبسطون عليهم من سلطانهم العذب ما كانوا يبسطونه على الروم » .

قال صفوان : « وما ذاك الحديث ؟ » .

قال الرومىّ : « حديث ذلك الجيش النصرانى الحبشى الذى أقبل على بلدكم هذا ليهدمه ويدمره ، مقدماً بين يديه فيله العظيم . فما كاد يدنو من حرمكم هذا حتى رُدّ عنه أقبح الرد وأشنعه ، وحتى سلطتْ عليه تلك الطير التى مزّقته تمزيقاً » .

قال صفوان : « فإن رب الحرم قد ذاد العدوّ عن الحرم ، ما نجد فى ذلك غرابة ولا عجباً » .

قال الرومىّ : « أما نحن فقد وجدنا فيه الغرابة كل الغرابة ، والعجب كل العجب ، وأوّلناه ألواناً من التأويل . فأما رهباننا وأحبارنا فقد فهموا منه شيئاً آخر . ظن الأحبار والرهبان أن هذه آية قدّمتها السماء بين يدى آيات أخرى أكبر منها وأعظم خطراً . وظن الأحبار والرهبان أن أمور الناس ستتغير وتتبدل ، وأن ما أنزل على اليهود والنصارى من الدين سيتم فى هذا البلد الذى رُدّ عنه الفيل . وظننا نحن كما قلت لكم أن آلهتنا قد هاجروا إلى هذا البلد ، وأنهم قد ردّوا جيش الحبشة والروم عنه ، كما ردوا جيش الفرس عن بلاد اليونان منذ قرون . وتمتلئ نفسى بحب الآلهة ، وتطمئن نفسى إلى هذا التأويل ، وتحدثنى نفسى بالهجرة إلى بلادكم لألقى فيها آلهتنا ، ولأرى فيها تماثيلهم ، ولأعبدهم حرًّا ، وأتقرب إليهم ، مظهراً ذلك لا مستخفياً به ولا محتاطاً فيه . وأفكر فى الرحلة إلى هذه الأرض ، وفى الحياة التى سأحياها فى هذا البلد ، وفى رزقى كيف أكسبه . فأتصل بالذين كانوا يفدون على بلادنا من تُجاركم ، فأعلم منهم علم هذه البلاد ومن يعيش فيها من الناس ، وأقدمُ مع بعض قوافلكم تاجراً أسقيكم خمر الروم ، وأسمعكم غناء الروم . وإن لى فى بلادكم لأرباً غير هذا وذاك . وما أخفى عليكم أنى لم أبلغ بلادكم ولم أستقر فى أرضكم حتى أدركتنى خيبة الأمل ، وحتى جعلت نفسى تحدثنى بأن الأحبار والرهبان ربما كانوا أدنى منى إلى الحق ، وأقرب منى إلى الصواب ؛

فقد رأيت تماثيل آلهتكم ، ورأيت سيرتهم فيكم وسيرتكم فيهم ، فلم أعرف من هذا كله شيئاً ، ولم تعطف نفسى على صنم من هذه الأصنام القائمة ، ولم يمل قلبي إلى وَثن من هذه الأثان المنصوبة ، ولم يرتبْ ضميرى فى أن آلهتنا قد هاجروا من بلاد اليونان لا ليستقروا فى بلاد العرب ، ولكنهم مضوا إلى وجه من الأرض أو من السماء لا نعرفه ولا نهتدى إليه .

هنالك أخفيت أمرى فى مكة كما كنت أخفيه فى طرَسوسَ ، وأظهرت لكم نصرانيّتى هذه الرقيقة كما كنت أظهرها فى أرض قيصر ، وفرغت للتجارة واستثمار المال ، فجعلت أسقيكم الخمر ، وأسمعكم الغناء ، وأفيد منكم مالا كثيراً . ولكنكم أخذتم منذ حين فى هدم بيتكم هذا وتجديد بنائه ، فكان ذلك مصدر ما أنا فيه من الاضطراب » .

قال صفوان : « وما ذاك ؟ » .

قال الرومى : « ألم تفكروا فى أصنامكم هذه القائمة حول هذا البيت والمسندة إليه ما عسى أن تصنعوا بها أثناء الهدم والبناء ؟ ! » .

هنالك نظر بعض القوم إلى بعض نظرة لا تخلو من معنى .
وقال صفوان : « وماذا كنت تريد أن نصنع بها غير ما صنعنا ؟ ! » .

قال الرومىّ : « لم أكن أريد شيئاً ، وإنما كنت أنتظر » .

قال صفوان : « كنت تنتظر كما كنا ننتظر أن تتحول الآلهة عن أماكنها ، وأن تبهرنا بانتقالها إلى حيث تأمن معاول الهادمين . ولكن الآلهة لم تتحوّل فحوّلناها ، ولم تنتقل فنقلناها . وإذا تم البناء فسنرد ما نقلناه منها إلى أماكنها الأولى . فماذا تنكر من ذلك ؟ ! إنا لم ننكر منه شيئاً » .

قال الرومىّ : « فقد كنتم تنتظرون من الآلهة مثل ما كنت أنتظر ؟ » .

قال صفوان ضاحكاً : « ولكن الآلهة لم تحقق آمالنا ، ولم تفعل ما كنا ننتظر منها . أفنكره الآلهة على ما لا تريد ! يا غلام ! قد جفت حلوقنا فاملأ الأقداح » .

ثم التفت إلى الرومىّ وهو يقول : « إنك لتُعنِّى نفسك بأيسر الأمر وأهونه . إن أخصّ ما يميز الآلهة أنهم يفعلون ما يريدون هم لا ما نريد نحن » .

قال الرومىّ : « ولكنهم لم يفعلوا شيئاً » .

قال صفوان : « فمن حقهم ألا يفعلوا ، كما أن من حقهم أن يفعلوا » .

قال الرومىّ : « فإذا أتممتم بناءكم وبدا لكم ألاتردّوا آلهتكم إلى أماكنها أفتراها ترتد إليها على رغمكم ؟ » .

قال صفوان : « ما أدرى وما يعنينى من ذلك شىء . انتظرْ حتى يتم البناء ؛ فإن رأيت الآلهة قد ارتدت من تلقاء نفسها إلى أماكنها فقد ظهرت لك جلية الأمر . وإن رأيتنا نحن نردها إلى أماكنها كما حوّلناها عنها فاعلم أنها قد أخذتنا بذلك وأرادتنا عليه . وإن رأيتها قائمة حيث وضعناها ورأيتنا نتركها حيث هى فاعلم أنها تريد ذلك ، وتطمئن إلى أماكنها الجديدة . وأرحْ نفسك كما نريح أنفسنا من التفكير فى الآلهة ، واشغل نفسك كما نشغل أنفسنا عن أمور الآلهة بأمور الناس ، وعن حركات الآلهة بحركات هؤلاء الإماء الثلاث اللاتى يوقعن ويغنين فيكلفننا من أمرنا شططاً » .

وتفرّق هؤلاء الفتيان من قريش عن صاحبهم الرومى آخر الليل ، وإن بعضهم ليقول لبعض : ويلكم ! لقد فطن هذا الرومى لما فطنتم له . ولئن جاز لنا نحن أن نشك فى آلهتنا أو نسخر منها ، فما ينبغى أن يجوز ذلك لرومىّ يسقينا الخمر ويسمعنا الغناء . ويلكم ! ارفعوا ذلك إلى الملأ من قريش ! ليدبروا أمرهم وأمر الآلهة ! فإنه فى حاجة إلى التدبير ، وليحتاطوا أن يشيع هذا الشك فى عامة الناس وضعفائهم ، وفى هؤلاء الأجانب الذين يملئون مكة من الفرس والحبش والروم .

ولكنهم راحوا على صاحبهم الرومىّ من الغد ليستأنفوا عنده لهوهم ولذتهم ؛ فلم يجدوه ولم يجدوا إماءه الثلاث، وإنما وجدوا حانوتاً خالياً إلا من دنان وزقاق كان فيها فضل من شراب .

٣

واستقر حديث الرومى فى نفوس هؤلاء الفتيان ، وما أدرى أتحدثوا به إلى الملأ من قريش أم أخفوه عليهم ، ولكنهم لم ينسوه على كل حال ، وإنما جعلوا ينتظرون أن يتم بناء البيت ، ويتساءلون إذا التقوا — كما يسأل كل واحد منهم نفسه منفرداً — : ماذا عسى أن يصنع الآلهة ليعودوا إلى أماكنهم ؟ أيسعون إلى هذه الأماكن ليستقروا فيها ، أم ينقلون إلى هذه الأماكن محمولين على الأيدى والأعناق كما حوّلوا عنها محمولين على الأيدى والأعناق حين أخذت قريش فى هدم البيت ؟

وليس من شك فى أن الملأ من قريش قد فكروا فى هذا الأمر كما فكر فيه الشباب ، وانتظروا من الآلهة مثل ما انتظر الشباب . ولكن شيوخ قريش كانوا أمكر وأمهر من أن يظهروا من تفكيرهم شيئاً . وكانوا أضبط لأمورهم وأملك لعواطفهم من أن يظهروا الشباب وضعاف الناس على ما خالط قلوبهم من ريب ، وشاع فى نفوسهم من شك ، حين رأوا آلهتهم يُنقلون كما ينقل المتاع ، ويرَصّون فى أماكنهم الجديدة كما يرَصّ الأثاث . ومهما يكن من شىء فقد أتمت قريش بناء البيت ، وانتظرت بالآلهة يوما ويوماً ، فلما لم تجد منها إرادة ولا حركة ولا تحولا إلى أماكنها ردّتها إلى تلك الأماكن ردًّا ، وحملتها إليها حملا . واستقر فى نفوس الشيوخ والشباب شك عظيم .

وربما ظهر الأمر ببعض أولئك الشيوخ والشباب إلى ما هو أبعد من الشك والريب ، وأدنى إلى الجحود والإنكار .

ولكن محنة قريش فى آلهتها لم تقف عند هذا الحد الذى قد يفطن له أذكياء القلوب ، وأصحاب العقول النافذة والأحلام الراجحة ، ولكنه يخفى عادة على الدهماء ويجلّ عن أن تعرفه عامة الناس ، وإنما جاوزته إلى شيء خطير رأت فيه قريش خطباً عظيماً وافتضاحاً منكراً لما لم يكن ينبغى أن يفتضح من أمر الآلهة . فقد أسندت قريش من آلهتها إلى البيت ما أسندت ، وأقامت قريش من آلهتها حول البيت ما أقامت ، وخيل إليها أن قد فرغت من هذا الجهد الشاق ، وخلصت من هذا العناء الثقيل . ثم اجتهد الأشراف والسادة فى أن شغلوا عامة الناس ودهماءهم عن التفكير فى جمود الآلهة وقصورهم ، فأقاموا الأعياد ، وأكثروا من التقريب للآلهة ، وأسرفوا فى أموالهم ليطعموا الفقراء والبائسين ، وألحوا فى ذلك وقاموا عليه حتى تجاوز كرمهم أهل مكة إلى من كان يضرب حولها من الأعراب الذين جعلوا يقدّمون على مكة ، يلتمسون فيها حظوظهم من هذه الإبل والشاء التى كانت تقرّب إلى الآلهة فى غير انقطاع . ولكن قريشاً تصبح ذات يوم فتغدو على البيت فترى ، وياهول ما ترى ! ترى آلهتها مجدّلين قد صرّعوا حول البيت تصريعاً ، منهم المستلقى على ظهره ، ومنهم المنكبّ على وجهه ، ومنهم المضطجع على أحد جنبيه . وما أصف لك شيئاً مما ملأ قلوب قريش من الروع والهلع ! فأنت قادر على تصور ذلك إذا قدّرت إعظام العامة لآلهتها ، وحرص

الخاصة على ما ينبغى لهؤلاء الآلهة من جلال ووقار .

وتُقبل قريش على آلهتها فتردّهم إلى أماكنهم، وتقرّهم فى مواضعهم، ثم تستشير وتستخير وتدير بينها ألوان الرأى ، ثم يستقر الأمر بينها على أن الآلهة لم يرضوا بعدُ عمانحر لهم من ضحايا وما سفك حولهم من دماء . فتستأنف قريش ما كانت قد أخذت تعرض عنه من التضحية والتقريب ، وهذه الإبل تنحر ، وهذه الشاء تذبح ، وهؤلاء الفقراء ينعمون بعيش رغد وسعة متصلة . ولكن قريشاً تصبح من الغد فإذا آلهتها مجدّلون حول البيت ، قد فعلت بهم الأفاعيل !

ويعظم لذلك همّ قريش ، وتمتلئ لذلك قلوب قريش حزناً وأسى ، منهم الصادق المخلص ، ومنهم المشفق الماكر ، ولكنهم على كل حال يقيمون الأصنام ، ويجددون التضحية ، ويستشيرون الكهان ويجدّون فى البحث والاستقصاء ، لعل فى مكة قوماً يمكرون بالآلهة ، ويدبرون للحرم وأهله كيداً . وقد أقاموا الحراس حول البيت أثناء النهار ، فلم ير الحراس شيئاً ينكرونه . وأقاموا الحراس حول البيت آناء الليل ، فقاموا حذرين أيقاظاً ينتظرون ، ولكن انتظارهم لم يطل وإنما هو انتصاف الليل وتقدمه بعد ذلك شيئاً ، وإذا بضجيج يُسمع ، وأصوات تقرع الآذان . وينظر الحراس فيرون — ويا هول ما يرون ! — الآلهة وقد صرّعوا حول البيت تصريعاً ، فيفرون وقد ملكهم الخوف واستأثر بهم الفزع .

وقد أشار الكهان على قريش بأمر عظيم وقفت له القلوب فما تخفق ، وجمدت له الدماء فما تجرى ، ووجمت له النفوس فما تستطيع

روية ولا تفكيراً ، وهلعت له النساء فى البيوت ، وأشفق منه سكان مكة جميعاً إشفاقاً عظيماً ! فقد زعم الكهان لقريش أن لحوم الإبل والشاء ودماء الإبل والشاء ما كانت لترضى الآلهة بعد أن حولت عن أماكنها ، وبعد أن هدم بيتها وأعيد بناؤه ! ولا بدّ من أن يقرّب إلى الآلهة لون آخر من القربان يقنعهم بأن عبادهم من قريش لا يجودون عليهم بالأموال وحدها ، وإنما يتقربون إليهم بالأنفس أيضاً . وقال الكهان لقريش : يجب أن تقرّبوا لآلهتكم من أجيالكم الثلاثة رجلا وامرأة قد تقدمت بهما السن حتى أشرفا على الموت ، وفتى فى نضرة الشباب ، وصبيًّا وصبية من الأحداث . فإن لم تفعلوا فما ندرى ماذا يصنع الآلهة ؛ فإنهم لم يفعلوا إلى الآن أكثر من أن قدموا إليكم النذُر ، فأسرعوا إلى إرضائهم ! فإنا نخشى أن تسوء العاقبة ، وأن تصبحوا فلا تروا آلهتكم بينكم ، وألا تمضى بعد خروجهم عنكم أيام حتى يسلط عليكم شر عظيم . ولو استمع الملأ من قريش لما كانت تضطرب به نفوس الدهماء وعامة الناس لأطاعوا أمر الكهّان ، ولتقرّبوا إلى آلهتهم بهذا الإثم المنكر . ولكن الملأ من قريش كانوا أمكر من ذلك وأمهر ، وكانوا أحزم من ذلك وأعزم ! فقد خلصوا نجيًّا ذات ليلة فى دار ندوتهم ، وجعلوا يتشاورون ويديرون أمرهم بينهم . وليس من شك فى أنهم قد تلاوموا وتلاحوْا ، وألقى بعضهم على بعض تبعة ما كان من هدم البيت وتجديد البناء ، ولكنهم كانوا مجمعين أمرهم على ألا يذعنوا لما يأخذهم به الكهان ، ولا يقدّموا إلى آلهتهم أبناءهم وبناتهم وأن أمر الآلهة فى نفوس هؤلاء الشيوخ

الذين عركتهم التجارب لأهون من ذلك وأيسر . ولكن الملأ من قريش ينظرون فإذا بينهم رجل غريب ينكرونه ، ثم لا يلبثون أن يعرفوه ، شيخ قد تقدمت به السن ، واتخذ زيّ النجديين ، لم يكن بينهم حين اجتمعوا ولكنه ظهر فيهم فجأة ، لا يدرون من أين أقبل وهم قد أقاموا على الباب حراساً يمنعون أن يقتحمه أحد أو يدنو منه أحد . ولكنهم يذكرون أنهم قد رأوا هذا الشيخ النجدى ذات يوم حين أمضى الأمين حكمه فيهم ، وحين وضع الأمين الركن الأسود فى موضعه من البيت . رأوه يريد أن يشارك فى البناء فيرَدّ عن ذلك ردًّا عنيفاً ، فيظهر السخط ويعلن النذير ، ثم يستخفى فلا يظهرون له على أثر . فلما رأوه من تلك الليلة أقبلوا عليه يسألونه من أين جاء ؟ ومن عسى أن يكون ؟ فلا يرد على سؤالهم هذا جواباً ، وإنما يقول لهم فى صوت نحيف بعيد : « لقد أخذت النذر تتحقق يا معشر قريش . ألم أنهكم عن أن تحكموا بينكم رجلا كان أصغركم سنًّا ، وأقلكم مالا ، وأشدكم إعراضاً عن آلهتكم ، وأبعدكم من الاحتفاء بهم والإكرام لهم ! فقد أبيتم إلا أن تفعلوا ، وغضبت الآلهة مما فعلتم . وما أرى أن أموركم تستقيم إلا إذا نقضتم بناءكم شيئاً ، فأخرجتم الركن من موضعه ، ثم رددتموه إليه بعد أن تُضَحّوا لآلهتكم بمن أمركم الكهان أن تضحوا بهم . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الآلهة ، لا قِبَل لكم بها ولا قدرة لكم عليها . والخير يا معشر قريش أن تريحوا أنفسكم من هذا الأمين ؛ فإنكم إن أبقيتم عليه لم يبق عليكم ، وإن مددتم حياته لم يلبث أن يجذم حياتكم جذماً » .

ويسمع الملأ من قريش حديث هذا الشيخ مرتاعين له ، حتى إذا انقطع الصوت وهمّوا أن يحاوروا صاحبه نظروا فلم يجدوه بينهم ، وكأنه لم يدخل عليهم ولم يتحدّث إليهم .

هنالك تمتلىء قلوب القوم حيرة ، ويكادون يصرّفون عما كانوا فيه إلى السؤال عن هذا الشيخ : من أين جاء ؟ ومن عسى أن يكون ولكن الوليد بن المغيرة يقول فى صوت هادىء مطمئن : « ويحكم يا معشر قريش ! ما أرى إلا أن الشيطان يريد أن يعبث بكم ، ويصرفكم عما ألفتم وعما ألف الناس فيكم من الحزم والعزم ، ومن الأناة والوقار . إنه الشيطان يا معشر قريش ، ما أشك فى ذلك ! إنه قد ظهر بينكم ثم استخفى عليكم . وإنه قد أنذركم بالشر ، ودعاكم إلى أمر فظيع . أرأيتكم يا معشر قريش إن أخرجتم الركن عن موضعه ، تستطيعون أن تردوه دون أن يشجر بينكم الخلاف ، وتستيقظ فيكم الفتنة ، وينصب بعضكم لبعض الحرب ، ويدعو بعضكم بعضاً إلى القتال ؟ هل أنتم يا معشر قريش إن استمعتم لهذا المشير الخائن ، والنصيح الغاش ، فبطشتم بالأمين أو حاولتم البطش به ، إلا مضيعون للحق ، مهدرون للرحمة قاطعون للرحم ، تجزون الخير بالشر ، والمعروف بالمنكر ! فقد حقن الأمين دماءكم ، وهذا الشيطان يدعوكم إلى أن تهدروا دمه . وقد أقر الأمين فيكم السلم ، وهذا الشيطان يدعوكم إلى أن تثيروا بينكم وبين قومكم الحرب . لا والله ما دلكم هذا الشيطان إلا على الغى ، ولا دعاكم إلا إلى الإثم . ردّوا عليكم فضل أحلامكم ، ولا تكبروا من أمر هذه الأحجار غير كبير . إنى والله ما أراها كلها تعدل قطرة من هذه

الدماء التى ترادون على أن تسفكوها . أىّ أسرة من أسر قريش تريدون أن تفجعوها فى كبيرها أو صغيرها ؟ ! أيكم تطيب نفسه يا معشر قريش عن هذه التضحية بابنه أو بنته ، وبأبيه أو أمه ؟ ! إنكم لم تنسوا بعدُ قصة عبد المطلب وابنه عبد الله ، لقد كدتم تبطشون به ؛ لأنه كان يأبى إلا أن يضحى بابنه للآلهة . فإنكم لا ترادون الآن على أن تضحوا بواحد من قريش ، وإنما ترادون على أن تضحوا بستة من خيركم . لا تسمعوا لهذا اللغو ! وأمر هذه الأحجار أيسر عليكم وأهون فى نفوسكم مما تظنون ، ومما يخيل إليكم الشيطان » .

قال أمية بن خلف : « مهلا يا وليد! إنك لتقول الحق ، وتدعو إلى الرشد . ولكن خفض من صوتك، ولنكتم على الناس هذا الحديث ! فإنه إن ذاع لم ينتج لنا إلا شرًّا، والأمر بعد ذلك فى حاجة إلى التدبير . فما ينبغى أن يروح الناس عن آلهتهم وهم قائمون ، ثم يغدوا عليهم وهم مجدّلون » .

قال الوليد : « ما أرى إلا أن هذا الشيطان يعبث بنا وبهذه الأحجار ، يتخذها أسباباً ووسائل لكيد يدبِّره ، وشر يقدره . يقيمها أثناء النهار ، وينيمها إذا جنّ الليل » .

قال أمية : « فاقترح علينا وسيلة نخلص بها من كيد الشيطان ، ونُكره بها الآلهة على أن يظلوا ويبيتوا كما عرفهم الناس قائمين ، غير نائمين ولا مجدّلين » .

قال الوليد : « كلوا إلىّ أمر هؤلاء الآلهة ، فعلىّ أن أجد لكم منه مخرجاً » .

وتفرق الملأ من قريش وهم لا يدرون ماذا يريد الوليد أن يصنع .

ولكن الوليد غدا على ذلك البناء القبطى الذى أقام لهم البيت ، فاستشاره فى ذلك ، وأفضى إليه برأيه جليا صريحاً فى هذه الأحجار. فلما سمع منه « باخوم » أطرق شيئاً ، ثم قال مبتسماً : « هلا صنعتم بآلهتكم ما نصنع نحن بما نريد تثبيته من البناء ! » .

قال الوليد : « وما ذاك ؟ » .

قال باخوم وهو لا يملك نفسه من الضحك: « شدوا آلهتكم إلى أماكنها بأسباب من الرصاص » .

قال الوليد : « هو ذاك ! » .

والغريب أن أصنام قريش ثبتت فى أماكنها واستقرت فى مواضعها بعد هذه الحيلة ، وعجزت عن أن تتخلص من قيودها الرصاصية تلك ، فلم ترها قريش بعد ذلك إلا قائمة مكانها ، حتى كان يوم من الأيام رأتها فيه وقد حطمت تحطيماً .

قال ابن هشام : وحدثنى من أثق به من أهل الرواية فى إسناد له عن ابن شهاب الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح على راحلته ، فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام ويقول : « جاء الحق ، وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » . فما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع إلى قفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقى منها صنم إلا وقع . فقال تميم بن أسد الخزاعى فى ذلك:

وفى الأصنام معتبرٌ وعلمٌ ... لمن يرجو الثواب أو العقابا

نادي الشياطين

أطبق على الفضاء العريض ليل عريض ، تكاثفت ظلماته وركب بعضها بعضاً ، حتى لتوشك الأيدى أن تلمسها ، وحتى لتعجز أضواء النجوم أن تنفذ من بعضها ، وحتى لو رآها الناس لأنكروها ، ولقال بعضهم لبعض : هذا آخر ليل تعرفه الأرض ، أو هذا هو الليل الأبدىّ الذى لن تخرج الأرض منه ولن يمسها بعده الضوء . ولكن الناس لم يروا مثل هذا الليل العميق الكثيف شيئاً ، وإنما رأوا ليلهم كما تعوّدوا أن يروه ، يترقرق فيه ضوء القمر ، وتتألق فيه أشعة النجوم . ثم كأن عمق هذا الليل وكثافته لم يكفيا ليحجبا السماء عن ذلك الفضاء العريض ، فإذا قطع من السحاب تُقبل من كل صوب فى زمجرة وزئير حتى تلتقى وتنعقد ، فتضيف عمقاً إلى عمق ، وكثافة إلى كثافة ، وكأن الأسباب قد قطعتْ فى هذا الردَح من الزمان بين الأرض والسماء .

فى هذا الفضاء العريض القاتم الذى لا تستطيع لغة الناس أن تصف سعته وظلمته ، جلس إبليس لأعوانه ومشيريه من الشياطين . وما هى إلا أن أقبلوا إليه خفافاً لطافاً ، كأنما كان يحملهم نسيم من نار مظلمة . فلما انتهوا إليه وأطافوا به قال لهم فى صوت خفىّ : « لقد علمتم ما ألمّ بهذه الأرض من خطب ، وما نزل بأهلها من حدث ، وما كان من تحوّلهم عما ألفنا منهم منذ قرون ، فأشيروا » .

قالوا : « تكبرت أن نشير عليك ، وإنما منك الأمر وعلينا الطاعة » .

قال مستخذياً : « ما غمضتْ علىّ الأمور قط كما غمضتْ

عليّ الآن . وما عُميتْ عليّ الأنباء قط كما عُميتْ عليّ الآن . وما عوّدتكم أن أسألكم عن شيء أو أستشيركم فى شيء . ولولا أن الغيب قد حجبَ عنى لأول مرة ما دعوتكم ولا استشرتكم » .

قالوا : « تكبّرت ! لئن حجبَ الغيبُ عنك لهو أحرى أن يحجبَ عنا . وإنا منذ الليلة لفى ظلمة دامسة لم نعهد مثلها قط ، وإنا لنتحدث فما تكاد أصواتنا تبلغنا . ولولا أنك كبير فى نفوسنا لأشفقنا ألا تبلغك أصواتنا » .

قال : « لا تراعوا ولا يخرجكم الفزع عن أطواركم ! فإن أصواتكم تبلغنى كما يبلغكم صوتى . وما هذه الظلمة الدامسة إلا من عملى وكيدى . فقد أُلقىَ فى رُوعى أن من الخطر كل الخطر أن نتشاور أو ندير أمرنا بيننا دون أن نقيم بيننا وبين السماء حجباً كثافاً » .

قالوا : « تكبرت أن يردّ عليك رأى أو يخالف لك عن أمر ! فقل نستمع ، وادعُ نستجب ، ومرْ ننفذْ إلى طاعتك أسرع مما تنفذ السهام إلى رَميتها » .

قال : « على رسلكم حتى يثوب إلىّ الرسل الذين بثثتهم فى أقطار الأرض ، وبعثتهم فى أجواز السماء ليعلموا لى علم هذا الخطب . فما أرى إلا أن حادثاً عظيماً محدق بالأرض وسكانها » . وما أتم إبليس هذه الجملة من حديثه حتى جعل شرر دقيق سريع ينفذ من هذه الظلمات المتكاثفة فى قوة ، ويتبع بعضه بعضاً فى عنف وازدحام ، يأتى من كل وجه ، ويقبل من كل صوب ، حتى ريع الشياطين ، وخيل إليهم أن السماء تمطرهم ناراً .

قال إبليس : « ما أرى إلا أنكم قد فقدتم صوابكم ، وفارقتم أحلامكم ، وجعلتم ترتاعون لغير رَوْع . ما إشفاقكم من هذا الشرر وإنكم لترون فيه صور أنفسكم ! انظروا ! هؤلاء الرسل يقبلون من أقطار الأرض ، ويهبطون من أجواز السماء ، يحملون إلينا أخبار الأرض وأنباء السماء » .

وما هى إلا لحظة حتى عادت الظلمات إلى كثافها ، وانعقدت كهيئتها قبل أن يقبل هذا الوابل من الشرر ، كأنما كانت قطعاً من أدم أسود صفيق شُقت لهذا الشرر حتى نفذ منها ، ثم انعقدت عليه تحوطه وتحميه . وما هى إلا أن يتمثل هذا الشرر أشخاصاً خفافاً لطافاً لها أصوات خفاف لطاف كصوت إبليس ومن كان حوله من الشياطين . وإذا أحدها يتقدم واجفاً خائفاً ، حتى إذا كان من إبليس غير بعيد انحنى يظهر الطاعة والإكبار ، وقال فى صوت هامس كأنه هفيف النسيم : « تكبرت ! قد أفزعنا ورُوّعنا ورُمينا بالشُّهب ، ورُددنا عن مقاعدنا من السماء ، فما لنا إلى استراق السمع من سبيل » .

قال إبليس : « تعستَ ! لم تنبئنا بشىء لا نعرفه . فأين الرسل الذين أرسلتهم يستقصون الأنباء ؟ » .

قال الشخص الماثل : « تكبرتَ ، إنما أتكلم عنهم ، أنطق بلسانهم . لقد انتشرنا فى أجواز الجو من كل وجه ، وارتفعنا نحتال فى ذلك ما وسعتنا الحيلة ، وخلى بيننا وبين الارتفاع حتى غرتنا الأمانى ، وخيل إلينا أنه قد رُدّ الشر عنا . وما نكاد نبلغ مقاعدنا

حتى تصبَّ السماء علينا وابلا من شُهب مهلكة . وما أدرى كيف خلصنا إليك ؛ فقد احترق أكثرنا قبل أن يبلغ الأرض . وما أرى إلا أن السماء قد أبقت علينا لننفذ إليك فنبلغك ما ألمّ بنا من خطب ، وما نصب لنا من حرب ، وما هيئ لنا من نكاية وكيد » .

قال إبليس : « فأين الذين أرسلتهم إلى أقطار الأرض يحملون إلىّ أخبارها ؟ » .

قال قائل خفيف لطيف فى صوت هامس كأنه هفيف النسيم :

« تكبرت ! ها نحن هؤلاء نُقبل عليك لا نحمل من الأنباء إلا ما يملأ قلوبنا هلعاً وجزعاً . لقد طردَ إخواننا من أجواف الأصنام ، وحيل بينهم وبين شهود الضحايا والقربان فى هذا الوجه الذى تعرفه من وجوه الأرض . ما يكاد أحد منهم يستقر فى جوف صنم من هذه الأصنام إلا أخذه العذاب من كل وجه ، وضاق به هذا المكان الذى كان يتسع له ، وأخذت عليه الطرق والمنافذ ، كأنما يدفع به إلى الموت دفعاً . فمنا من كان ينفذ من أفواه الأصنام . ومنا من كان ينفذ من آذانها ، ومنا من كان ينفذ من أنوفها ، نجد فى ذلك أشد الجهد وأشق العناء » .

قال إبليس مغيظاً محنقاً : « ويلكم ! إنما أدرككم الجبن ، وأعياكم الجهد ، وعجزتم عن الاحتمال . إنما تفرون من عذاب إلى عذاب ، لن تلقوا عندى خيراً مما لقيتم هناك ! »

قال الشخص الماثل : « تكبرت ! ما جبنا ولا فشلنا ، ولكنا آثرنا أن نأتيك بالأنباء ، ونحن صائرون إلى ما تحب ، وعائدون

إن شئت إلى تلك الأصنام لنقيم فى غير مقام ، ونستقر فى غير مستقر ؛ فذلك أهون علينا وآثر عندنا من غضبك » .

قال إبليس : « فأين النساء ؟ » .

قال الشخص الماثل : « تكبرت ! كنّ أشجع منا نفوساً ، وأقدر منا على الاحتمال ، فآثرن البقاء فيما يكتنفهن من ضيق ، حتى يبلغهن أمرك ، أو يأتيهن الموت » .

قال إبليس : « ولم يخزكم ما رأيتم من صبرهن واحتمالهن ؟ ! » .

ثم سكت قليلا ، ثم قال : « بم يدعوك هذا الحى من قريش ؟ » .

قال الشخص الماثل : « يدعوننى هبل » .

قال إبليس : « ويزعمون أنك أكبر آلهتهم ، فعدْ إلى مكانك مدحوراً مخذولا ، لأؤمرنّ عليكم النساء منذ الليلة ، ولأعقدنّ لواءكم للعزّى » .

ثم عاد إبليس إلى صمته ، وإن الظلمة لتضطرب من حوله اضطراباً شديداً ، كأنما جرى الخوف فى طبقاتها ، فبعث فيها رعدة غريبة تقشعر لها الأرض اقشعراراً . ثم قال إبليس بعد هنيهة : فأين الذين كلفتهم أن يحملوا إلىّ من تراب الأرض ؟ » .

قالت أصوات مختلطة : « ها نحن هؤلاء » .

ثم جعل كل واحد منهم يدنو فيرفع إلى وجه إبليس قبضة من تراب فيشمها ، ثم يشير إلى صاحبها أن ألقها فيفعل . حتى إذا دنا منه أحد هؤلاء الرسل وقرّب إلى أنفه قبضة التراب التى كانت فى يده ، لم يكد يشم ريحها حتى أخذه ذعر شديد ، فنهض قائماً وهو

يقول فى صوت المرتجف المغيظ : « هو ذاك ! هو هذا الوجه من بلاد العرب ، قد ألمّ به الحدث العظيم . هو هذا الحى من قريش ، قد فسد الأمر فيه علينا أشد الفساد » .

قالت الأصوات واجفة خائفة : « تكبّرت ! فماذا تأمرنا أن نفعل ؟ » .

قال : « سنرى » . ولكنه لم يكد ينطق بهذه الكلمة حتى صَعِق ، وصعقت الشياطين من حوله ، وانجابت الظلمة فى أيسر من لحظة ، وأشرقت الأرض بنور عظيم وصل بينها وبين السماء ، ولصق الشياطين بأديم الأرض كأنهم ذرّات من تراب ، وامتلأت أقطار الجو بصوت مهيب ، ولكنه عذب يقول : « ألا إن الكتاب قد بلغ أجله . ألا إن أحمد قد نبئ منذ الليلة » .

ثم ينقبض الضوء مرتفعاً إلى السماء ، ويتجرّد الليل القاتم من ثوبه المشرق ، ويعود الفضاء العريض كهيئته حين كانت تطبق عليه الظلمة الكثيفة . وتمضى لحظات قد هدأ فيها كل شىء ، وإذا صوت خفيف لطيف كهفيف النسيم يضطرب فى الجو قائلا : « ويلكم ! هبوا ! فقد آن للجن أن ينصرف عنكم ، وآن لقلوبكم أن تبرأ من الفرَق » .

وهذه الأصوات تنبعث من أديم الأرض كأن كل ذرّة من ذرات التراب قد استحالت إلى شخص يسمع ويبصر ويتحرك ويريد . وهذا إبليس قد اتخذ مكانه من أعوانه ورسله ، وهو يلقى إليهم الأمر ، ويبعث فيهم النشاط ، ويوكلهم بأقطار الأرض ، ويأخذهم بأن

يكونوا أشدّ حذراً ، وأكثر احتياطاً ، وأعظم إغواء للناس . ثم يتجه إلى جماعة منهم قائلا : « أما أنتم فاكفونى شر هؤلاء الأحبار من يهود ، وهؤلاء الرهبان من النصارى ؛ فقد أخذوا منذ حين يفقهون التوراة والإنجيل ، ويتحدّثون إلى عامة الناس بما لم يكونوا يتحدّثون به من قبل . فكفوهم عن ذلك ما وجدتم إلى كفهم سبيلا ، واحملوهم على أن ينكروا ما عرفوا ، ويجحدوا ما قالوا ، واملئوا قلوبهم زيغاً ، وعقولهم ضلالا » .

ثم يلتفت إلى جماعة أخرى قائلا : « وأما أنتم فارجعوا إلى حيث كنتم من هذا الوجه من العرب ، وليأخذ كل منكم مكانه فى جوف صنمه لا يفارقه حتّى يأتيه أمرى » .

ثم يلتفت إلى سرب آخر قائلا : « وأما أنتم فبيتوا قريشاً من ليلتكم ، وليلزم كل واحد منكم رجلا منهم نائماً ويقظان ، ساكناً ومضطرباً فى الأرض . وإياى وأن يُفلت منكم أحد من قريش ! واعلموا أن من أفلت منه صاحبه فلن يجد عندى إلا عذاباً تعرفونه ، وما تحتاجون إلى أن أذكركم به أو أدلكم عليه » .

وقد أخذت الظلمة ترقّ ، وقد أخذ السحاب يتفرّق وينجاب ، وقد أخذت أشعة النجوم تبلغ الأرض ، وقد أخذ ضوء القمر يترقرق فى الجو ، وقد خفت الصوت ، وسكنت الحركة ، واستقر كل شيء . ثم أصبحت قريش فغدت على أعمالها كأنها لم تنفق ليلة نادرة فى ليالى الدهر ، إلا خديجة بنت خويلد ! فقد أقبل عليها زوجها مرتاعاً سعيداً ، ينبئها بالنبأ العظيم .

قال ابن سعد : « أخبرنا عليّ بن محمد ، عن سعيد بن خالد وغيره ، عن صالح بن كيسان : أن خالد بن سعيد قال : رأيت فى المنام قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ظلمة غشيتْ مكة ، حتى ما أرى جبلا ولا سهلا ، ثم رأيت نوراً خرج من زمزم مثل ضوء المصباح ، كلما ارتفع عظم وسطع ، حتى ارتفع فأضاء لى أوّل ما أضاء البيت ، ثم عظم الضوء حتى ما بقى من سهل ولا جبل إلا وأنا أراه ، ثم سطع فى السماء ، ثم انحدر حتى أضاء لى نخل يثرب فيها البسر ، وسمعت قائلا يقول فى الضوء : سبحانه ! سبحانه ! تمت الكلمة ، وهلك ابن مارد بهضبة الحصى بين أذرُح والأكمة . سعدت هذه الأمة . جاء نبيّ الأميين ، وبلغ الكتابُ أجله . كذّبته هذه القرية ، تعذّب مرّتين ، تتوب فى الثالثة ، ثلاث بقيت ، ثنتان بالمشرق ، وواحدة بالمغرب . فقصها خالد بن سعيد على أخيه عمرو بن سعيد ، فقال : لقد رأيتَ عجباً . وإنى لأرى هذا أمراً يكون فى بنى عبد المطلب إذ رأيتَ النور خرج من زمزم » .

لاكلوزا

١٦ رجب ١٣٥٥ : سبتمبر ١٩٣٧